بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا قدّم النَبيُّ الكريمُ للإنسانيَّة

الدكتورة رقية طه العلواني

2008م

محتويات الكتاب

فصل تمهيدي

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

تستهدف هذه الدراسة بناء نموذج متكامل لتقديم شخصية النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام[1]، لعالمنا المعاصر، يحرص على تبني وجهة نظر علمية تتسم بالحيدة والموضوعية- تجاوزت قدر المستطاع- مناهج الاحتجاج والنقض أو الدفاع والتبرير في محاورة الآخرين.

ومما لاشك فيه أن الكثير من المفكرين الغربيين والمسلمين قد حاولوا دراسة سيرة النبي الكريم، إلا أن العديد من هؤلاء يعتبرون السيرة والسنة النبوية مواعظ روحية وهداية دينية دون أن يكون لها دخل في شئون التحضر والعلوم والمعارف والعمران وإصلاح البشرية.

بَيد أن شخصية النبي عليه الصلاة والسلام -كما جاء في القرآن الذي سجل أغلب وقائع السيرة والأحاديث وكتب السير- تناولت قضايا الإنسانية الأساسية الاجتماعية والسياسية والدينية والتاريخية..الأمر الذي يستدعي إعادة النظر في طبيعة المنهجية التي يتمّ التعامل بها مع مختلف هذه الإحداثيات، في محاولة لاستنباط أسس التعامل مع هذه القضايا وكيفية معالجتها وفق المنهجية النبوية. وهو أمر يستدعي امتلاك الفقه لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ومنهجيته في التغيير من جهة، والواقع المعاش بكل تحدياته وأزماته البشرية من جهة أخرى.

من هنا تأتي هذه الدراسة في محاولة متواضعة لتحويل دفة الحديث عن سيرة شخصية النبي عليه الصلاة والسلام من جانب الدفاع والتبرير والردود إلى جانب الإسهام في تقديم وصياغة فكر استراتيجي يستوعب إحداثيات المفاهيم والأسس المنهجية التي حوتها تلك السيرة في معالجة قضايا الإنسانية فهما وسلوكا، ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

---

[1]- لفظة الصلاة والتسليم على جميع الأنبياء، أمر شائع بين المسلمين في أقوالهم وكتاباتهم. وهو نوع من التقدير والاحترام والاعتراف والإيمان بنبوتهم جميعا.

ولئن غاب عن العديد من الدراسات حول سيرة النبي الكريم، الإطار المعرفي الضابط لتصور ما قدمته للإنسانية وما يمكن أن تقدمه اليوم، فقد حرصت هذه الدراسة على تأسيس نموذج يربط منهجية النبي عليه الصلاة والسلام في التغيير والإصلاح من خلال سيرته، بواقع العالم اليوم، وفق إطار معرفي واضح حكم منهاجية التناول في أبعادها المختلفة، حاول بعمق وموضوعية فقه السيرة والواقع الآني للإنسانية، وطرح أسس معالجته من خلال فقه السيرة كمنهج حياة.

منهجية الدراسة

تحاول هذه الدراسة انتخاب أفضل منهج لتقديم شخصية النبي الكريم وذلك من خلال استنباط منهجية تتسم بالجدة والأصالة في الوقوف على بعض الإنجازات التي قدّمها النبي الكريم للإنسانية عبر التاريخ، وما يمكن أن تقدّمه سيرته اليوم من دروس وخطوات استراتيجية في ظل الظرفية الراهنة بكل ما تحمله من تحديات وأيدلوجيات معقدة.

من هنا جاء تبني هذه الدراسة للمنهج التحليلي الاستنباطي الشمولي **Deductive reasoning** في تقديم شخصية النبي عليه الصلاة والسلام. وهو منهج يقوم على ربط المقدمات بالنتائج، في توصيل المعلومات وعرض الحقائق التي لا يختلف عليها اثنان. وهو منهج –كما هو معلوم– يعتمد النتيجة إذا صدقت المقدمات.

فثمة مقدمات وظروف وأوضاع تاريخية –متفق عليها– سادت في العالم قبل بعثة النبي الكريم، وثمة نتائج وتغيرات هائلة، حدثت بعد بزوغ دعوته في العالم، ولا يماري فيها أحد. والمقارنة بين الأمرين كفيلة بكشف اللثام عن طبيعة الإنجازات التي أسهم بها النبي الكريم في التغيير الحضاري والإصلاح الإنساني.

وترى الدراسة أن اعتماد هذا المنهج في العرض، دون الخوض والاسترسال في تتبع الجزئيات والأدلة التفصيلية والحوادث المتعددة الواردة في السنة والسيرة النبوية، سيسهم في إزالة بعض غبش الرؤية والضبابية والتشكيك الموجّه نحو شخص النبي الكريم لدى المتلقي الحرّ.

ويستدعي هذا المنهج النظر والمقارنة بين حالة المجتمعات قبل بدء دعوة النبي الكريم وبعدها، ومن ثمّ إدراك طبيعة الإنجازات التي حققها النبي الكريم في مسيرته الحضارية التي أجمع المفكرون —قديما وحديثا– على تميزها ونوعيتها.

والمتأمل في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، لا يرى فيها تركيزا على النواحي الشخصية للنبي عليه الصلاة والسلام، أو الاسترسال في الحديث عن مواقفه الجمة التي تظهر أخلاقياته السمحة وشمائله العطرة، بقدر ما يلحظ الاهتمام بمعاني رسالته والإنجازات النوعية التي يمكن أن تحققها في الإنسان والمجتمع والكون، ومن ثمّ يدرك المتلقي الحرّ قدرة هذه الرسالة على إحداث التغيير الذي تنشده الإنسانية اليوم.

وقد أثمرت هذه المنهجية في عهود الإسلام المختلفة تفاعلا علميًّا رصينًا واحتراما واضحا ومتبادلا بين مختلف الشرائح لشخص النبي الكريم عليه الصلاة والسلام سواء في ذلك من آمن أم من لم يؤمن برسالته. من هنا كان حرص هذه الدراسة على تبني هذه المنهجية خاصة في ظل التحديات العالمية الهائلة.

كما تستدعي الدراسة الاعتماد على منهج متعدد المقاربات، أفاد من نتائج ومؤشرات الدراسات النفسية والاجتماعية ومقارنة الأديان كذلك، في محاولة لتقديم خطاب يحاور الآخر بأسلوب علمي رصين، يفيد من لغة العصر ويتقيد بالأصالة في الطرح.

آليات البحث

يقف الباحث في سيرة النبي –عليه الصلاة والسلام– على كمّ هائل من الأحاديث والوقائع المدّونة في كتب السيرة والأحاديث، التي يمكن من خلالها الوقوف على شمائل النبي

الكريم ومآثره وسجاياه. بَيد أن توجيه الخطاب للمتلقي (غير المسلم) يستدعي البحث في آليات أخرى. آليات لا تعتمد على الجزئيات الواردة في كتب الأحاديث والسير، التي يمكن أن تكون قابلة للأخذ والردّ في أذهان غير المسلمين. إذ أن الاستغراق في الجزئيات والتفاصيل، لا يسوق إلى ردّها إلى كلياتها وفهم العلاقة الدقيقة بينها، وقد يشعر المتلقي (غير المسلم) بإضفاء البعد الشخصي على الأفكار المطروحة وتعلق الكاتب بها لمحبته لشخص النبي الكريم ليس إلا.

من هنا لم تنطلق هذه الدراسة في تقديم شخصية النبي الكريم من خلال الأحاديث المروية عن صفاته وأخلاقياته وسماحته وعدالته ورحمته..لإثباتها وتبيانها، بقدر ما ركزت على الاهتمام بعرض المقدمات التاريخية المتمثلة في حالة العالم قبل دعوته —التي لم يختلف عليها المفكرون والباحثون– والنتائج التي حدثت بعد انتشار دعوته، من خلال **عرض علمي يتسم بالموضوعية، والبعد عن النبرة الحماسية والعاطفية في تقديم المعلومات، ليفسح المجال للعقلية المتحررة من أدواء التعصب والجحود، لاستقبالها والحكم عليها. دون إرباك المتلقي بالشعارات والتهاويل وتجاوز المضامين واستعجال النتائج.**

وقد قامت الدراسة بتوظيف الآليات التالية:

- الاعتماد المباشر على كتابات العلماء والمفكرين الغربيين أصحاب الخبرة والموضوعية دون الاعتماد على الترجمة لتحري الدقة العلمية والتمحيص العميق والضبط أثناء النقل عنهم.
- تجنب إصدار الأحكام على الوقائع والحوادث المتناولة في الدراسة، لدفع توهم أي تحيز أو بعد عن الموضوعية، ومنح المتلقي حرية الحكم والاختيار.
- توظيف الفكر المقارن والرجوع إلى النصوص المقدسة عند الحديث عن آراء الديانات السماوية في القضايا المعروضة.
- تقديم تراجم مختصرة للعلماء الغربيين والمفكرين الذين تمّ الاستشهاد بمقولاتهم في الدراسة.

أهمية الدراسة وإضافتها النوعية

تتميز هذه الدراسة عن غيرها من دراسات اهتمت بشخصية النبي عليه الصلاة والسلام، بمحاولة المساهمة في تقديم إضافة نوعية وإحداث نقلة معرفية وخطوات استراتيجية بارزة في هذا النوع من الدراسات وما شابهها.

فقد تناولت العديد من الدراسات والبحوث المعاصرة، الحديث عن النبي الكريم، وطبيعة رسالته والجوانب الشخصية في حياته وأخلاقياته وشمائله. ولم تخلُ الكثير من هذه الدراسات – المكتوبة بأقلام إسلامية– من النبرة العاطفية على حساب الأسلوب العلمي، فجاءت في سياق الدفاع عن السيرة والسنة، وتبني منهجية التبرير وردّ الأباطيل والشبهات المزورة التي تناولت جوانب عدة من سيرته العطرة، دون إجراء تمييز في طبيعة الخطاب ومتلقيه والنتائج المترتبة على هذا.

ولا ترى الدراسة جدوى الاسترسال في تبني هذا المنهج، خاصة في غضون المرحلة الراهنة التي تقتضي عرض الإسلام وتعاليم النبي الكريم ومعالم شخصيته بأسلوب علمي موضوعي، يفسح المجال للعقلية الحرّة، إدراك الحقائق والوقوف عندها دون محاولة فرض ذلك على المتلقي.

وتلافت هذه الدراسة النظرة الضيقة لتقديم إنجازات النبي الكريم بحيث لم تعتبر ممارساته عليه الصلاة والسلام، قاصرة على المكان والزمان والعصر الذي عاش فيه –كما يفعل الكثير من الباحثين المسلمين–بل حرصت على إبراز أهمية اتباع منهجيته واستنباط الأسس التي سار عليها لإحداث التغيير، ومن ثمّ تقديمها للإسهام في تجاوز أزمات العالم اليوم. وهو أمر يبرز عالمية الرسالة واستمراريتها وقدرة السيرة النبوية على معالجة المنعطفات الراهنة والمستقبلية إذا ما تم تصحيح منهجية قراءتها وتفعيلها في الواقع.

من هنا جاءت فكرة هذه الدراسة في محاولة تقديم <u>دراسة تكاملية وبناء حوار معرفي مع الغرب ابتداء، يتجاوز مداخلات المقاربات والدفاع والاتهامات ليتحول إلى موقف إيجابي في التعامل مع السيرة النبوية وتناولها من مداخلها الحضارية، وإسهاماتها الإبداعية في إحداث النقلة</u>

النوعية في المنهجية والفكر الإنساني. الأمر الذي يمكن أن يتيح للعالم فرصة تفهم القيم الإنسانية التي حوتها السيرة والسنة النبوية، والإفادة منها في حياتنا العقلية، والنفسية، والسلوكية، والعمرانية.. ومن ثمّ إدراك قيمة ما قدّمته الشخصية النبوية للإنسانية وقدرة سيرتها على تقديم المزيد اليوم من خلال تفهم مسيرتها الحضارية ومنهجيتها في إحداث التغيير والنقلات النوعية الاجتماعية والثقافية والسلوكية والدينية كذلك.

أمام هذه الحاجة إلى هذا النوع من الدراسات وفي غياب دراسة تتبنى هذه المنهجية وتدعمها، زيادة على دعوة كثير من الكتاب المعاصرين إلى العناية بهذا الموضوع لتقديم عمل تعريفي بشخصية النبي عليه الصلاة والسلام، ظهرت الحاجة الملحة لمثل هذا النوع من الدراسة في المرحلة الراهنة.

وتعد هذه الدراسة من أوائل الكتابات التي توظف هذا النوع من المنهجية – حسب إطلاعي– في عرض وتقديم سيرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

ولعل من نافلة القول بالصعوبات التي تكتنف هذا النوع من المنهجية والدراسة. فالمنهجية المتكاملة في دراسة السنة والسيرة النبوية، تقتضي سبراً عميقاً للمناهج الجزئية في دراستها، و إلماماً واعياً بما أنتجه تطبيق المناهج الجزئية من معارف وأفكار متناثرة، وتصور يحيط بواقع العالم الإنساني وأزماته، وإطلاع على مداخله ومتغيراته من داخل المجتمع الدولي.

نبذة عن مصادر الدراسة والدراسات السابقة

كثيرة هي الدراسات التي تصدت للحديث عن شخصية النبي الكريم في الفكر الإسلامي والإنساني قديما وحديثا بالتحليل والدراسة. وكثيرة هي مناهج العلماء والباحثين في ذلك التحليل وتلك الدراسة. وكثيرة هي الاجتهادات التي حاولت الإحاطة بأهم جوانب دعوته ورسالته ومآثره. من هنا فإن الباحث في هذا الموضوع، يجد نفسه أمام ثروة هائلة من الأدبيات المختلفة وبمختلف اللغات وبمناهج متعددة.

بَيد أن الدراسة قامت بالتركيز على الأدبيات المكتوبة من قِبل كتّاب ومفكرين غربيين بالدرجة الأولى، قاموا بدراسة حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وتقديمها بأساليب متعددة. اتسم البعض منها بالموضوعية والحياد والعرض العلمي البعيد عن التعصب والتحليل الشخصي للأحداث المبني على أفكار أو توجهات مسبقة.

ومن أبرز مصادر الدراسة، كتب ومؤلفات الكاتبة المعروفة كارن آرمسترونج آرمسترونج[2]. وتدافع المؤلفة كارن آرمسترونج آرمسترونج عن الإسلام، وتسعى إلى دحض الاتهامات الباطلة، والآراء الخاطئة، والأفكار المغلوطة التي تنتشر عنه في بعض أوساط المجتمعات الغربية[3].

وتؤكد أن ما يُكال ضد الإسلام من أكاذيب مكشوفة وشناعات مكروهة، إنما تكشف عن مواقف كثير من الساسة الغربيين ورجال الدين والثقافة والإعلام، وهي مواقف تنطلق من روح العداء للإسلام والجهل به، وبذلك تظل مجرد تلفيقات ودسائس لا نصيب لها من الصدق أو الموضوعية، تسيطر عليها مشاعر الحقد والتعصب، والرغبة المحمومة في التنفير من تراث الإسلام ورسالته، وتشويه الشخصية العربية ـ الإسلامية، والإساءة للمسلمين على حدّ قولها.

وتُحاول الكاتبة في مؤلفاتها، تحليل أسباب هذه النظرة الغربية المجحفة للإسلام، وتقدم بعض العوامل التي أسهمت في بروز هذه النظرة: كالخوف من الإسلام، والجهل الشديد بتعاليمه، وواقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة وما يسود بعضها من مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية تدفع أحياناً إلى أعمال العنف أو التطرف، رغم أن هذه المشكلات – من وجهة نظر المؤلفة– ناجمة عن ظروف وعوامل أخرى، لا يمكن أن يكون الإسلام سببها أو الدافع إليه.

---

[2]- كارين آرمسترونغ راهبة كاثوليكية، تعمقت في قراءة أديان العالم، وتوسعت في إقامة المقارنات فيما بينها، ثم أصبحت كاتبة تهتم بالدراسات الدينية والفلسفية والأدبية، وقد أصابت شهرة واسعة في أبحاثها التي اتصفت بالموضوعية، والتحرر من عقد الضغينة والكراهية والحرص على إماطة اللثام عن الحقائق، والجهر بها، والدفاع عنها حتى لو خالفت في الحقيقة آراء محيطها الثقافي، وبيئتها الفكرية. والدينية.

[3] - Fundamentalism in Judaism, Christianity and Islam (2000), Islam: A Short History (2000), Muhammad: A Prophet For Our Time (2006).

وترى المؤلفة أن سطوة الإعلام الغربي تلعب دورا بارزا في تكريس هذه النظرة السطحية. وتخلص آرمسترونج إلى حقائق هامة تخاطب بها مجتمع الغرب، مؤكدة من خلالها أن **الإسلام دين سماوي، حمل للبشرية قيم الوحدانية والعدالة، والحشمة والرحمة واحترام الإنسانية**.

ويشارك الكاتبة في هذا الرأي العديد من المؤرخين والكتّاب الغربيين من أمثال Bruce B. Lawrence الكاتب الأيرلندي المعروف[4]. فقد أكد في كتابه Shattering the Myth: Islam beyond Violence أن النظرة الغربية المجحفة للإسلام و النبي عليه الصلاة والسلام مرّدها غالبا إلى وسائل الإعلام التي لم تألو جهدا في إجراء عمليات التنميط للمسلمين على أنهم متطرفون وإرهابيون.....ويرى الكاتب أن الوقت قد حان ليرى الغرب الإسلام وتعاليمه وشخصية نبيه الكريم بعين الموضوعية والتعقل[5]. ويعد كتابه The Qur'an: A Biography (Books That Changed the World) من أبرز الكتابات التي قدمت نظرة موضوعية عن تعاليم القرآن وقيمه الإنسانية والأخلاقية.

ويُعدُّ العمل الذي أنجزه ول ديورانت[6] في دراسة الحضارة الإنسانية منذ فجر التاريخ وحتى نهاية عصر نابليون، من الأعمال الفريدة والعظيمة الخارقة. فقد سهَّل للدارسين والباحثين الإلمام بالتاريخ الإنساني بشتى تفاصيله برؤية فلسفية شاملة تُعطي لكل جانب من جوانب الحياة البشرية ما يستحقه من عناية وتمحيص واستقصاء. فجاء كتابه (قصة الحضارة) تاريخا شاملاً لكل جوانب النشاط الإنساني في مجالات الفكر والفعل ضمن معالجة موضوعية تتوخى الحقيقة وتلتزم الحياد ...يقول في تقديم الجزء الثاني عشر: "إن الغرض الذي أبغيه من تأليف هذا الكتاب هو أن أعرض (قصة الحضارة) كاملة بعيدة عن الهوى بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية والطريقة

[4]– أستاذ الدين والعلوم الإنسانية في جامعة دوك، يعد حجة في التاريخ ألف 12 كتابا، تناول في أغلبها الحديث عن الإسلام بطريقة موضوعية، وحمل على النظرة السطحية التي تنتقص من تعاليم هذا الدين والثروة الهائلة الموجودة في القرآن. من مؤلفاته:

(including *New Faiths, Old Fears: Muslims & Other Asian Immigrants in American Religious Life*)

[5]– الموضوعية تعني تركيز الدراسة والفحص على الظاهرة التي ندرسها من دون تحيز لقيمنا ومبادئنا وعقائدنا وأهوائنا. وهي عكس الذاتية التي تعني التعبير عن الذات والموضوعية مفهوم مرفوض كمطلق.

[6]- ولد ديورانت عام 1885 وتوفي عام 1981، وقد منح جائزة بوليترز عام 1968 وميدالية الحرية عام 1977. وقد أمضى أكثر من خمسين عاما في كتابة موسوعته "قصة الحضارة" المكونة من أحد عشر مجلدا.

التي اتبعتها في تأليفه هي النظر إلى التاريخ كله على أنه وحدة شاملة يكمل بعضه بعضا". وقد خصص الجزء الثالث عشر من كتابه، عن ظهور الإسلام، ثم عن ازدهار الحضارة الإسلامية وما جرى فيها من صعود وهبوط[7].

ومن الدراسات الهامة التي وقفت عليها الدراسة، كتابات المؤلف الأيرلندي والروائي العالمي برنارد شو الحاصل على جائزة نوبل في الأدب. ويرى Bernard Show أن **الإسلام هو الدين الوحيد الذي يمتلك القدرة على استيعاب أطوار الحياة المختلفة في كل العصور وأنه يجب أن يسمى النبي محمد، منقذ الإنسانية**. ولو تولى شخص مثله الحكم في العالم المعاصر لنجح في حل مشكلاته[8].

ومن الدراسات التي وقفت عليه الدراسة كذلك، كتاب: أهل الإسلام...محمد قرآنيا، الإسلام دين وجماعة.. للمؤلف الفرنسي المعاصر " لويس غارديه"[9]. وقد ناقش المؤلف في كتبه، دراسة موسّعة لعالم الإسلام، يثبت فيها أن هذه العقيدة هي الخلاص للبشرية التائهة المعذبة، وأن الدين الإسلامي يصلح لكل زمان ومكان وهو دين ودنيا.

كما تناول طريقة عيش المسلمين مع قيمهم الروحية خلال تاريخهم الطويل، وكيفية تجسيد هذه القيم في عالم الواقع الحي المتطّور بتطور الظروف الاجتماعية والاقتصادية. ويرجع المؤلف كثيرا إلى كتابات ابن خلدون والباحثين العرب القدامى، وينظر في المعلقات فيرى فيها وجهاً أدبياً مضيئاً للعرب، وفي محتوياتها تبرز الخصال العربية الكريمة؛ كالحلم والشجاعة والمروءة والعزة والكرامة ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف والضيافة...

---

[7]- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الثانية، مصر، 1964،ج13. وانظر كذلك: ويل ديورانت، أبطال من التاريخ.. مختصر قصة الحضارة، ترجمة: سمير الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2003م.

[8] - George Bernard Shaw, The Genuine Islam, Singapore, Vol. 1, No. 8, 1936.

[9]- مفكر فرنسي معاصر تخصص بالفكر والحضارة الإسلامية، واهتم بالمجتمع الإسلامي، وله في ذلك عدة مؤلفات بالفرنسية (الحاضرة الإسلامية) و(الإسلام دين وجماعة) وقد زار أقطاراً عربية، وحاضر في عدد من جامعات المغرب والجزائر والقاهرة.

ويرى الكاتب أن دور النساء قد برز في العصر الإسلامي حيث برزت بعضهن ممن اشتهرن بإصابة الحق وسداد الرأي وصدق النظرة[10]...

ومن الكتابات الهامة كذلك كتاب المؤرخ المعروف Hodgson, Marshall هودسون مارشال[11] بعنوان: ظهور الإسلام الواقع في ثلاثة أجزاء The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization.

وقد حاول المؤلف في هذا الكتاب تقديم تفسيرات تاريخية واجتماعية وسياسية للحضارة الإسلامية والإنجازات التي قدمتها للبشرية. كما تناول في الجزء الأول من كتابه حالة العرب قبل البعثة، مبينا حجم النقلة النوعية التي أحدثتها بعثة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

ومن الدراسات الهامة التي وقفت عليها الدراسة، كتابات جون أسبوزيتو.[12] ومنها كتاب: "التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة؟"[13]. إذ يقدم فيه مسحا موسعا ومتكاملا، يجمع بين العرض التاريخي والمسح الجغرافي والتحليل الهيكلي لمعظم الحركات والمنظمات الإسلامية في العالم. ويناقش محاولات الإصلاحيين لإعادة تفسير المبادئ الأساسية الإسلامية، في محاولة لإيجاد حلول جديدة وعصرية للمشكلات التي يواجهها المسلمون في العصر الحديث.

وقد قام المؤلف بتفنيد الدعاوى الكاذبة والاتهامات الملصقة بالإسلام قبل وبعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر. واستطاع بالأدلة والبراهين إبراز صورة أكثر تركيبا وقربا من الصورة الحقيقية للإسلام. ويؤكد أسبوزيتو بأن وجود الإسلام كديانة عالمية وقوة أيديولوجية تحتضن أكثر من

---

[10]- لويس غارديه، أثر الإسلام في العقلية العربية، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992م. وانظر له كذلك: فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية، ترجمة: صبحي الصالح، دا رالعلم للملايين، بيروت.

[11]- **Marshall G.S. Hodgso** عاش في الفترة من 1922- 1968م. مؤرخ وعالم اجتماع أمريكي شهير. له مؤلفات عديدة في التاريخ الأوروبي الوسيط. وله آراء اتسمت بالجرأة والموضوعية حول الإسلام وحضارته وطبيعة العلاقة بينه وبين الغرب. ويعد كتاب ظهورالإسلام بأجزائه الثلاثة من أشهر مؤلفاته. يقال أنه اعتنق الإسلام. انظر ترجمته في الموسوعة الحرة ويكبيديا وكذلك في:

Marshall G. S. Hodgson (Edited, with an Introduction and Conclusion, by Edmund Burke III) *Rethinking World History: Essays on Europe, Islam and World History* (Cambridge 1993)

[12]- جون أسبوزيتو الباحث الأمريكي المشتغل بتاريخ الإسلام والمسلمين، وهو من أصحاب الخبرة العميقة بحركات الإسلام السياسي المعاصرة في العالم.

[13]- جون ل. سبوزيتو، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار الشروق، القاهرة، 2002م.

خُمس سكان العالم وحيويته المستمرة ونفوذه في عالم إسلامي ممتد من أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا سوف يستمر. ومن المهم مع فجر القرن الحادي والعشرين عدم ملء الفراغ الناجم عن نهاية الحرب الباردة بالمخاوف المبالغ فيها من الإسلام، باعتباره بعثا لـ "إمبراطورية الشر" المشتبكة في حرب مع النظام العالمي الجديد! على حدّ قوله.

ويطرح الكاتب تساؤلات عدة غير تلك التي وردت من قبل: مثل هل يتقاسم الغرب والعالم الإسلامي مصالح مشتركة وقيما مشتركة، أم أن هناك صداما في الرؤى العالمية يخيم على الأفق؟ هل الاتجاه للتحرر والديمقراطية في العالم الإسلامي من جانب الحركات الإسلامية مجرد وسيلة تكتيكية في سبيل غاية معينة؟ ما الذي ستكون عليه التزامات المجتمعات الإسلامية تجاه التعددية وحقوق الإنسان ووضع المرأة والأقليات؟ كيف يمكن لسياسة الولايات المتحدة أن تحول شبح التهديد الإسلامي إلى عملية متابعة لمستقبل عالمي مشترك؟.

ومن الكتابات الهامة أيضا، كتابات ليوبولد فايس[14] (محمد أسد) الذي حرص على توضيح معنى السنة ومكانها في التشريع الإسلامي، ومدى التوثيق الذي حظيت به، وما هي طبيعة التعامل التي يجب أن تنظم العلاقة بينها وبين المسلم، وردود الأفعال التي تمخّضت عن هذا التعامل عبر التاريخ. و يصل محمد أسد في كتابه الموسوم ب: الإسلام على مفترق الطرق[15]، أن السنة ليست مجرد حشود من المفردات السلوكية، ولكنها وحدة مركبة وبرنامج عمل يتميز بالشمولية والترابط، ويوازي حياة المسلم نفسها بكل تفاصيلها ونبضاتها. وأن هداية النبي

[14]- "ليوبولد فايس " نمساوي يهودي الأصل ، درس الفلسفة والفن في جامعة فيينا ثم اتجه للصحافة فبرع فيها ، وغدا مراسلاً صحفياً في الشرق العربي والإسلامي ، فأقام مدة في القدس ثم زار القاهرة. قام محمد أسد بعد إسلامه بأداء فريضة الحج ، كما شارك في الجهاد مع عمر المختار ، ثم سافر إلى باكستان فالتقى شاعر الإسلام محمد إقبال ، ثم عمل رئيساً لمعهد الدراسات الإسلامية في لاهور حيث قام بتأليف الكتب التي رفعته إلى مصاف ألمع المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث. وأشهر ما كتب محمد أسد كتابه الفذ (الإسلام على مفترق الطرق). وله كتاب (الطريق إلى مكة) ، كما قام بترجمة معاني القرآن الكريم وصحيح البخاري إلى اللغة الإنجليزية .

– صلى الله عليه وسلم– يجب أن تضمّ الحياة على أنها وحدة مركبة، أي على أنها مجموع أعمق المظاهر الخلقية والعملية والشخصية والاجتماعية، وهذا أعمق معاني السنة.

وثمة كتابات عديدة تضمنتها الدراسة، أوضح مؤلفوها أن الإسلام من أكثر الديانات تسامحا وأن التطرف الديني موجود في المسيحية واليهودية، ومن الخطأ إغفال تاريخ الإسلام الحضاري الطويل واعتبار قلة متطرفة النموذج السائد والشائع لأصحاب ديانة بأكملها.

أقسام الدراسة

تمّ عرض عرض هذه الدراسة من خلال مسلك تصاعدي لبنائه لَبنة لَبنة، استغرقت ستة فصول عدا الفصل التمهيدي والخاتمة. خُصص الفصل الأول لتناول حلقة الحالة العامة لأوضاع المرأة في العالم قبل دعوة النبي عليه الصلاة والسلام وبعدها.وقد تمّ تقسيمه إلى مباحث: الأول تناول الحديث عن المرأة في الإمبراطورية الفارسية، والثاني تناول المرأة في الإمبراطورية الرومانية. أما الثالث فقد تمّ فيه تناول المرأة العربية في العصر الجاهلي. وتمّ تناول أوضاع المرأة في عهد النبي الكريم في المبحث الرابع.

أما الفصل الثاني فقد تمّ فيه عرض أوضاع العبيد قبل وبعد رسالة النبي الكريم. وقد اشتمل على مباحث. الأول تناول أوضاع العبيد في الإمبراطورية الفارسية، والثاني في الإمبراطورية الرومانية، والثالث أوضاعهم في العصر الجاهلي. أما الرابع فقد خصص للحديث عن أوضاع العبيد بعد رسالة النبي عليه الصلاة والسلام.

وفي الفصل الثالث تمّ تناول ممارسات العالم مع المخالفين في العقيدة الدينية وأوضاع الحرية العقائدية في العالم قبل بعثة النبي الكريم وبعد رسالته. وقد تمّ تقسيم الفصل إلى مباحث: الأول في الإمبراطورية الفارسية، والثاني في الإمبراطورية الرومانية أما المبحث الثالث فقد تمّ الحديث فيه عن أوضاع المخالفين عند العرب قبل الإسلام. وفي المبحث الرابع جاء الحديث عن أوضاع المخالفين بعد ظهور رسالة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام. كما تم فيه عرض أسس التعامل

---

[15]- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة د. عمر فروخ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين، بيروت، 1965 م.

مع المخالف المتمثلة في: العدالة، والمساواة، والحرية. وتم عرض تطبيقات لتلك القيم من خلال تناول مسألة النبي الكريم والوفاء بالمواثيق والعهود، وعلاقاته الدولية.

أما الفصل الرابع فقد خصص للحديث عن الوضع الحضاري للعرب قبل الرسول الكريم وبعده. وتمّ تقسيمه إلى مباحث: الأول تناول وضع العرب قبل الإسلام، الثاني: بعد الإسلام، الثالث: تمّ فيه عرض بعض إنجازاتهم، أما الرابع فقد خصص للحديث عن بعض ميادين الإسهامات الحضارية.

أما الفصل الخامس، فقد جاء بعنوان: ما يمكن أن تقدمه سيرة النبي الكريم للعالم اليوم. وتمّ فيه تقديم دراسة تطبيقية من خلال تناول أنموذجين: الأول مؤسسة الأسرة وما تعتريها من تحديات في عالمنا اليوم. ووقفت الدراسة على أخطار الشذوذ الجنسي على الأسرة والمجتمع على سبيل المثال، كما قدمت خطوات لمعالجة أي نوع من الانحراف الخلقي والسلوكي من خلال منهجية النبي الكريم في معالجة الأزمات الأسرية والانحرافات.

أما الانموذج الثاني فقد خصص للحديث عن حدة التعصب والتطرف وخطورته من النواحي الاجتماعية والنفسية. ثم طرحت الدراسة كيفية معالجته من خلال اعتماد المنهجية النبوية في ذلك بأسلوب يحاول تحليل المواقف في السيرة وقراءة الواقع المعاش.

أما الفصل الأخير فقد تمّ فيه تقديم تصور ورؤية مستقبلية وخطوات عملية واستراتيجية لكيفية تقديم شخصية النبي الكريم للعالم على الصعيد المحلي والدولي. وجاء في مبحثين: الأول القدوة والسلوك العملي، والثاني خصص للحديث عن الوسائل المعاصرة. وتمّ فيها تناول: دور سفارات الدول الإسلامية في العالم، تفعيل دور المؤسسات التعليمية في عرض السيرة النبوية، المناهج الدراسية، وإنشاء مشروع الموسوعة النبوية باللغات الأجنبية، ودور المؤسسات الإعلامية.

أما الخاتمة فقد تمّ فيها عرض موجز أهم نتائج الدراسة وتوصياتها.

الفصل الأول

أوضاع المرأة في العالم قبل رسالة النبي الكريم

تمهيد

لا يمكن إدراك حجم التغيير الحضاري والنوعي الذي أحدثه النبي عليه الصلاة والسلام في عمق التاريخ الإنساني دون دراسة واعية متأنية للعالم قبيل بعثته وانتشار رسالته، من مختلف الأبعاد الاجتماعية والسياسية والثقافية...وخاصة في شبه جزيرة العرب وما حولها..تلك المنطقة التي شهدت بواكير دعوته. يقول الكاتب فرانسيسكو جبرائيل في تأكيد أهمية ذلك:

"It is impossible to deal with Muhammad and his achievement without first learning something about the land, the people, the society and the national tradition into which he was born, and which he partly revolutionized or altered profoundly …"[16].

فقد غابت سمات التنظيم الإداري والتشريعي بالمعنى المتعارف عليه. وكان لكل قبيلة نظامها الخاص بها باستقلالية تامة. وكان شمال الجزيرة العربية وجنوبها ميدانا للصراع الديني والسياسي وامتدادا مباشرا للحرب الضروس القائمة بين القوتين العظمتين آنذاك: الإمبراطورية البيزنطية والفارسية. فكان الشمال الغربي للجزيرة العربية تحت نفوذ الدولة البيزنطية، بينما كان الشمال الشرقي تحت نفوذ الدولة الفارسية. أما الجنوب فقد كان مسرحا لتحالفات مختلفة مع هذا الجانب أو ذاك. الأمر الذي انعكس على كافة النواحي الحياتية من اجتماعية وسياسية وفكرية....

يقول في ذلك البروفيسور توماس أرنولد:

"It is important to remember the peculiar character of Arab society at that time…There was absence of any organized administrative or judicial system such as in modern times we connect with the idea of a government. Each tribe or clan formed a departed and absolutely independent body, and this independence extended itself also to the individual members of the tribe, each of whom recognized the authority, or leadership of his chief only as being the exponent of a public opinion which he himself happened to share…"[17].

---

[16] - Francesco Gabrieli, Muhammad and the Conquests of Islam, World University Library, Italy, 1968.p. 25.

[17] - Thomas Arnold, The spread of Islam in the world, Goodword Books, London, 2003, p.31.

المبحث الأول

المرأة في الإمبراطورية الرومانية

لم يكن للمرأة الحرّة الكثير من الحقوق في القانون اليوناني فحُرمت من الإرث وحق الطلاق ومُنع عنها التعلم. في حين كانت للجواري حقوق أكثر من حيث ممارسة الفن والغناء والفلسفة والنقاش مع الرجال.

أما في العصر الروماني فقد حصلت المرأة على حقوق أكثر مع بقائها تحت السلطة التامة للأب أو لحكم سيدها إن كانت جارية. أما المتزوجة فإما أن تكون تحت سلطة وسيادة الزوج أو أن تعاشر زوجها وتبقى مع أهلها وسلطتهم. بَيد أن بعض النساء من ذوات الطبقة الراقية في المجتمع تبوأن منزلة رفيعة فكان منهن قاضيات وكاهنات ولهن ثروات خاصة بهن.

كانت المرأة تعامل في القانون الروماني كالأطفال والمجانين فهي فاقدة الأهلية، وقانون الألواح الاثني عشر قد نصَّ على أنَّ أسباب انعدام الأهلية صغر السن والجنون والأنوثة.

وكان لرب الأسرة أن يبيع من يشاء ممن هم تحت ولايته، وجاء قانون الألواح وحصر حق البيع في ثلاث مرات للابن بحيث إذا باع الأب ابنه ثمَّ عاد واشتراه، ثمَّ باعه، ثمَّ اشتراه، ثمَّ باعه فيصبح حراً من سلطة رب الأسرة. بينما تظل البنت تحت سلطان رب الأسرة حتى يموت، وهذه السلطة تمتد إلى الزوجات، وهي تشمل البيع والنفي والتعذيب، بل والقتل.

" Throughout most of the history of the Roman Republic marriage transferred a woman from the authority of her father to the authority of her husband or her husband's father or grandfather, if he were alive. The senior father was the pater families who had total control over all members of his family. In theory that control extended even to life and death, but in reality it was limited to economic matters. The pater families owned and controlled all of the family's wealth. Any money or property a woman possessed at the time of her marriage passed to the control of the patter families of her new husband's family. When trying to work out what the lives of Roman women were really like, you should be at least as critical of ancient sources as you are of modern media coverage of celebrities. Every type of evidence has to be sifted and looked at from different angles if

we hope to catch the essence of Roman women, and end up with some kind of understanding of their everyday lives".[18]

وكانت المرأة في أوساط الطبقات الراقية من المجتمع الروماني، موضع تقدير الرجل ورعايته وعطفه، فقد أشركها في شؤون الحياة العامة والخاصة. **ولا تعبر القصائد والأشعار التي كُتبت في ذكر مآثر نساء الطبقات الراقية في المجتمع عن حالة النساء في عصر الدولة الرومانية على وجه الخصوص**. فقد كانت المرأة بشكل عام، تنتقل من سلطة أبيها إلى سلطة زوجها. ولا يحق لها أن تمتلك أو تتصرف فيما تملك مهما كانت طبيعة ظروفها.

ولقيت المرأة العادية – في الغالب– أنواعاً من العنت، وألواناً من المهانة، وصوراً بشعة من القسوة، إذ كانت البيئة بدائية محاربة، ولا احتكام فيها إلاَّ إلى القوة والطغيان. فكانت المرأة في هذه الطبقات الضعيفة من المجتمع مضطهدة مكلومة لا تجد القانون الحامي، ولا العون الاجتماعي، فانتشرت ظاهرة ضرب الزوجات والعنف الأسري...

"A man may chastise his wife and beat her for her own correction; for she is of his household, and therefore the lord may chastise his own"[19]

وفي عهد جستنيان أعطيت المرأة حق التملك، إذا كان المال بسبب عملها أو عن طريق شخص آخر، أما الأموال التي يعطيها رب الأسرة فتظل ملكاً له، ولكن مع ذلك لم تكن تستطيع التصرف فيها دون موافقة رب الأسرة[20].

---

[18] - **Suzanne Dixon** Roman Women: Following the Clues.

[19]- Coul ton, G. G. Medieval Panorama. Cambridge:University .Press,1938.p.615,617,636. *Women at Work in Medieval Europe.* Madeleine Pelner Cosman. New York : Facts on File, 2000. *Women and Christianity.* Mary T. Malone. Ottawa : Novalis, 2000. *Holy Women of Byzantium: Ten Saints' Lives in Engish Translation.* Byzantine Saints' Lives in Translation, no.1. Edited by Alice-Mary Talbot. Washington, D.C.: Dumbarton Oaks, 1996. *Women's Lives in Medieval Europe : A Sourcebook.* Edited by Emilie Amt. New York : Routledge, 1993. *Medieval Women and the Sources of Medieval History.* Edited by Joel T. Rosenthal. Athens : University of Georgia Press, 1990. *Medieval Women: A Social History of Women in England 450 - 1500.* By Henrietta Leyser. New York: St. Martin's Press, 1995

[20]- Lefkowitz, M., and M. Fant. *Women's Life in Greece and Rome: A Source Book in Translation*. Baltimore, 1992. MacMullen, R. "Women in Public in the Roman Empire," Historia 29 (1980) 208-18. Pomeroy, S. B. *Goddesses, Whores, Wives, and Slaves: Women in Classical Antiquity*. New York, 1976.

كما شاعت العلاقات المحرمة بين الرجال والنساء المتزوجين، الأمر الذي أدى إلى انتشار الانحلال الخلقي.

It is known for sure that married men and women had affairs - even after the emperor Augustus made them illegal. But the Roman orgy is a modern invention (not even Juvenal thought of such a thing[21]

ووصلت الإمبراطورية إلى حالة بالغة من الضعف في القرن السابع الميلادي فشجع ذلك الإمبراطورية الفارسية في الشرق على الهجوم على ممالكها واحتلال الشام ومصر. وعاشت عاصمة الإمبراطورية الرومانية في حصار اقتصادي قاس، بعد أن سدت جميع الطرق عنها، وعمّ القحط، وتفشت الأمراض.

ولم يتغير حال المرأة كثيرا بعد تبني الإمبراطورية الرومانية للديانة المسيحية. وتعبرّ المؤلفة كارن آرمسترونج في كتابها أنجيل المرأة عن موقف الكنيسة من المرأة بقولها:

" لم تحمل المسيحية أخبارا سارة للنساء على الإطلاق...إن الشعور بالتأثم من الجنس، والكبت الجنسي قد وضعا النساء في موضع لا يطاق، لقد **نظرت جميع الثقافات إلى النساء على أنهن مخلوقات أدنى منزلة: فهن من ممتلكات الرجال، وليست لهن حقوق استقلالية، واعتبرن أضعف من الرجال ذهنيا وروحيا**...لقد انتشرت أن البتولية هي التي تدخلنا في ملكوت السماوات"[22].

واستمرت النظرة للمرأة على أنها مصدر الغواية والشر وأداة إبليس في نشر الفساد والانحراف. وورث الرومان تقاليد وآراء آباء الكنيسة الأوائل تجاه المرأة.

ومن هؤلاء القديس أريناوس Irenaeus الذي عاش في النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني[23]. وصرّح بنظرته تلك في كتابه Against Heresies على اعتبار أن المرأة الأولى حواء هي التي جلبت الموت والشر لنفسها وللعنصر الإنساني كافة من خلال عصيانها وتمردها.

---

[21] -. Mary Lefkowitz and Maure, *Women's Life in Greece and Rome* , (Johns Hopkins, 1992)

[22] -Karen Armstrong, The Gospel according to woman, Oxford, 1986.

[23] - Encarta Cd, Irenaeus.

" Having become disobedient, she Eve was made the cause of death, both to herself and to the entire human race".[24]

ومنهم القديس ترتوليان[25] 150-220م الذي اضطلع بدور بارز في الفكر اللاهوتي المسيحي. فقد ذهب ترتوليان إلى أن المرأة -حواء وبناتها من بعدها- بوابة الشيطان فهي أول من خالف الوحي وخرج عليه وهي التي قامت بإقناع آدم الذي ما كان للشيطان أن يهاجمه أو يقنعه يدونها، فحطمت بسهولة صورة الرب المتمثلة في الإنسان. وبسبب مخالفتها وعصيانها كان الموت حتى لأبن الرب.

"You Eve are the devil's gateway ….you are the first deserter of the divine law. You are she who persuaded him whom the devil was not valiant enough to attack. You destroyed so easily God's image, man. On account of your desert that is death, even the Son of God had to die"[26].

لقد رأى رجال الكنيسة في المرأة ذاتا مورّثة للخطيئة والغواية بطبيعتها فهي مصدر لكل شر ولكل خطيئة ولكل غواية أصلا. وتسود هذه النظرة مختلف الكتابات والأدبيات في تلك العصور حتى تلقي باللائمة على المرأة تجاه مختلف الكوارث والفواجع التي تصيب العالم حتى الطوفان فالمرأة ورائه[27].

من هنا سادت النظر إلى العلاقة الزوجية بأنها شرّ لابد منه، وأن البتولية هي أفضل حالة. وقد صرّح القديس بولس في تشريعاته بذلك في رسالته الأولى إلى كورنثوس تحت عنوان الزواج والبتولية:

" وأمَّا مِنْ جِهَةِ ما كَتَبتُم بِهِ إليَ، فخَيرٌ لِلرَّجُلِ أنْ لا يَمَسَ اَمرَأةً. ولكِنْ، خَوفًا مِنَ الزِّنى، فلْيكُنْ لِكُلِّ رَجُلٍ اَمرأتُهُ ولِكُلِّ اَمرأةٍ زَوجُها، وعلى الزَّوجِ أنْ يوفيَ اَمرأتَهُ حَقَّها، كما على المرأة أنْ توفيَ زَوجَها حَقَّهُ. لا سُلطَةَ لامرأة على جَسِدَها، فهوَ لِزَوجِها. وكذلِكَ الزَّوجُ لا سُلطَةَ لَه على جَسَدِهِ، فهوَ لاَمرأتِهِ. لا يَمتَنِعْ أحدُكُما عَنِ الآخَرِ إلاّ على اَتفاقٍ بَينَكما وإلى حينٍ، حتى تتَفَرَّغا لِلصَّلاةِ. ثُمَ عودا إلى الحياةِ الزَّوجِيَّةِ العادِيَّةِ لِئَلاّ يُعوزَكُم ضَبطُ النَّفسِ، فتَقَعوا في تَجرِبَةِ إبليسَ.

---

[24] - Schmidt, Ibid, p.41.

[25] أسم ترتوليان عدو المرأة لكتاباته المعادية للمرأة في التراث المسيحي. راجع ذلك في: Leopold Zscharnack- أطلق عليه العالم الألماني المعاصر المعروف Schmidt, Ibid, p. 41.

[26] - Schimdt, p. 41.

[27]- هذه الآراء للقديس أوغسطين.

أقولُ لكُم هذا لا على سَبيلِ الأمْرِ، بَلْ على سَبيلِ السَّماحِ، فأنا أتَمَنى لَو كانَ جميعُ الناسِ مِثْلي. ولكِنْ لِكُلِّ إنسانٍ هِبَةٍ خَصَّهُ الله بِها، فبَعضُهُم هذِهِ وبَعضُهُم تِلكَ. وأقولُ لِغَيرِ المتَزوِّجينَ والأرامِلِ إنَّهُ خَيرٌ لهُم أنْ يَبْقَوا مِثْلي. أمَّا إذا كانوا غَيرَ قادِرينَ على ضَبطِ النَّفسِ، فَلَيَتزوَّجوا. فالزَّواجُ أفضَلُ مِنَ التَّحَرُّقِ بالشَّهوَةِ"[28]. كما روي عن بولس قوله:" من يزوج ابنته يأت عملا طيبا ومن لا يزوجها يأت ما هو خير وإنه من الخير للرجل أن يظل أعزب إلا إن خاف الوقوع في الخطيئة".

كما لاقت صيحة بولس الصارمة تجاه الزواج آذانا صاغية عند الكثير من رجالات الكنيسة لدرجة أن مجمع ميدولينس حكم في نهاية القرن الربع الميلادي على الراهب جوفينيان بالطرد من الكنيسة لمعارضته مبدأ بولس القاضي بأن العزوبية والتبتل أفضل من الزواج.[29]
وأصدر مجمع ألفيزا في أسبانيا قرارا بتحريم الزواج على كبار لاهوتي الكنيسة

والمتأمل في الحقبة التاريخية التي تولدت فيها هذه النزعة التبتلية يلحظ سحب التبذل والانحلال الأخلاقي التي كانت تمر بها البيئة الرومانية الوثنية، فلعل تلك البيئة أفرزت نوعا من هذه الظاهرة بشكل أو بآخر. فالبيئة المنحلة المتعفنة يمكن أن تولد نوعا من الترهبن والتبتل كردة فعل للانحدار الملحوظ.

وكان الانحلال الخلقي قد نخر في جسد الإمبراطورية حتى اعتبره الكثير من المؤرخين من أهم أسباب سقوطها وهو ما يعبر عنه بنظرية التسوس الأخلاقي.

كما وُضعت المرأة تحت سلطة الرجل الكاملة من الناحية الاقتصادية، وكان كل ما عندها ملك لزوجها، ولم يكن الطلاق والخلع مباحين بحال من الأحوال مهما بلغ البغض والتنافر بين الزوجين، ومهما بلغ الشقاق بينهما، بل كان الدين والقانون يحتّمان عليهما دوام العشرة وبقاء حبل الزوجية متصلاً بينهما. وكان من أقبح العار أن يتزوج الرجل أو المرأة ثانية إذا توفي

---

[28]- الرسالة الأولى كورنثوس: 1/7-9.

[29] – علي عبد الواحد، **موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة**، (مجلة الأزهر، محرم 1379هـ/يوليو1959م)، ص 33. وقد نقل العبارة عن Westermarck, الذي تحدث عن هذا **المحمعMediolanense**

عن أحدهما زوجه، بل هو عند رجال الدين المسيحي من كبائر الإثم، وكانوا يعبرّون عن الزواج الثاني بكلمة (الزنى المهذب)[30].

ولم تتغير هذه النظرة حتى بعد هبوب رياح الحركة الإصلاحية وما حملته معها من تغيرات جذرية في الفكر اللاهوتي المسيحي إلا أن تلك التغيرات، لم تطل فلسفة الزواج والأسرة فيها وطبيعة النظرة السائدة عن المرأة وتوارث بنات حواء للخطيئة والشرّ.

ويصرّح بذلك زعيم الحركة الإصلاحية مارتن لوثر بأنه من الصعوبة بمكان التحدث عن المرأة بدون الشعور بالخجل لما فعلته يعني بذلك الخطيئة في إغواء آدم!.

" We can hardly speak of her without shame"[31].

[30] - For all the sayings of the prominent Saints, see Karen Armstrong, The Gospel According to Woman (London: Elm Tree Books, 1986) pp. 52-62. See also Nancy van Vuuren, The Subversion of Women as Practiced by Churches, Witch-Hunters, and Other Sexists (Philadelphia: Westminister Press) pp. 28-30

[31] - Martin Luther, Lectures on Genesis, Vol 1 *of luther's Works*, trans; George Schick, ed; Jaroslav Pelikan, St. Louis: Concordia Publishing House, 1958, pp 118-119.

المبحث الثاني

المرأة في الإمبراطورية الساسانية

كانت المرأة في المجتمع محتقرة منبوذة قبل عهد زرادشت. حتى أنها تعد عندهم نجسة في فترات الحيض والنفاس. فلا يجوز لها مخالطة الناس، بل كانت النساء يعزلن في خيام صغيرة تضرب لهن في ضواحي المدنية. وكان للزوج حق السلطة المطلقة على زوجته إلى حدٍّ أنه يستطيع أن يقتلها، وأيضاً تعدد الزوجات عندهم شائع بدون شرطٍ أو تحديد عدد[32].

بَيد أن المرأة إذا كانت من الطبقة الملكية، فإنها تمارس الكثير من الحريات والحقوق. وقد عرفت الإمبراطورية بعض الملكات اللواتي تربعن على عرشها في فترات مختلفة[33].

كما شاع لديهم الزواج بالمحارم، ويوجد في تاريخ العهد الساساني أمثلة لهذا الزواج، فقد تزوج (بهرام جوبين) وتزوج (جستسب) قبل أن يتنصر بالمحرمات، ولم يكونوا يعتبرونه معصية بل عملاً صالحاً يتقربون به إلى الله[34].

إلا أن زرادشت أدخل تغييراً هاماً على موقف المجتمع الفارسي من المرأة. فتمتعت ببعض الحقوق كاختيار الزوج، ومعارضة الأب في تزويجها بمن لا ترضاه، وحق طلب الطلاق، وملك العقار، وإدارة الشؤون المالية للزوج بتوكيل منه. لكن هذه الأوضاع لم تستمر طويلاً، إذ ما إن انتهى عهد زرادشت حتى عادت المرأة إلى ما كانت عليه من انحطاط المنزلة. وكانت التقاليد

---

[32] - Arthur Cotterell, *From Aristotle to Zoroaster*, 1998. Dodgeon M. H., and Lieu S. N. C., *The Roman Eastern Frontiers and the Persian Wars (AD 226-363); A Documentry History, London (1991), pp. 24, 67, 184, 197 and 307.* Sandra Mackey. *The Iranians: Persia, Islam and the Soul of a Nation.* Penguin Group, 1996.

[33] -**First Iranian queen regnant who ruled Iran over Sassanid empire**.Persian Journal, Iran.Sept 2 2005. http://www.iranian.ws/iran_news/publish/article_

[34]- Lawless and Cameron (1994) *Studies in Ancient Persia*, Thomas Nelson, South Melbourne.
Olmstead, A.T., (1948) *History of the Persian Empire*, University of Chicago Press, Chicago. Burn, ARR. (1984) *Persia and the Greeks*, Duckworth, London.
Dandemaev, M.A. and Lukonin, V.G. (1989) *The Culture and Social Institutions of Ancient Iran*, Cambridge University Press, Cambridge.

الفارسية تستوجب إهانة المرأة وتعتقد أنها أداة الشيطان التي يسيطر بها على الناس ويعتقدون أنها منبع الشرور.

المبحث الثالث

المرأة العربية في العصر الجاهلي

تباينت وجهات النظر والآراء حول موقع المرأة في العصر الجاهلي، وما زال هذا العصر يكتنفه بعض الغموض والاضطراب والنقص في المصادر والمراجع. إلا أن المتتبع للروايات التاريخية يلحظ نوعا من التقارب يكاد يصل حدّ الإجماع على معاناة المرأة وامتهانها في كثير من الحالات والظروف لدى العديد من القبائل آنذاك.

وقد تضافرت الدراسات والكتابات على العديد من تلك الممارسات التي توارثها المجتمع، والتي تشير بوضوح إلى حجم الذل والهوان الذي مرت به المرأة آنذاك، كالوأد infanticide والمعاملة القاسية والحرمان من الإرث، وتوارث الأبناء لزوجات آبائهم بعد وفاتهم، وتعدد الزوجات دون قيود وإيقاع الطلاق والظهار دونما ضوابط أو قيود على غالب طبقات المجتمع النسوية.

ولم تكن تلك الممارسات بالأمر الداعي إلى الاستغراب أو الاستنكار آنذاك، فقد تعارفت قبائل كثيرة عليها، ووقفت عندها موقف الاحترام والاعتراف بشرعيتها على الرغم من كل ما تحمله من صور الظلم والامتهان. ووجد العرب آنذاك من المبررات ما يكفي لتمرير تلك الأعراف والممارسات، فالبيئة القاسية والحياة المريرة ساهمت في سلطوية صفة البداوة على المجتمع أفرادا وجماعات. كما فرضت البيئة الصحراوية صورا اجتماعية وسياسية وممارسات حياتية خاصة لم يتمكن العرب في غالب الأحيان من تجاوزها.

فقد عاش العرب حياة تتسم بعدم الاستقرار، ومواصلة الترحال والتنقل لتأمين وسائل العيش المحدودة آنذاك. وفتحت تلك البيئة القاسية السبيل أمام سلسلة من الممارسات الدفاعية عن تلك الموارد المحدودة التي يمتلكها العربي.

ويؤكد عدد من المؤرخين على أنه قد توالدت مع تلك الممارسات مفاهيم ونظرات معينة، أصبحت بمرور الزمن تقاليد سائدة لا ينبغي التخلي عنها.

ومن تلك المفاهيم، احترام القبيلة والولاء المطلق لها ومحاولة تأمين كل الوسائل المتاحة للحفاظ عليها، كالاستكثار من عناصر المنعة والقوة المتمثلة في البنين[35]، وتعدد الزوجات كوسيلة للحفاظ على الكيان القبلي والأسري.

ومما زاد في تعميق تلك الصورة عن المرأة، الحروب الطاحنة التي كان يخوضها العرب في فترات متلاحقة التي كان يذهب ضحيتها العديد من الرجال ويتعرض فيها النساء لذل السبي والأسر، والذي قد ينتهي في الغالب بالرق والعبودية البغيضة.

يقول المستشرق الفرنسي رودنيسون[36] واصفا حال الطبقات المستضعفة في مكة آنذاك بقوله:

" The poor, the young and the honest were suffering from upstart arrogance".[37]

وساعدت حياة التكرار وقلة التبدل في البيئة الصحراوية على استمرار تلك العادات وثبوتها إلى حدّ كبير، ومن ثم الحفاظ الاجتماعي عليها وتوارثها جيلا بعد جيل، فللعادات قوتها وسيطرتها في الشعوب المحافظة.

وقد كان بعض تلك الغارات تهدف إلى سبي النساء دون الحصول على أي شيء آخر ولم تخلُ تلك الحياة القاسية من بعض سمات القسوة والغلظة في معاملة المرأة والعناصر الأخرى المستضعفة في المجتمع[38].

وعلى هذا يمكننا القول بأن المجتمع الجاهلي كان مجتمعا أبويا قائما على سلطة الرجل وسيطرته، و تزامن ذلك كله مع اتساع رقعة الحروب المتواصلة وفترات الجدب والقحط التي غلبت على حياة العرب آنذاك[39].

---

[35] - Robert G. Hoyland, Arabia and the Arabs from the bronze age to the coming of Islam, Routledge, London, 2003,p 115.

[36]- المستشرق المؤرخ المعروف ماكسيم رودينسون، ولد عام 1914 وتوفي 2004م. نشر أول كتاب له عن النبي عليه الصلاة والسالم عام 1960م وتناول حياته وإنجازاته في سياق اجتماعي. راجع ترجمته في الموسوعة الحرة ويكبيديا. Maxime Rodinson.

[37] - Maxime Rodinson, Muhammad, trans: Anne Carter, Pantheon Books. New york, 1980.pp. 36

[38] – وصف ابن خلدون في مقدمته بدو الشمال بالغلظة والشدة. أنظر ذلك في ابن خلدون، مرجع سابق، 129. كما ذكر أن تلك العصبية القبلية كانت نتيجة للحياة التي عاشوها وعانوا فيها من نكد العيش وشظف الحال والتنقل فخلقت بينهم إلفا وتعصبا. المقدمة، ص 128. وأنظر في سمات الشخصية البدوية: لويس كامل مليكة ومحي الدين صابر، *البدو والبداوة*، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1986م، 127 وما بعدها.

[39] – القول بتأثير البيئة في حياة الناس قول قديم قال به اليونانيون، وقد أرجع الكاتب الأستاذ أحمد أمين غالب عادات العرب وأخلاقهم إلى البيئة التي عاشوا فيها، إلا أن حصر أسباب وعوامل تكون العادات ونشأتها في عامل البيئة بمفرده لا يخلو من تجاوز. حيث أنه هناك عدة عوامل أخرى إلى جانب البيئة تؤثر في تكون أعراف الناس ومواريثهم من العادات والتقاليد. أنظر في ذلك: أحمد امين، *فجر الإسلام*، مكتبة النهضة المصرية، مصر، الطبعة الرابعة، *1989م*، *ص* 46. محمد ضيف الله بطاينة، *الحياة*

وساعدت حياة التكرار وقلة التبدل في البيئة الصحراوية على استمرار تلك العادات وثبوتها إلى حد كبير، ومن ثم الحفاظ الاجتماعي عليها وتوارثها جيلا بعد جيل، فللعادات قوتها وسيطرتها في الشعوب المحافظة[40].

ولم تكن نظرة المجتمع الجاهلي تجاه المرأة، مبنية على أساس تلك الظروف القاسية والبيئة التي عاشها العرب فحسب، بل هي **نظرة تأثرت بما توارثته من مجتمعات سابقة لها**، فالعرب ارتبطوا مع غيرهم من الشعوب السامية بروابط اللغة والأصل والموطن القديم.[41]

وسكان جزيرة العرب لم يكونوا كلهم عربا، بل اختلط بهم النازحون وغيرهم من الفاتحين والأرقاء والموالي والحلفاء من أمم وأديان شتى، فيهم الفارسي والهندي والروماني والكلداني..

ولم يكن العرب مجردين من أي ثقافة، فقد استقرت في الهلال الخصيب وغيره قبائل عديدة تأثرت بالحضارات السابقة كما تأثرت بالثقافة السامية السائدة فكان لعرب اليمن مثلا دور بارز في تكوين حضارة عربية[42].

وجاور العرب في الجزيرة العديد من أصحاب الديانات الأخرى كاليهودية والنصرانية. واخترقتْ اليهودية شبه الجزيرة، وأصبحت يثرب مستقرا للعديد من القبائل اليهودية المهاجرة من بلاد الشام الواقعة تحت سيطرة الدولة الرومانية منذ القرن الأول والثاني الميلادي. وازدادت هجرات اليهود إلى الجزيرة العربية بعد فشل الثورة التي قام بها اليهود ضد الحكم الروماني في عام 70 م. وتلتها هجرات مماثلة في الفترة ما بين 132-135م.

وامتد تأثير اليهود في المجتمع العربي في يثرب- قبل الإسلام- ليشمل النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية في آن واحد. وترك اليهود بصماتهم الواضحة على المجتمع المدني في مختلف

الاجتماعية في صدر الإسلام، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، 1409هـ/1988م، 205. وأنظر كذلك: عبد العزيز الثعالبي، *مقالات في التاريخ القديم*، تعليق وجمع: جلول الجريبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص 73.

[40] – الدوري، مرجع سابق، 30.

[41] – زاهية قدورة، *الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول*، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972، 28. وقد كان الجزء الأكبر من سكان الولايات البيزنطية في الشام وفلسطين من أصل سامي.

[42] – أنظر في ذلك: عبد العزيز الثعالبي، مرجع سابق، ص 67-106.

المناحي الاقتصادية والسياسية والثقافية[43]..وكانت لهم قرى كثيرة، منها خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء وغيرها[44].

وقد كان اليهود الذين سكنوا بلاد العرب مطبوعين بالطابع البدوي خاصة بعد خلطتهم بالعرب، وبلغ من تأثر اليهود القاطنين في الجزيرة العربية[45]، أنهم لم يتحدثوا العبرانية في الغالب، بل كانوا يتكلمون لهجة من اللهجات العربية. وظهرت طوابع الحياة القبلية عليهم بما فيها من عصبية للقبيلة واهتمام بالشعر وغيره، حتى ظهر فيهم شعراء كالسموأل وكعب بن الأشرف والربيع بن أبي الحقيق وشريح بن عمران وغيرهم.[46]

وقد أخذ العرب بحكم الجوار، العديد من العادات عنهم وبعض الشعائر والآراء. ومنها عادة التعامل بالسحر والتعاويذ وغيرها مما اشتهر عن اليهود معرفتهم بها، فكان العرب يلجئون إليهم لهذا الغرض[47]. خاصة وأن العديد من القبائل العربية رأت تفوق اليهود عليها في العلم والمعرفة، فاليهود أهل كتاب ورسالات سماوية سابقة، وعلى هذا كان اليهود يستنصرون عليهم بالنبي المنتظر الذي ورد وصفه في كتبهم[48].

وعملية تأثر الشعوب المتجاورة بعضها ببعض، أمر لا ينكره العقل خاصة وأن التنقيبات الأثرية أشارت إلى أن عرب الجاهلية لم يكونوا بمعزل عن غيرهم مطلقا[49]. حتى إن بعض عرب الحجاز

---

[43]- Akram Diyâ alUmare, *Madianan Society at the Time of the Prophet*, The International Institute of Islamic Thought, Virginia, 1991, Vol 1, p. 44. See also: Francesco Gabrieli, *The Arabs A Compact History*, Trans: Savator Attanasio, Greenwood Press, USA, 1957, p. 16.

[44] - إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد، مصر، 1927م، ص 14.

[45] – عرف العراق اليهودية منذ التوسع البابلي وحروب الآشوريين في الشام وبخاصة منذ غزو نبوخذ نصر الذي جعل العراق المهد الثاني لليهودية بسبب الأسر البابلي. أما اليمن فقد عرفت اليهودية منذ القرن الرابع الميلادي وأصبحت ديانة البلاد الرسمية. أما في الحجاز فترجع بعض الروايات دخول اليهود إليه منذ أيام موسى وداود وغزوهم للعماليق. وكانت أهم مراكز اليهود في جزيرة العرب يثرب، وكان عملهم الأساسي التجارة والربا والصناعات، فكان دورهم أوضح من دور النصارى. أنظر: سعد زغلول عبد الحميد، *في تاريخ العرب قبل الإسلام*، دار النهضة العربية، بيروت، 1975م، 359 وما بعدها.

[46] – أكرم ضياء العمري، *المجتمع المدني في عهد النبوة*، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1403هـ/1983م، 57 وما بعدها.

[47] – بل وصل الحد أن ظهر بين اليهود العديد من الشعراء ممن نظموا الشعر بالعربية ومنهم السمؤال وكعب الأشرف وسماك اليهودي وغيرهم. أنظر في تأثير اليهود في مجتمع الجزيرة العربية وتأثرهم فيه: جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، دار العلم للملايين، بيروت، 1976م، ج6، 560 وما بعدها. وأنظر كذلك: كارل بروكلمان، *تاريخ الادب العربي*، دار المعارف، بيروت، ط2، ج1، 121.

[48] - Karen Armstrong, Muhammad..prophet for our time.

[49] - جواد علي، مرجع سابق، ج6، 568.

تهود بالفعل فكان حول مكة قبائل عربية متهودة هي بطون من كنانة وبني الحارث بن كعب وبني كندة كما تهود بعض الأوس والخزرج لما جاوروا اليهود في يثرب[50].

من هنا انتشرت بين العرب بعض تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير سمعها العرب في الجاهلية وسمعها المسلمون في الإسلام[51].

والمتتبع للتراث اليهودي إزاء المرأة، يرى أنه يوّجه أصابع الاتهام للمرأة– حواء– التي قامت بإغواء آدم بتناول ما حرّمه الله عليهما[52]. يتضح ذلك مما ورد في سفر التكوين عندما قامت حواء بالإقدام على الأكل من الشجرة بناءا على قبولها ذلك من الحية. جاء في سفر التكوين:

" وكانَتِ الحَيَّةُ أحيلَ جميعِ حيواناتِ البرِّيَّةِ التي خلَقَها الرّبُّ الإلهُ. فقالت لِلمَرأةِ: «أحقُا قالَ اللهُ: لا تأكُلاَ مِنْ جميعِ شجرِ الجنَّةِ؟» فقالتِ المرأة لِلحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شجرِ الجنَّةِ نأكُلُ، وأمَّا ثَمَرُ الشَّجرَةِ التي في وسَطِ الجنَّةِ فقالَ اللهُ: لا تأكُلا مِنهُ ولا تَمَسَّاهُ لئلاّ تَموتا». فقالتِ الحَيَّةُ لِلمَرأةِ: «لن تموتا، ولَكِنَّ اللهَ يعرِفُ أنكُما يومَ تأكُلانِ مِنْ ثَمَرِ تِلكَ الشَّجرَةِ تنفَتِحُ أعينُكُما وتَصيرانِ مِثلَ اللهِ تعرفانِ الخيرَ والشَّرَّ». ورأتِ المرأة أنَّ الشَّجرةَ طيِّبةٌ لِلمَأكلِ وشَهيّةٌ لِلعَينِ، وأنَّها باعِثَةٌ لِلفَهْمِ، فأخذَت مِنْ ثَمَرِها وأكَلَت وأعطَت زوجها أيضًا، وكانَ مَعَها فأكَل"[53].

وعلى هذا فقد رأى الرب عقاب المرأة بناءا على تلك الخطيئة كما جاء في سفر التكوين:

"...فقالَ الرّبُّ الإلهُ لِلمرأةِ: «لِماذا فَعَلتِ هذا؟» فأجابَتِ المرأة: الحَيَّةُ أغوتْني ...فقال الرب للمرأة: أزيد تعبك حين تحبلين وبالأوجاع تلدين البنين إلى زوجك يكون اشتياقك وهو عليك

---

[50] - البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1945م، ج1، ص 29.

[51] - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج13، ص 431.

[52] - Menachem M. Brayer, The Jewish Woman in Rabbinic Literature: A Psychosocial Perspective (Hoboken, N.J: Ktav Publishing House, 1986) p. 239. Susan W. Schneider, Jewish and Female (New York: Simon & Schuster, 1984) p. 237. Clara M. Henning, "Cannon Law and the Battle of the Sexes" in Rosemary R. Ruether, ed., Religion and Sexism: Images of Woman in the Jewish and Christian Traditions (New York: Simon and Schuster, 1974) p. 272.

[53]- التكوين: 3: 2-7.

يسود"[54]. فبنات حواء ورثن تلك الخطيئة، وتتواصل الأقوال في العهد القديم مؤكدة غواية المرأة وخطيئتها وقدرتها على إيقاع الرجل في الغواية[55].

ولم تكن اليهودية هي الديانة الوحيدة التي ظهرت في بلاد العرب، بل ظهرت معها النصرانية، خاصة في بلاد الشام ودخل سادات القبائل والحكام العرب في تلك المناطق فيها، من الغساسنة وغيرهم[56]. ولم يقتصر ظهور النصرانية على بلاد الشام فحسب، بل كان في مكة كذلك[57]. وازداد نشاط الدعوة إلى المسيحية في بلاد العرب في أيام الاضطهاد الروماني قبل اعتناق الإمبراطورية الرومانية للمسيحية رسميا. فقد اضطر العديد من الرهبان والكهنة للهرب والاستقرار في الجزيرة العربية.

ولم يكن هؤلاء في تجمعات منعزلة عن المجتمع العربي بل حاولوا التردد على الأسواق والتجمعات للتبشير بالمسيحية والتذكير بالبعث والحساب[58].

وهكذا تضافرت تلك العوامل لتحمل موروثا ثقافيا تجاه المرأة في العقلية العربية بين سكان القبائل والعشائر في غالبيتها. وقد عُرف عن العرب، تقديسهم للسلف والأعراف والتقاليد المتوارثة عن الأجداد.

فقد وقف هذا التقديس حائلا بينهم وبين قبول الدعوة الإسلامية وهي في مهدها. وكانوا يرون في التمسك بتلك التقاليد عاملا أساسيا في استمرارية وجودهم وكيانهم المتميز عن غيرهم. ونشأ الصراع بين الأعراف المقدسة لدى المشركين، وبين أتباع الدعوة الجديدة من جهة أخرى والذين رأوا في القديم والانكباب عليه، تقليدا أعمى لابد من نبذه وتغييره[59].

---

[54] - سفر التكوين: 3: 6-17.

[55] - See; Leonard J. Swidler, Women in Judaism: the Status of Women in Formative Judaism (Metuchen, N.J: Scarecrow Press, 1976) p. 115. Louis M. Epstein, The Jewish Marriage Contract (New York: Arno Press, 1973) p. 149

[56] - لم يأخذ هؤلاء العرب نصرانية الروم بل أخذوا نصرانية شرقية مخالفة لكنيسة القسطنطينية وهي نصرانية عدها الروم هرطقة وخروجا على النصرانية الأرثوذكسية الصحيحة. ومن أوضح ما تميزت به تلك النصرانية عكوفها على دراسة العهد القديم أكثر من الأناجيل. وهذا ما يعرف بالنصرانية اليعقوبية القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح .

[57] - قطن العديد من النصارى في مكة قبل ظهور الإسلام وكان أغلبهم من الغرباء النازحين إليها إما عن طريق الرق أو العمل والتجارة ونحوها. ولعل هذا كان أحد الأسباب التي دعت المشركون إلى اتهام النبي صلى الله عليه وسلم بأخذه عن النصارى.

[58] - أنظر في ذلك: ياقوت الحموي، مرجع سابق، ج5، 266. وأحمد أمين، مرجع سابق، 27.

[59] - للمزيد حول هذه النقطة راجع: الدوري، مرجع سابق، 40.

إلا أن ثمة نسوة – في العصر الجاهلي– كن ينتمين إلى طبقات راقية، تبوأن مكانة سامقة، وتمتع البعض منهن ببعض الحقوق المدنية كحرية اختيار زوجها وإن كان البعض منهنّ قد أكره على الزواج من شخص لا تريده[60].

وسجلت لنا المصادر نساءً كثيرات تميزن برجاحة العقل وحسن الرأي، بل إن بعض القبائل تسمت بأسماء الامهات في ذلك الزمان مثل قبيلة مزينة وبجيلة وباهلة[61].

ومن النساء من كن يمارسن مِهَناً أو حِرَفاً أو صناعات تدرُّ عليهن مكاسب مالية. ومن النساء من كن يمارسن الكهانة أو العرافة أو السحر[62]. كذلك من النّساء من مارسن التّطبيب، وتزيين النساء، والتوليد، وختان البنات، وإرضاع الأطفال. وكانت المرأة تحصل مقابل خدماتها في هذه المجالات على أجرٍ، شكّل مصدراً من مصادر ثروتها[63].

أما الزواج فقد كان مفتوحاً على مصراعيه بلا عدد محدود، والطلاق كذلك مفتوحاً على مصراعيه فله الحق أن يطلق ويراجع ما تشاء .. وفي أي وقت شاء. وإذا مات الزوج تبقى المرأة في بيتها سنة كاملة ..لا تقرب طيباً ولا تلبس ثوباً حسناً، ولا تمشط شعرها، ولا تقلم أظفارها[64].

كانت المرأة في العصر الجاهلي على وجه العموم ذات معاناة كبيرة في كثير من النواحي، إلا في حالات نادرة إذا كانت المرأة فيها ذات مكانة اجتماعية أو اقتصادية ولكن ذلك كان

---

60 – الإصابة في تمييز الصحابة، ج7، ص 613.

61– محمد خريسات، المرأة والمشاركة السياسية في ظل الدولة الإسلامية.. دراسة تطبيقية منذ العصر الجاهلي حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، 1997م. حميد لحمداني، الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم (العصر الجاهلي)، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، الطبعة الأولى،1997 ص:82.

62 – عبدالله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ص94 وما بعدها.

63 – الحوافي، مرجع سابق، ص 399.

64 – رواه البخاري (5337) ومسلم (1489) .

مشروطا بعشيرتها ووضعها الاقتصادي، وصفاتها الشخصية من مثيلات السيدة خديجة التي كانت تاجرة محترمة في قريش[65].

كما حُرمت المرأة في الجاهلية من الميراث، فقد كان نظام الميراث عند العرب قبل الإسلام مرتبطا بعوامل متعددة، من أبرزها طبيعة الحياة التي اتسمت بالتنقل والترحال وكثرة الحروب الطاحنة والاعتداءات بين القبائل، مع غياب السلطة المركزية التي يمكن أن تقوم بهذه المهام في سبيل إشاعة الأمن والاستقرار.

وعلى هذا فقد حرم العرب في الجاهلية، الأطفال والنساء من الميراث وذلك لعدم قدرتهم على تحمل مسئولية الذب والدفاع عن القبيلة[66].

فالميراث عندهم نظام مرتبط بالحماية والدفاع عن الأسرة الكبيرة– القبيلة– أكثر من تعلقه بأي أمر أخر كالقرابة والنسب ونحوها من علاقات اجتماعية. فقد كانت القبيلة تقوم بكافة الوظائف الدينية والسياسية والقضائية ونحوها[67].

إلا أن الحالة العامة السائدة آنذاك كانت حرمان الأنثى من الميراث مطلقا وهذا ما شاع بين مختلف القبائل العربية. وقد كان أمرا مبررا لديهم، فالمرأة بحاجة إلى حماية وصيانة خاصة في ذلك المجتمع المشحون بالاعتداءات والحروب والغارات والرجل هو القادر على القيام بذلك الدور.

وتشير إلى ذلك كارن آرمسترونج في كتابها إنجيل المرأة فتقول:" نجد أن النساء في فجر الإسلام كن يتمتعن بقدر كبير من الحرية ولقد مارس الإسلام **نظام الحريم** بعد اتصاله بالمسيحية البيزنطية التي كانت تعامل نساءها بهذا النظام .."[68]

---

[65] - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، مرجع سابق، ج5، 2197. وأنظر كذلك قوله:" والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم". ج4، 1866. ورواه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (261)، *صحيح مسلم*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، ج2، 1108.

[66] – القبيلة هي وحدة اجتماعية تجمع عدة عشائر قد لا تكون ذات علاقة نسب واحدة. والقبيلة تشكل وحدة اجتماعية وسياسية واقتصادية متكاملة وتكاد تكون مجتمعا مغلقا على نفسه. محمد علي قطان، **دراسة المجتمع في البادية والريف والحضر**، دار الجيل، القاهرة، 1979م، 73.

[67] – إلا أنه قد روي أن أول من ورّث البنات في الجاهلية وأعطى للبنت كما أعطى للأبن، رجل اسمه ذو المجاسد اليشكري عامر بن جشم بن حبيب. أنظر في ذلك: أحمد محمود الشافعي، **الميراث في الشريعة الإسلامية**، مؤسسة الثقافة الجامعية، مصر، 1983م، ص19.

ولا ترى الدراسة ضرورة الاسترسال أو تعميم سوء حالة المرأة العربية وانتشار الوأد بين بنات القبائل في الجزيرة العربية بشكل كبير. فالشواهد المنطقية العلمية لم تذكر نقصا حادا في نسبة الإناث مقارنة بالذكور في تلك المجتمعات. الأمر الذي يبين أن تلك الممارسات لم تكن أمرا شائعا بين جميع القبائل العربية.

جاء في الموسوعة الحرة:

"In pre-Islamic Arabia the roles of the genders was never explicitly defined, and varied widely among the numerous tribes. For example, in the prosperous southern region of the Arabian Peninsula the religious edicts of Christianity, Judaism and Zoroastrianism held sway among the Sabians and Himyarites, whereas in cities such as Makkah, the city where the prophet of Islam, Muhammad, was born, a tribal set of rights was in place, in particular amongst the Bedouin, which varied from tribe to tribe. Thus there was no single definition of the roles played, and rights held, by women prior to the advent of Islam .There were instances where women held high positions of power and authority; there were also patterns of homicidal abuse of women, including instances of men killing female infants considered to be a liability"69.

---

[68] - K. Armstrong, *The Gospel According to Woman*, Em Tree Books, London, 1986, pp.2-3.
وفي أثر تقاليد البلاد المفتوحة على حياة المجتمع المسلم، أنظر: دومنيك وجانين سورديل، *الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي*، دار الحقيقة، بيروت، 1980م، ج1، 101 وما بعدها. ويتبارد إلى أذهان الغربيين التسوية بين نظام الحريم والتسري الذي كان شائعا ممارسا في البيئة المسيحية تحت تأثيرات بيزنطية. وأنظر أحمد أمين، ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط3، ج1، 81-89.

[69] - http://en.wikipedia.org/wiki/Gender_roles_in_Islam

المبحث الرابع

أوضاع المرأة في عهد النبي الكريم

اتسم عصر النبوة وبدء الدعوة في مكة، بمولد تعاليم المنظومة العقدية والتشريعية، وبروز قيم جديدة في المجتمع. ومن ذلك رفع صور الظلم والامتهان عن الضعفاء من الرجال والنساء والولدان، وتقرير حق المساواة في الإنسانية بين فئات المجتمع كافة، وإلغاء التفرقة الطبقية بكل صورها ومستلزماتها.

وعلى هذا ثار كفار قريش على تلك المبادئ والأسس التي رأوا فيها انقلابا لنظامهم الاجتماعي والسياسي والقبلي المتوارث بالكلية. فعلى الرغم من صور الظلم والتجاوز التي اتسمت به تلك النظم البدائية عندهم، إلا أنها كانت محترمة إلى حدّ التقديس والثبات عندها، لانبثاقها من أعراف الآباء والأجداد.

بَيدَ أن الدعوة الإسلامية نجحت في اجتثاث قوة وشرعية الكثير من الممارسات الشاذة تجاه المرأة وطبقات المجتمع الأخرى المستضعفة في المجتمع الجاهلي بإعلانها المساواة والتكريم للخلق أجمعين، ووضع أساس التفاضل بين الناس في خلق التقوى الكسبي.

فالقرآن الكريم يؤكد في أكثر من موضع وحدة الأصل والمنشأ للمرأة والرجل، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[70]. وليس ثمة ما يشير في القرآن مطلقا إلى خطيئة موروثة من آدم أو حواء. قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى

[70] - سورة النساء:الآية 1.

حِينٍ﴾[71]. فآدم وحواء كلاهما أخطأ فتاب واستغفر فتاب الله عليه وقد أشار القرآن إلى ذلك وأكده، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[72]..

والخطاب القرآني لآدم وإلى البشرية عامة يرتكز على نقاط رئيسية:

- أن الإنسان مكرم بنص القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[73].
- وجود الإنسان ينطوي على نوع من الزيغ واتباع الشهوات والغواية بدليل قوله تعالى: ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾. بيدَ أن الإنسان قادر على السمو والارتفاع وتجاوز خط الزيغ ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[74] ونتيجة لهذه القدرة الكامنة على السمو استحق الاستخلاف في الأرض، وهذه كلها مبادئ عامة متضايفة.

فأمانة الاستخلاف ملقاة على الرجل والمرأة معاً وهما مكلفان بالمسؤولية عن طبيعة وجودهما الإنساني على الأرض ويتساويان مساواة كاملة في هذه المسؤولية الإنسانية بوصفهما من أصل واحد، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَٱلأرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[75]..

يقول في ذلك السير توماس ارنولد[76]:

“ No Arab – he argued- has offered to his nation more precious advantages than those I bring you.I offer you happiness in this world and in the life to come”[77].

---

[71] - سورة البقرة: الآية 36

[72] - سورة البقرة: الآية 37.

[73] - سورة البقرة: الآية 31.

[74] - سورة طه: الآية 122

[75]- النساء:1.

[76]- توماس أرنولد المؤرخ الأنكليزي المعروف. عاش في الفترة ما بين: (1795-1842م). من أشهر مؤلفاته كتاب الدعوة إلى الإسلام. وقد تناول فيه بالنقد كافة الشبهات المتعلقة بانتشار الإسلام بالقوة والسيف ليبين أن الإسلام لم ينتشر إلا من خلال تعاليمه السمحة.

[77] - Thomas Arnold, Thw spread of Islam in the world, Goodword books, India, 2003, p. 13.

وشهدت الجزيرة العربية جملة من التحولات والتغيرات العقدية والاجتماعية أقرب ما تكون إلى الطفرات الاجتماعية أو " ثورة" بمصطلح العصر كما تعبرّ عن ذلك المؤرخة المشهورة كارن آرمسترونج آمسترنج بقولها:

"….in fact the emancipation of women was dear to the Prophet's heart. We must remember what life had been like for women in the pre-Islamic period when female infanticide was the norm and when women had no rights at all. Like slaves, women were treated as an inferior species, who had no legal existence. In such a primitive world, the very idea that a woman could be a witness or could inherit anything in her own right was astonishing. We must recall that in Christian Europe, women had to wait until the nineteenth century before they had anything similar: even then, the law remained heavily weighted towards men"[78]

وابتدأ القرآن بإدانة موقف بعض القبائل العربية من قدوم الأنثى ووأدهم لها، وأستنكر ذلك عليهم أيما استنكار ليحوّل بذلك المجتمع الجاهلي من مجتمع أبوي قائم على رياسة الرجل إلى مجتمع قائم على التعاون والتكافل بين محوري الاستخلاف الرجل والمرأة.

كما حارب القرآن شتى صور الظلم الاجتماعي والانتقاص الواقع على الضعفاء كالعبيد والصغار والنساء وأعلن مبدأ المساواة ليمحو به تلك الممارسات الشاذة ويقتلع جذورها. وجاءت تعاليم الإسلام فأحدثت نقلة هائلة في وضع المرأة الاجتماعي والتشريعي وأزالت عنها معالم الظلم الواقع آنذاك.

إلا أنها **مساواة تكامل وليست مساواة تطابق، لأن لكل واحد منهما خصائصه التكوينية المختلفة عن الآخر**.

وفي آية أخرى، يؤكد الله عز وجل هذه المسؤولية ويربطها بالصلاح، الذي هو أساس العمل الجاد المكلف به الرجل والمرأة على السواء، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَـارِ لَأَيَـٰتٍ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ. ٱلَّـذِينَ يَـذْكُرُونَ ٱللَّـهَ قِيَـٰماً وَقُعُـوداً وَعَلَـىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذا بَـٰطِلاً سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَـذَابَ ٱلنَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى

[78] - Karen Armstrong,

لِلإِيمَٰنِ أَنْ ءامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَئَامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلأْبْرَارِ. رَبَّنَا وَءاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ. فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مّنْكُمْ مّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مّن بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَـٰجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لاكَفّرَنَّ عَنْهُمْ سَيّئَـٰتِهِمْ وَلاَدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلاْنْهَـٰرُ ثَوَاباً مّن عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[79].

ففي هذه الآيات حُدد الهدف والغاية من الوجود الإنساني المتمثل في تحمل الأمانة بتوحيد الله وعبادته دون سواه. كما حددت الآيات أن العمل الصالح بمختلف مستوياته وأنماطه عبادة يثاب عليها المرأة والرجل[80]. كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[81].

فالإسلام **يراعي الحقوق من حيث اهتمامه برعاية الواجبات فكل حق للإنسان هو واجب على غيره كما** ينادي بتكريم المرأة والترفّع بها للقيام بدورها.

وبسيادة نظرة القرآن الكريم والسنة النبوية للمرأة في المجتمع المسلم، برز دور المرأة في مختلف المجالات. ومارست من موقعها أعمال الإعمار والتأسيس للدولة الإسلامية الفتية. ولم يبرر المجتمع أي نوع من التفاضل القائم على أساس التفرقة المطلقة بين المرأة والرجل سواء فيما يختص بالتكاليف والمسئوليات والجزاء.

يقول المستشرق المعروف وات منتيجمري[82] في توصيف هذه النقلة الهائلة في وضع المرأة:

79– آل عمران:190-195

80 - Deniz Kandiyoti, "Women, Islam and the State", *Middle East Report*, No. 173, Gender and Politics. (Nov. - Dec., 1991), pp. 9-14. John Esposito, ''Islam: The Straight Path, *p.99, 3rd Edition. Oxford University Press, 2005. Fatima Mernissi,* **Women in Muslim History: Traditional Perspectives and New Strategies,** From *Women's Rebellion and Islamic Memory* 1996 Zed Books, Ltd

81- النحل: 97

82- المستشرق المعروف ويليام وات مونتغمري، ولد عام 1909م وتوفي في اكتوبر 2006م. يعد من أشهر المستشرقين المهتمين بالتاريخ الإسلامي في الغرب. له العديد من المؤلفات عن الإسلام والنبي عليه الصلاة والسلام من أشهرها: محمد في مكة، محمد نبي ورجل دولة...

“It is true that Islam is still, in many ways, a man’s religion. But I think I’ve found evidence in some of the early sources that seems to show that Muhammad made things better for women. It appears that in some parts of Arabia, notably in Mecca, a matrilineal system was in the process of being replaced by a patrilineal one at the time of Muhammad. Growing prosperity caused by a shifting of trade routes was accompanied by a growth in individualism. Men were amassing considerable personal wealth and wanted to be sure that this would be inherited by their own actual sons, and not simply by an extended family of their sisters’ sons. This led to a deterioration in the rights of women. At the time Islam began, the conditions of women were terrible - they had no right to own property, were supposed to be the property of the man, and if the man died everything went to his sons. Muhammad improved things quite a lot. By instituting rights of property ownership, inheritance, education and divorce, he gave women certain basic safeguards. Set in such historical context the Prophet can be seen as a figure who testified on behalf of women’s rights”.83

وعلى هذا الأساس حثّ الرسول عليه الصلاة والسلام النساء على طلب العلم، وجعله فريضة عليهن في هذه الحدود، فقال عليه الصلاة والسلام: « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ »[84] أي على كل فرد مسلم، رجلاً كان أم امرأة. فالتعليم ركن أساسي لأي نهضة وأي تطور لأي أمة.

واستمرت المرأة في ممارسة دورها في البناء والإنشاء. وبرزت العديد من الشخصيات النسائية اللواتي ساهمن في تنشئة أجيال من كبار العلماء وعلى رأسهن أمهات المؤمنين من أمثال عائشة وأم سلمة وحفصة رضي الله عنهن. وكان للمرأة دور واضح في الحروب والسِلم.

وواصلت المرأة المسلمة مسيرتها العلمية على مدى قرون، يشهد لذلك أسماء نسوة عالمات حفظها التاريخ لنا لتكون شاهدا على مكانة المرأة المسلمة علميا وحضاريا في مختلف العصور. ويتضح ذلك جليا في كتب التراجم المحققة التي حوت سير العالمات البارزات والنساء اللواتي لعبن دورا مميزا في بناء المجتمع والدولة آنذاك، في ظل ظرفية وبيئات لم تكن ترى للمرأة حقا يُذكر. وهو أمر لم ينكره أحد من المفكرين قديما وحديثا.

تقول في ذلك الكاتبة فاطمة المرنيسي:

“ The first decades of Islam, as we have seen, are very eloquent on women's contribution at that time and produce models of femininity like the active businesswoman Khadija, or the first shari'a-maker A'isha, the Prophet's third wife, or women who exercised political power within Muslim civilization. Data on women in the first decades of Islam are vital

---

[83] - Interview: William Montgomery Watt, *The Coracle*, the Iona Community, summer 2000, issue 3:51, pp. 8-11

[84] - سنن ابن ماجه، باب فضل العلماء، رقم 220.

since conservative regimes and fundamentalists base their policies on women in Muslim tradition. Sakina Shihabi's editing of the comments of Imam Ibn 'Asakir's special volume on women, Tarikh Dimashq (History of Damascus), is probably one of the best examples of this research. This text contains 196 biographies of famous Muslim women who either lived in or visited Damascus and it gave Ibn 'Asakir an opportunity to summarize all existing data until his time (12th century AD) on some of the most active and forceful women of our civilization. The volume on women is the last of an 80-volume history of Damascus, the editing of which Sakina Shihabi made her life's work. She carried out what is called in Arabic tahqiq (literally 'investigation') which means that she did extensive background research so that the modern reader could identify, by a simple glance at the reference at the bottom of the page, all names and events quoted. She explains her motives, since most of the rest of the volumes are still in manuscript form, for prioritizing the text on women: 'I preferred to bring alive Imam Ibn 'Asakir's volume on women . . . because it highlights a dimension of our Muslim civilization which is still totally obscure, that concerning women'. She summarizes the importance of the work by saying that Ibn 'Asakir's women 'make vibrant five centuries of the political, social, literary and religious life of our civilization"85

ويظهر سمو المبادئ الإسلامية في حضها على تعليم النساء من خلال المقارنة بين تلك المبادئ وبين ما أقرته القوانين الأخرى آنذاك. فقوانين أثينا مثلاً، التي يعدها المؤرخون أكثر القوانين ديمقراطية في العصور القديمة. لاتتيح فرصة التعلم والثقافة إلا للأحرار من ذكور اليونان، بينما توصدها إيصاداً تاماً أمام النساء.

وقد عبّر عن وجهة نظرهم هذه أصدق تعبير، وصاغها في صورة نظرية علمية كبير فلاسفتهم أرسطو، إذ يقرر في كتابه السياسة أن **الطبيعة لم تزود النساء بأي استعداد عقلي يعتد به، ولذلك يجب أن تقتصر تربيتهن على شئون تدبير المنزل والحضانة والأمومة**. ولم يكن أرسطو في ذلك معبراً عن رأيه الشخصي، وإنما كان مسجلاً لما كان يجري عليه العمل في دولة أثينا التي يعدون نظامها أرقى نظام ديمقراطي في الأمم السابقة للإسلام[86].

ولذلك حينما قرر أفلاطون في مدينته الخيالية، مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في حق التعلم والثقافة والإضطلاع بمختلف الوظائف، كانت آراؤه موضع تهكم وسخرية من مفكري أثينا

---

[85] - *Fatima Mernissi*, Women in Muslim History: Traditional Perspectives and New Strategies, From *Women's Rebellion and Islamic Memory*. 1996 Zed Books, Ltd

[86] - Dobbs, D. 3.1996 "Family Matters: Aristotle's Appreciation of Women and the Plural Structure of Society" *American Political Science Review* Volume 90, Number 1, March 1996

فلاسفتها وشعرائها، حتى أن أرستوفان – عميد شعراء الكوميديا في ذلك العصر– وقف تمثيليتين اثنتين من تمثيلياته على السخرية بهذه الآراء، وهما: برلمان النساء وبلوتوس. وجاء على لسان أحد أبطالها: إنه لا يليق بامرأة، لعدة اعتبارات، أن تضيع وقتها في التعلم والثقافة، فوظائفها الأساسية التي ينبغي أن تستأثر بكل جهودها وفلسفتها لا تتجاوز تربية الأولاد وشئون التدبير المنزلي، والسهر على حاجة أفراد الأسرة، والاقتصاد في نفقات البيت[87].

وفي أواخر القرن السابع عشر الميلادي ظهرت أصوات ضعيفة في أوروبا تنادي بتعليم المرأة في حدود ضيقة كل الضيق، وكان على رأس المنادين بذلك العلامة الفرنسي فينلون[88] Fenelon في كتابه الذي ظهر سنة 1680 تحت عنوان: – تربية البنات-L'Education des Filles ولكن هذه الأصوات – مع شدة تحفظها وتواضعها فيما نادت به– لم تلق استجابة يعتد بها من معظم الأمم الاوربية في ذلك العهد.

بَيد أن هذا الدور الذي تصدت للقيام به النساء المسلمات في العقود الأولى من التاريخ الإسلامي، تأثر بعوامل تاريخية واجتماعية وفكرية كثيرة. فدخلت العديد من الأعراف الاجتماعية إلى حياة المجتمعات المسلمة بطرق عدة منها حركة الفتوحات الواسعة والانفتاح الهائل على ثقافات وحضارات الأمم، والركود والتوتر الذي ساد الدول الإسلامية قرونا طويلة، وما تعرضت له من غزو وحروب على أيدي الصليبين والمغول وغيرهم....الأمر الذي أدى في محصلته النهائية إلى دخول الكثير من الأعراف والممارسات الثقافية والسلوكية البعيدة عن جوهر تعاليم الرسالة الإسلامية وطبيعة نظرتها للمرأة ودورها في المجتمع بشكل خاص.

وورثت تلك المجتمعات موروثا اجتماعيا وحضاريا وحملت تركة ثقيلة من مخلفات العصور بكل معاناتها وافرازاتها السياسية والتاريخية وتراكماتها الاجتماعية المتدهورة. الأمر الذي ظهر في تصرفات بعض المسلمين وسلوكياتهم تجاه المرأة. فحُرمت المرأة من التعليم — في بعض المجتمعات– باسم الدين!.

---

[87] - نقلا عن: محمد متولي الشعراوي، الفتاوى، المكتبة العصرية، مصر، 2001م، ص 207.

[88] - François Fénelon عاش في الفترة ما بين: 1651- 1715م. عالم اللاهوت الفرنسي الكاثوليكي، كان كاتبا وشارعا له العديد من المؤلفات من أشهرها: وجود الرب باللغة الانكليزية وكتاب تربية البنات. راجع ترجمته في: François de Salignac de la Mothe Fénelon." *Encyclopedia of World Biography, 2nd ed. Gale Research, 1998.*

وقد صاحب ذلك كله انتشار الجهل والخرافات والبدع – خاصة بين النساء – التي غيبت وراءها مفاهيم الدين الإسلامي الصحيحة، وباتت المرأة فريسة سهلة المنال للجهل والخرافات والشعوذة. وبات واقع المرأة في المجتمعات المسلمة وإلى اليوم واقعا تحكمه العادات والتقاليد التي فقدت مشروعيتها التاريخية على حساب القيم والمبادئ التي جاء الإسلام لتثبيتها وإرسائها[89].

لقد نجم عن ذلك استعمال بعض الكتّاب والمفكرين الغربيين ظروف التأخر المدني والثقافي في الوطن الإسلامي، سيفا مسلطا للهجوم على تعاليم الإسلام والنيل مما قدّمه النبي الكريم للمرأة. واعتبر هذا الاتجاه من المفكرين، العادات والتقاليد المجافية للدين وتعاليمه، مدلفا للطعن في الدين وتوجيه سهام النقد والتجريح إليه. ومن ثمّ الحكم بتخلف المسلمين لتمسكهم بتلك التعاليم البائدة.

واعتبر الغرب وضعية المرأة في المجتمعات المسلمة، دليلا واضحا على تدني الإسلام والمسلمين، كما وجدوا في ذلك مسوغا كافيا لتبرير تدخلاتهم وسياساتهم الاستعمارية في البلدان الإسلامية بحجة تخليصها وتحريرها.

"In the Middle East, the treatment of women provided Europeans with an excuse to declare the inferiority of Muslims and their religion, and also justification for Europe's imperialist and colonialist policies and practices".[90]

إن **الكثير من مظاهر الظلم والإجحاف التي لحقت بالمرأة في المجتمعات المسلمة، كانت من قبيل عادات غريبة دخيلة على المجتمع المسلم، أو من قبيل سوء فهم وتطبيق المسلمين لكثير من نصوص القرآن الكريم والسنة**[91].

يقول في ذلك المؤرخ جون أيزبيزستو[92] John Esposito

[89] - أنظر حول هذه النقطة عمر عبيد حسنة، حتى يتحقق الشهود الحضاري، المكتب الإسلامي، دمشق، 1991/1412م، 166 وما بعدها.

[90]- Wiebke Walther,In Islam Women From Medieval To Modern Times, Markus Wiener Publishing New York, 1993 , p. 8.

[91] - تنبه العديد من الكتاب المعاصرين إلى هذا الخلط بين الأعراف والدين، ومنهم على سبيل المثال: محمد الغزالي، *قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة*، دار الشروق، بيروت والقاهرة، 1990/1410م). مروان إبراهيم القيسي، *المرأة المسلمة بين اجتهادات الفقهاء وممارسات المسلمين*، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، المغرب، 1991/1411م، 19. عبد الله فهد النفيسي، *على صهوة الكلمة*، كويت، 1411 /1990م، 164 وما بعدها. وفي هذه النقطة، أنظر كذلك:
Amira El Azhary Sonbol, *Women, the Family, and Divorce Laws in Islam in History*, Syracuse University Prss, New York, 1996, p. 34.

[92]- البروفيسور جون ايزبيستو أستاذ العلاقات الدولية والدراسات الإسلامية في جامعة جورج تاون. ولد عام 1940م، له العديد من المؤلفات عن الإسلام منها: العالم الإسلامي الماضي والحاضر، موسوعة اكسفورد للعالم الإسلامي الحديث في اربعة أجزاء. قاموس اكسفورد للإسلام. الإسلام والغرب بعد 11 سبتمبر، ما ينبغي أن يعرفه كل احد عن الإسلام.

" The study of women in Islam and Muslim society is complex, reflecting the diverse and varied realities of Muslim women and Muslim societies throughout the ages. Alongside ideals embodied in the Qur'an and the traditions (hadith) of Muhammad, one must look at the actual condition of Muslim women in diverse time periods and sociohistorical contexts. The status of women in Islam was profoundly affected not only by the fact that Islamic belief interacted with and was informed by diverse cultures, but also, and of equal importance, that the primary intepreters of Islamic law and tradition were men (religious scholars or ulama) from those cultures".93

وما يُنسب إلى الإسلام من انحرافات في سلوكيات بعض المسلمين أو تأويلاتهم، لا يلغي قطعية النصوص المتضافرة، وتعاليم الشرع ونصوصه التي لم تكن في موقع معاكس أو مناهض للمرأة على الإطلاق.

[93] - Yvonne Haddad and John Esposito. *Islam, Gender, and Social Change,* Published 1998. Oxford University Press. pp.163

الفصل الثاني

أوضاع العبيد قبل رسالة النبي الكريم

تمهيد

نظام الرقيق Slavery نظام اقتصادي وسياسي عرفته الأمم والشعوب منذ القدم. وكان يمثل القوام الاقتصادي للعرب والعالم أجمع، فقد ارتبطت حياتهم بالرقيق ارتباطاً كبيراً. جاء في الموسوعة الحرة ويكبيديا:

"**Slavery** is a social-economic system under which certain persons — known as **slaves** — are deprived of their personal freedom and compelled to provide their labour or services. The term also refers to the status or condition of those persons, who are treated as the property of another person or household. Slaves are held against their will from the time of their capture, purchase, or birth, and are deprived of the right to leave, to refuse to work, or to receive compensation in return for their labour. As such, slavery is one form of unfree labour"[94]

ويرى بعض المؤرخين أن تاريخ نشأة نظام العبيد يعود إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد في الصين القديمة Ancient Han China. وقد عرفته حضارات العالم القديمة من البابلية إلى المصرية وغيرها فقد أوكلت تلك الدول والامبراطوريات العظمى مهمة بناء المعالم الحضارية والمعابد وما يحيط بذلك من مهام شاقة، إلى طبقة الرقيق[95].

The institution of slavery could be found in societies as diverse as ancient Assyria, Babylonia, China, Egypt, India, Persia, and Mesopotamia; in classical Greece and Rome; in Africa, the Islamic world and among the New World Indians. At the time of Christ, there were probably between two and three million slaves in Italy, making up 35 to 40 percent of the population.

وكان قدماء المصريين يستعملون العبيد في تشييد القصور الملكية والصروح الكبرى والحروب. وفي بلاد الإغريق كان الرّق ممارسا علي نطاق واسع لدرجة أن مدينة أثينا رغم ديموقراطيتها، كان معظم سكانها من العبيد وهذا يتضح من كتابات هوميروس للإلياذة والأوديسا[96].

---

[94] - http://en.wikipedia.org/wiki/Slavery
[95]- *Britanica Cd*, Slavery.
[96] - Rodriguez, Junius P., ed., *The Historical Encyclopedia of World Slavery* (1997)

وكان المجتمع اليوناني المقسم إلى سادة وعبيد يبالغ في احتقار العبيد على الرغم من استخدامهم في سائر المرافق، وكانوا يعتقدون أن الأرقاء إنما خلقوا لخدمة السادة والأمراء. وكانوا يعتبرونهم جزءاً من الأرض يباعون ويشترون. وكان المورد الأساسي للعبيد عندهم الأسر في الحروب، وأهل البلاد المغلوبة التي يعملون فيها، كما كانت القرصنة هي المورد الثاني للعبيد.

وعندما نشطت تجارة الرقيق في أثينا لم تقف مطامع النخاسين عند حدّ، وصار القراصنة اليونانيون يخطفون المسافرين، والسكان الآمنين في الشواطئ الأفريقية والأوربية ويبيعونهم للناس في الأسواق من غير رادع. وكان حق المولى على عبده أنه جزء من أملاكه وأمتعته، فله رهنه أو بيعه، والتصرف فيه كما يشتهى لا يمنعه مانع.

وقد تعددت طرق الحصول على الرقيق، فالحروب والغزوات من أهم مصادره، إضافة إلى عمليات الاختطاف وبيع النساء والأطفال عند العجز عن دفع الديون المالية في بعض المجتمعات.

كما كان الأطفال المنبوذون في الامبراطورية الرومانية أحد مصادر الرقيق الهامة. إضافة إلى عقوبة بعض مرتكبي الجرائم، و سلطة الآباء على أبنائهم حيث يباح لهم أن يبيعوهم، وسماح المجتمع لمن يكون في ضائقة مالية شديدة أن يبيع نفسه للخلاص منها و تناسل الأرقاء، حيث كان ولد الأمة يعتبر رقيقاً ولو كان أبوه حراً[97].

أولا: أوضاع الرقيق في الإمبراطورية الرومانية

كان المجتمع في الإمبراطورية الرومانية يتألف من فلاحين يعملون في الزراعة. وكانت أعرافهم تتلاءم مع قضايا الزراعة. وتطور المجتمع الروماني وعمل في التجارة وتبدلت الاعراف والبنية الاقتصادية وكانت الطبقات العليا هي المسيطرة ولها حق المواطنة.

---

[97] - جاء الإسلام والرق نظام معمول به بشكل واسع النطاق في شبه الجزيرة العربية، فوضع له من الأطر وسن له من القوانين ما يمكن أن يخفف به حجم المعاناة التي كان يعيشها الرقيق، وحض على العتق والمعاملة الحسنة وجعل عتق الرقاب كفارة للعديد من الذنوب والمعاصي التي يرتكبها المرء ، ومكاتبة الرقيق...كل ذلك في سبيل تجفيف منابع الرقيق وتدرجا في تحريم تلك العادة القديمة التي نشأت مع الشعوب وتوارثتها الأمم جيلا بعد جيل. ومع نهاية عهد الرسالة، كان حجم الرقيق وعددهم قد تناقص بشكل ملحوظ، إلا أن تلك الظاهرة لم تدم طويلا، فقد انتشرت الفتوحات الإسلامية وكثر عدد السبايا.

أما الباقون فهم من العبيد الفقراء ليس لهم حقوق وكان الرومان يذلون ويهينون الشعوب التي كانت تحت حكمهم. وكانت الامبروطورية الرومانية القديمة تجهل حقوق الانسان والحريات العامة لأن الدولة تتمثل بالإمبرطور وكان حكمه مطلقا ولا يوجد لديه ضمانات قضائية وكان يتدخل في كافة الشؤون العامة والخاصة بما فيها العلاقات الاسرية[98].

ولم يكن هؤلاء العبيد يملكون حقوقا على الإطلاق. فلم يكن من حقهم الزواج أو بناء أسر. كما كان القانون الروماني يفرض على العبيد حماية سيدهم ضد أي هجوم، فإن لم يقوموا بذلك حُكم عليهم جميعا بالإعدام مهما بلغ عددهم[99].

وكانت الدولة تسترّق بعض الأفراد بسلطة القانون مثل أن يمتنع الشخص من أداء الضريبة، أو بعيب عندما يطلب منه الحضور، فيمتنع فيصبح حينئذ في عداد الأرقاء. وكذلك كان المجرمون والثوار يسترّقون للدولة.

ويعتبر الرقيق كجزء من متاع البيت فهو بمنزلة الفرس والثور، وغيرهما من الحيوانات المستخدمة الأهلية، فكان المولى في شرعهم يتصرف بعبده كما يتصرف بما عنده من الأشياء ذات القيمة، وكان لا يجوز له قتله لأنه شيء من الأشياء التي تملكها يمينه.

ولم يختلف الاسترقاق عن سابقه عند الغاليين وهم السكان المعروفون في فرنسا وأمام جبال الألب في إيطاليا الشمالية. وكان سكان نَهر الرين الأسفل إذا تزوج أحد الأهالي برقيقة أجنبية وقع في الرق والاستعباد. وكذلك المرأة الحرة التي تتزوج برقيق تفقد حريتها، وينالها العقاب.

---

98 - Andrew Wallace-Hadrill, Roman Empire: The Paradox of Power, http://www.bbc.co.uk/history/ancient/romans/empire_03.shtml. Human Rights in Roman Law Countries
Charles de Visscher
Annals of the American Academy of Political and Social Science, Vol. 243, Essential Human Rights (Jan., 1946), pp. 53-59

99 - *Slavery in the Roman Empre* by RH Barrow (Barnes & Noble, 1998). ***Slaves and Masters in the Roman Empire: A Study in Social Con****trol* by KR Bradley (Oxford University Press, 1987). *Slavery and Society at Rome* by KR Bradley (Cambridge University Press, 1994; Spanish translation 1998)

ولما تبنت الإمبراطورية الديانة المسيحية، استمرت على ما هي عليه. فقد أمر بولس العبيد بطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح. فقال في رسالته إلى أهل أفسس:
" أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد، بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس عالمين، أنه مهما عمل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أم حرا"[100].

كما أوصى القديس بطرس بمثل هذه الوصية، وأوصاها آباء الكنيسة، لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوا من غضب السيد الأعظم.

ثانيا: أوضاع الرقيق عند العرب

انتشر الرق عند العرب قبل الإسلام انتشارا كبيرا، وكانت وسيلته الحروب التي لا تنقطع في الجزيرة العربية. وكان الغالب يأسر من المغلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيدا. ومن وسائل الرق عند العرب القوة، فإذا قابلت قبيلة قوية قبيلة ضعيفة استسلمت القبيلة الضعيفة للقوية وخضعت لها وأصبح أفرادها عبيدا.
وكانت تخرج القوافل التجارية يقودها علية القوم بمساعدة العبيد الذين كانوا يجلبون من افريقيا أسرى الحرب (من النساء والرجال) الذين يقومون بالمهام الشاقة من تسييس الإبل وسقايتها ونصب الخيام والقيام بواجبات الإطعام وحراسة القوافل.
وكان الرق يشمل الجسد والعقل فالرقيق يتبع سيده في دينه وتفكيره، ولا حق للرقيق أن يفكر أو أن يتبع تفكيرا آخر غير تفكير سيده وللسيد أن ينزل برقيقه من العقاب ما يشاء لأنه يملكه ملكا كاملا.

---

[100]- الكتاب المقدس، رسالة بولس غلى أهل أفسس، الإصحاح السادس.

ثالثا: النبي الكريم والرقيق

حرص النبي الكريم عليه الصلاة والسلام على إقرار مبدأ المساواة منذ بداية بعثته، وكان خطاب الدعوة شاملا للعبيد والأحرار دون أي تمييز أو تفرق. جاء في الموسوعة الحرة ويكبيديا:

"العبودية كانت سائدة في روما أيام الإمبراطورية الرومانية. فالعبيد قامت على أكتافهم أوابد وبنايات الحضارات الكبري بالعالم القديم. فالعبودية كانت متأصلة في الشعوب القديمة. وفي القرن السابع جاء الإسلام وكان من أولياته التعرض للرق والعبودية بشكل مباشر. فدعا الرسول إلى حسن معاملة الأسرى والعبيد والرفق بهم. وجعل لهم حقوقهم المقدرة لأول مرة في التاريخ الإنساني.".

وقد أعلت نصوص القرآن الكريم من شأن الإنسان بصرف النظر عن أصله وقبيلته ولونه. يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[101]. ولم تنظر إلى اختلاف الأجناس والألوان، وجاءت الدعوة لتساوي بين الناس جميعاً.

وكان النبي الكريم يعي خطر مثل هذه المقولات في مجتمع تفشت فيه أمراض الطبقية والتفرقة العنصرية، لتلغي سلطانها على عبيدهم وجواريهم، وتقضى على نظام جاهلي ضارب في القدم يعتمد فيه السادة لقضاء أحقر المهن والواجبات على العبيد والجواري.

وقد أكد النبي الكريم أن الإسلام دين عالمي، وأن الله قد بعثه رحمة للعالمين دون أي تفرقة أو تمييز. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [102]. وقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[103].. والقرآن أول كتاب ينادي الناس –كل الناس– بخطاب مباشر من

---

[101]- سورة الإسراء: 70

[102]- الأنبياء: 107.

[103]- سورة الفرقان:1

الله تعالى، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾[104]..

من هنا كان أول المستجيبين لهذه الدعوة القائمة على مبدأ التآخي بين الناس والمساواة، هم من طبقة العبيد والمستضعفين في مكة. الذين وجدوا في هذه الدعوة ضالتهم وإنسانيتهم التي كانوا عنها يبحثون.

فكان بلال بن رباح من أوائل من أسلم واستجاب لهذه الدعوة. وأصله من الحبشة، وُلِد بمكة قبل البعثة النبوية بثلاثين سنة، وقضت ظروفه أن يكون عبداً رقيقا لأميَّة بن خلف القرشي. لكن سيدَه ومالكَه أمية بن خلف – الذي كان يخالفه في العقيدة – رفض ذلك، وأراد أن تكون له السلطة والسيادة على فكر بلال وعقله وقلبه، كما هو الحال على جسده وحريته.

وقام بإخضاع بلال لأشد أنواع الأذى والعذاب لعله يرجع عن دينه، وقابله بلال بالصلابة والصراحة والثبات. وزاد أمية في تعذيبه وبلائه، فرماه مكبَّلاً ممدَّداً فوق الرمال اللافحة، وفوقه الصخور اللاهبة، تنهال عليه ضربات السياط في وسط النهار الحار في بطحاء مكة.

فكان بلال لا يزيد على أن يردِّد: أَحَدٌ، أَحَدٌ. إلى أن أشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه حرا لوجه الله ليخلصه من العذاب كما أعتق العديد من الإماء والعبيد الذين أسلموا وتعرضوا للتعذيب والتنكيل بسبب اعتناقهم للإسلام.

يقول السير توماس أرنولد واصفا حالة بلال وتعذيب سيده له إلى أن بادر الصديق رضي الله عنه بشرائه وتحريره:

" He had been crulley tortured by being exposed, day after day, to the scorching rays of the sun, stretched out on his back, with enormous stone on his stomach… After his conversion he expended the greater part of his fortune on the purchase of Muslim slaves

[104]- سورة البقرة:21

who were persecuted by their masters on account of their adherence to the teaching of Muhammad"[105]**.**

ولعل هذه المسارعة في الاستجابة للدعوة من قِبل طبقة المستضعفين والعبيد، من أبرز الأدلة الواضحة على ما قدّمه هذا الدين ونّبيه لهم من قيم ومبادئ إنسانية سامقة. الأمر الذي دفع بالعرب إلى الشعور بأن هذا الدين، ثورة اجتماعية عارمة، فقتلوا عبيدهم وعذبوهم في محاولة فاشلة للحفاظ على العادات العنصرية المتآكلة.

وقد حفلت سيرة النبي الكريم بمواقف توضح سياسته تجاه هذه الفئة من المجتمع. فكان إعتاق العبيد وتحريرهم من أعظم القربات في الدين. وتضافرت أقواله وسلوكياته لاستئصال داء العنصرية والطبقية من المجتمع.

ويعبر المؤرخ الشهير أرنولد جوزيف توينبي[106] عن ذلك بقوله: أن **إنقراض التمييز العنصري والعرقي، يعد من أبرز إنجازات الإسلام. ولا يزال عالمنا المعاصر بأشد الحاجة إلى هذه القيم الإسلامية**.

"The extinction of race consciousness as between Muslims is one of the outstanding achievements of Islam, and in the contemporary world there is, as it happens, a crying need for the propagation of this Islamic virtue."[107].

ولتكريس هذا المطلب وضعت رسالة الإسلام أحكاماً عدة تتعلق بحقوق العبيد منها:

- أن الرق يتصل بالعمل الجسماني ولا يتصل بالعقل، فالرقيق يعمل لسيده ويطيعه في حدود هذا العمل، ولكنه حرّ في تفكيره يعتنق الدين الذي يرضيه، وليس ملزما أن يتبع سيده في أفكاره وليس للسيد أن يطلب من عبده أن يرتكب إثما أو يقتل نفسا بغير حق، وللعبد أن يعارض ذلك وأن يقف في وجه سيده.

[105] - Thomas Arnold, p. 12.

[106]- المؤرخ الانكليزي الشهير أرنولد جوزيف نوينبي، عاش في الفترة ما بين (1889-1975م).

[107] - --**A.J. Toynbee,** CIVILIZATION ON TRIAL, New York, 1948, p. 205

– وضع تنظيما لأسرى الحرب لم يكن معروفا قبل الإسلام، فقد كان الأسرى في الأمم المختلفة يعتبرون أرقاء بمجرد وقوعهم في الأسر، ولكن الإسلام اشترط لاعتبارهم أرقاء أن يفرض الحاكم عليهم الرق، أما قبل أن يضرب الإمام الرق على الأسرى فيمكن أن يتم التبادل معهم بأن يرد المسلمون من أسراهم عددا إلى الأعداء نظير إطلاق عدد مقابل من أسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي الأعداء، أو العفو على الأسرى من غير مقابل، أو قبول الفداء منهم بإطلاقهم نظير مقابل مادي أو أدبي، كما في الآية الكريمة: ﴿فإما مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ﴾. [108]وقد فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر ذلك، فجعل للقارئين منهم أن يفتدوا أنفسهم بتعليم القراءة والكتابة لعدد بن أبناء المسلمين.

– مساواة العبيد بالأحرار في أكثر الشؤون، كما جاء في الحديث: "عَنْ سَمُرَةَ قَالَ قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ وَمَنْ جَدَعَهُ جَدَعْنَاهُ". وجاء ف يمسند أحمد كذلك:" عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ دَعَا غُلَامًا لَهُ فَأَعْتَقَهُ فَقَالَ مَا لِي مِنْ أَجْرِهِ مِثْلُ هَذَا لِشَيْءٍ رَفَعَهُ مِنْ الْأَرْضِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ لَطَمَ غُلَامَهُ فَكَفَّارَتُهُ عِتْقُهُ "[109].

ونقل الإسلام التفاضل إلى مقياس جديد هو التقوى ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ **[110]**.

وبناء على هذا المقياس الجديد زوّج الرسول ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد، وولى زيدا هذا قيادة جيش المسلمين الذاهب لمحاربة الروم في موقعة مؤنة.

كما أسند وظائف عديدة إلى بلال نظراً لما لمس منه من كفاءة، وأمانة، وتضحية، واقتدار، وأعظم هذه الوظائف أنه جعله أميناً على الأذان.

كما أسند النبي عليه الصلاة والسلام إلى بلال، مسؤوليات أخرى ومن ذلك: تولي نصب خيمته صلى الله عليه وسلم، والإشراف على أمور نفقة البيت النبوي، وجباية الصدقات،

---

[108]- سورة محمد: 4.
[109]- مسند أحمد، مسند عبدالله بن عمر، رقم 4553
[110]- سورة الحجرات:13

ورعاية الغنائم والقيام على حفظها، وتقديم الهدايا والأعطيات للوفود والزائرين، والإشراف على إطعام الجيش في السفر.

جاء في الحديث عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"[111].

وهكذا دفن الإسلام العنصرية والتعاظم على الآخرين، وجعل الناس إخوة متحابين، أقربهم إلى اللّه أتقاهم وأنفعهم لعباده.

وقرر الإسلام للأرقاء ألا يطلب منهم أن يعملوا ما فوق طاقتهم، وأن يكون من حقهم أن يأكلوا مما يأكل سادتهم منه، بل أن يلبسوا من لباسهم، ولعل هذا أرقى درجات المساواة.

– رغب الإسلام في تحرير العبيد من خلال تشريع ووضع العديد من الأحكام في سبيل تحقيق الحرية المنشودة وكفالتها للجميع[112]. فالإسلام وإن لم يلغ نظام الرقيق الذي كان شائعا في العالم[113]، إلا أنه عمل كثيرا على إصلاح حاله...[114]

يقول في ذلك المؤرخ لويس برنارد[115]:

Qur'anic legislation, subsequently confirmed and elaborated in the Holy Law, brought two major changes to ancient slavery which were to have far-reaching effects. One of these was the presumption of freedom; the other, the ban on the enslavement of free persons except in strictly defined circumstances[116] .

---

[111]- رواه البخاري. باب الإيمان، حديث رقم 29.

[112] - ". Encyclopaedia of Islam Online. Ed. P.J. Bearman, Th. Bianquis, C.E. Bosworth, E. van Donzel and W.P. Heinrichs. Brill Academic Publishers.

[113] - Michael Bonner, "Poverty and Economics in the Qur'an", Journal of Interdisciplinary History, xxxv:3 (Winter, 2005), 391–406

[114] - حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ج1، 193. Gordon, M. *Slavery in the Arab World* (1989)

[115]- من كبار المؤرخين اليهود المتخصصين في تاريخ الشرق الأوسط، ولد في لندن عام 1916م، ويرى كبار النقاد أنه من أكثر المؤرخين المعاصرين تأثيرا. له العديد من المؤلفات حول الإسلام منها: العرق واللون في الإسلام، العرب في التاريخ، الإسلام من عهد محمد إلى سقوط القسطنطينية، يهود الإسلام وغير ذلك. انظر ترجمته في: *Encyclopedia of Historians and Historical Writing* **Vol. 1**: pp. 719–720. London

[116] - Bernard Lewis. Race and Slavery in the Middle East. Oxford Univ Press 1994.

ويستطيع العبيد من خلالها أن يعقدوا اتفاقيات مع مالكيهم، على أن يؤدوا إليهم مبلغاً من المال يتفق عليه مقابل الحصول على حريتهم وهو ما يعرف بالمكاتبة. وهو عقد بين السيد والعبد لإعادة الحرية لذلك العبد نظير دفعة مالا للسيد.

جاء في القرآن: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.[117]

وبعد المكاتبة يعطى العبد حق التجارة والعمل، كما يعطى حق التملك والحرية ليعمل لنفسه، فلا يعمل لسيده ، بل يتحرر للكسب لسداد الأقساط، كما جعل الإسهام في تسديد الاقساط ومساعدة العبد على السداد من مصارف الزكاة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[118]

- اعترف للعبيد بحق الزواج والسكن، وغير ذلك من الحريات الاجتماعية والأخلاقية، وعاملهم بالحسنى، واعتبرهم من أفراد العائلة، وأباح لهم الحق في تسلّم الوظائف التنفيذية والإفتاء، وعندما يُعتق العبد يتمتع بجميع حقوقه المدنية والسياسية، ويغدو مواطناً كامل الصفة.

وعلى هذا عرف التاريخ الإسلامي عددا هائلا من العلماء والقادة البارزين من هذه الفئة دون أدنى تمييز كالمماليك الذين حكموا مصر بعد قرون من الزمن على انتشار الدعوة المحمدية. يقول المؤرخ جون أيزبيستو في ذلك:

" Within Islamic jurisprudence, slaves are able to occupy any office within the Islamic government, and instances of this in history include the Mamluk who ruled Egypt for almost 260 years and the Eunuchs (castrated human male) who have held military and administrative positions of note. They are also able to marry, own property, and lead the Muslim congregational prayers (the five daily ritual prayers). ..slavery would be theoretically abolished with the expansion of Islam. Islam's reforms seriously limited the supply of new slaves…."[119]

---

[117]- النور: 33.

[118]- سورة التوبة:60

[119] -Esposito, John (1998). *Islam: The Straight Path*. Oxford University Press.

– وكانت من أواخر وصايا النبي –عليه الصلاة والسلام– في حجة الوداع للذين جاؤوا من قبائل العرب قوله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى"[120].

وقد انعكست هذه النظرة التي كرّستها تلك التعاليم في حياة المسلمين لقرون عدة وإن تخللتها بعض الفترات التي شهدت ابتعادا عن تلك التعاليم.

لقد انعكست هذه التعاليم على طبيعة الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية قرونا طويلة، حتى كان العديد من الخلفاء العباسيين، من أمهات روميات الأصل أو فارسيات أو تركيات...وكان العديد منهن أمهات للخلفاء العباسيين[121]. ومنهم على سبيل المثال: المنتصر بالله، المعتز بالله، المعتمد على الله، ...وقد بلغت أغلب هؤلاء منزلة عظيمة من الحظوة والسلطة والكلمة المسموعة حتى في شؤون الحكم والسياسة، وقد اشتهر من أولاد الخلفاء والأمراء والأشراف بأمهاتهم المسيحيات[122]. كما ازدادت أعداد الرقيق من الأتراك بشكل أوضح في عهد المعتصم والذي اعتمد عليهم في شئون الدولة والسياسة والحكم.

ومما لاشك فيه أن المتتبع لتاريخ نظام الرقيق في العالم، يدرك سبق الإسلام وتعاليمه والتشريعات الإنسانية التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام ومارسها حتى صارت سمة غالبة في المجتمع المسلم منذ قرون طويلة. جاء في الموسوعة الحرة:

" وفي القرن الخامس عشر، مارس الأوربيون تجارة العبيد الأفارقة وكانوا يرسلونهم قسرا للعالم الجديد ليفلحوا الضياع الأمريكية. وفي عام 1444م كان البرتغاليون يمارسون النخاسة ويرسلون

---

[120] - مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث رقم 22391.

[121] - C. E. Bosworth, *Barbarian Incursions: The Coming Of The Turks Into The Islamic World*, Bruno Cassirer Publishers Ltd, Oxford, 1973, p. 4.

[122] - أنظر تحت عنوان النبلاء من أبناء النصرانيات: أبو علي أحمد بن عمر بن رسته (360هـ)، *الأعلاق النفيسة*، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م، ج7، 213. ابن عبد ربه، مرجع سابق، ج2، 48. وأنظر كذلك: حسن الزين، *الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلامية حتى الفتح العثماني*، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988م، ص 153 وما بعدها.

Al-Hibri, Azizah Y. (2003). "An Islamic Perspective on Domestic Violence". *27 Fordham International Law Journal 195*.

للبرتغال سنويا ما بين 700 – 800 عبد من مراكز تجميع العبيد علي الساحل الغربي لأفريقيا وكانوا يخطفون من بين ذويهم في أواسط أفريقيا. وفي القرن 16 مارست أسبانيا تجارة العبيد التي كانت تدفع بهم قسرا من أفريقيا لمستعمراتها في المناطق الإستوائية بأمريكا اللاتينية ليعملوا في الزراعة بالسخرة. وفي منتصف هذا القرن دخلت إنجلترا حلبة تجارة العبيد في منافسة وادعت حق إمداد المستعمرات الأسبانية بالعبيد وتلاها في هذا المضمار البرتغال وفرنسا وهولندا والدنمارك. ودخلت معهم المستعمرات الأمريكية في هذه التجارة اللا إنسانية. فوصلت أمريكا الشمالية أول جحافل العبيد الأفارقة عام 1619 م. جلبتهم السفن الهولندية وأوكل إليهم الخدمة الشاقة بالمستعمرات الإنجليزية بالعالم الجديد. ومع التوسع الزراعي هناك في منتصف القرن السابع عشر زادت أعدادهم. ولاسيما في الجنوب الأمريكي. وبعد الثورة الأمريكية أصبح للعبيد بعض الحقوق المدنية المحدودة. وفي عام 1792 كانت الدنمارك أول دولة أوربية تلغي تجارة الرق وتبعتها بريطانيا وأمريكا بعد عدة سنوات.

وفي مؤتمر فينا عام 1814 عقدت كل الدول الأوربية معاهدة منع تجارة العبيد. وحررت فرنسا عبيدها وحذت حذوها هولاندا وتبعتها جمهوريات جنوب أمريكا ما عدا البرازيل حيث ظلت العبودية بها حتى عام 1888م.

وكان العبيد في مطلع القرن التاسع عشر بتمركز معظمهم بولايات الجنوب بالولايات المتحدة الأمريكية. لكن بعد إعلان الإستقلال الأمريكي أعتبرت العبودية شراً ولا تتفق مع روح مبادىء الاستقلال. ونص الدستور الأمريكي علي إلغاء العبودية عام 1865م. وفي عام 1906م عقدت عصبة الأمم (League of Nations) مؤتمر العبودية الدولي (Convention International Slavery) حيث قرر منع تجارة العبيد وإلغاء العبودية بشتى أشكالها. وتأكدت هذه القرارات بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان (Universal Declaration of Human Rights) الذي أصدرته الأمم المتحدة عام 1948م.

ويقول المؤرخ الشهير لويس برنارد في مقارنة بين ما حققه الإسلام في معاملة الرقيق الإنسانية وبين تلك المعاملة القاسية التي نالها الرقيق على مدى قرون في منطقة الأطلسي والعالم الغربي

بصورة عامة، أنه أمر يشعر العالم الغربي بالخجل. وما يقال عن موضوع الرقيق ينطبق على ما يثيره الغرب حول قضايا تعدد الزوجات، والاستبداد وما شابه.

..." We must study the history of Atlantic slavery and expose this great shame in the history of the Western world and the Americas north and south in all its horror. This is a task which falls upon us as Westerners, and in which others may and should and do join us. In contrast, however, even to mention - let alone discuss or explore - the existence of slavery in non-Western societies is denounced as evidence of racism and of imperialistic designs. The same applies to other delicate topics as polygamy, autocracy, and the like. The range of taboos is very wide'.[123]

ويؤكد المستشرق المعروف هاملتون جب[124] أن **الإسلام قدّم الكثير لخدمة القضايا الإنسانية. ويعد الأقرب إلى تحقيق الكثير في مجال المساواة والتعاون والقضاء على التمييز العرقي والعنصري. وليس ثمة مجتمع لديه هذا السجل الرائع في مجالات المساواة وإعطاء الفرص والتعاون بين الأجناس المختلفة كما للإسلام**[125].

ثم يقرر أن **العتق هو الذي شرعه الإسلام في أمر الرق، وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده الإسلام مشروعا فحرّمه، ولم يبح منه إلا ما هو مباح إلى اليوم في نظام الأسرى** وتسخيرهم في أعمال من يأسرونهم من المتقاتلين.

كما يبين أن **الإسلام سبق القوانين الدولية بتقريره إلزام الدولة واجب السعي في إطلاق أسراها وإعتاقهم بالفداء**، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة إلى الأفراد من مالكي الأرقاء بعد وفاء الدولة بذمتها. ولا يقال هنا إنه عمل كثير أو قليل، بل يقال إنه العمل الوحيد الذي كان ممكنا في محاربة نظام الرق، ولم تستطع أمم الإنسانية ما هو خير منه في علاج هذه المسألة إلى الآن.

---

[123] - B.Lewis,, "Other People's History" in Islam and the West, New York: Oxford University Press 1993

[124]- المستشرق الاسكتلندي المعروف هاملتون جب عاش في الفترة ما بين (19711895 -). له مؤلفات عدة عن العرب والإسلام منها: ابن بطوطة، موسوعة الإسلام، وغير ذلك. انظر ترجمته في: *Oxford Dictionary of National Biography*, Oxford University Press (2004).

[125] - -H.A.R. Gibb, WHITHER ISLAM a Survey of Modern *Movements in the Moslem World*, Routledge, New York, 2000, p. 379.

الفصل الثالث

التعامل مع المخالفين في العقيدة في العالم قبل وبعد رسالة النبي الكريم

أولا: في الدولة الفارسية

كان الفرس يضطهدون الفرق المخالفة لعبادتهم (النار) من يهود ونصارى وصابئة وبوذيين وماتويين. فدُمرت الكنائس على يد جنود الفرس كما جرت مذابح عدة على أيدي جنود الدولة الفارسية.

وبالرغم من أن الإمبراطورِ البيزنطي جوستينيان الأول (527-565) دَفعَ 440 ألف قِطَعِة من الذهبِ للمُحَافَظَة على السلام مع الفرس، إلا أنه في سنة 540 م كسر الملك كسرى الأول معاهدة السلام الأبدي مع الرومان التي حصلت في 532 م، وغَزا الملك كسرى الأول سوريا، حيث حاصر بشكل مؤقت مدينةَ أنتيوتش، وجمع الملك كسرى أموالاً من المدن البيزنطية المختلفة في طريق عودته[126]

جاء في الموسوعة الحرة: "اتبع الملك شابور الثّاني (310-379)سياسة دينية قاسية وفي عهدِه اكتملت مجموعة النصوص المقدّسة للزرادشتية المسماة أفيستا، وتمت معاقبة المبتدع والمرتد عن الدين الزرادشتي وتمّ اضطهاد المسيحيين.

واضطهاد المسيحيين كان ردّ فعل ضدّ المسيحية التي اعتنقتها الإمبراطورية الرومانيةِ مِن قِبل قسطنطين الكبير (324-337)، ولكن الملك شابور الثّاني كان مثل الملك شابور الأول، وِدِّياً نحو اليهود الذين عاشوا في حرية نسبية في عهده، وكَسبَ اليهود العديد مِنْ الفوائدِ في عهد الملك شابور الثاني.

---

126 - The Making of Byzantium, 600-1025, by Mark Wittow, University of California Press, 1996
The Politics of Usurpation in the Seventh Century: rhetoric and revolt in Byzantium, by David Michael Olster, 1993
A History of the Persians, volume 1, third edition, Chapter XLII, by Sir Percy Sykes, 1951

ثانيا: في الإمبراطورية الرومانية

تعرض المؤمنون بالنصرانية الأوائل إلى حملات اضطهاد مروعة من قِبل الدولة الرومانية طيلة القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد. فقد اعتبرت الامبراطورية الرومانية – الغارقة في وثنيتها– المسيحية دينا غير شرعي، فلاحقت المؤمنين بمنتهى العنف والقسوة. الأمر الذي أدى إلى هجرة أعداد كبيرة من النصارى إلى الأقاليم البعيدة عن سلطة الرومان.
وفي العصر الذي تولى فيه الإمبراطور دقلديانوس الحكم عام 248م بلغ الاضطهاد ذروته، وأطلقت الكنيسة القبطية على ذلك العصر "عصر الشهداء".

إلا أن الأمر تغير كليا بعد اعتراف الامبراطور قنسطنطين الكبير (306-337م) بالمسيحية دينا مشروعا ومعترفا به حينما أصدر مرسوم ميلان سنة 313م بذلك. وتحولت وجهة الاضطهاد من النصارى إلى الوثنيين بعد أن باتت النصرانية دين الامبراطورية الرسمي، فأغلقت المعابد الوثنية وحُطمت الأوثان وشرّعت قوانين صارمة ضد الوثنين[127].

وفي عام 323م أعلن الأسقف آريوس Arrious ثورته على القول بإلوهية المسيح وأكد بشريته وقرر أن الأب وحده هو الإله، ومن هنا وصف وأتباع بالموحدين.

وأحدثت أراؤه أزمة خطيرة في الأمبراطورية البيزنطية وتدخل الامبراطور قسطنطين ووقف إلى جانب آريوس أولا ثم وقف إلى جانب الكنيسة ورجالاتها، داعيا إلى عقد مجمع مسكوني في نيقية عام 325م. وقد قرر المجمع طرد آريوس وأتباعه واعتبروهم فرقة مبتدعة وأكد عقيدة التثليث.

[127] -Aland, Kurt (ed.) 1990. *Synopsis Quattuor Evangeliorum.* 3rd ed. Stuttgart: Deutsche Bibelgesellschaft.
نقلا عن: عرفان عبدالحميد فتاح، النصرانيةنشأتها التاريخية وأصول عقائدها، دار عمار، الأردن، 2000م، ص 61.

غير أن النزاع لم ينته واستخدمت كل فرقة إجراءات عنيفة لإرغام الناس على اتباع فكرها التعذيب والتقتيل أو النفي. كما واجه البيزنطيون ديانة باقي الوثنين وخاصة في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (378-395 م) الذي أصدر مرسوماً ببطلان العبادات الوثنية و منع تقديم القرابين و إحراق البخور و ممارسة الكهانة و معرفة الغيب و...الخ.

وذهب الأساقفة إلى أبعد من ذلك، فتم تدمير المعابد وتحويل بعضها إلى كنائس، مثل معبد سرابيوم المقام للإله سيرابيس وذلك فى عام 391 م حيث شيدت على أطلاله كنيستان. ذلك المعبد – الذي ذكر المؤرخون ومنهم المؤرخ الأنكليزي الشهير Edward Gibbon (1737-1794م)[128] – أن مكتبة الإسكندرية الشهيرة كانت ملحقة به، وأنه قد تمّ حرقها على يد بطريرك الإسكندرية فى ذلك الوقت[129].

وبدأت المسيحية البيزنطية[130] الشروع في تأسيس أبنية حضارة خاصة بها، لها هويتها المتميزة، مثّلت استمرارا للجذور الثقافية اليونانية الرومانية مع إسباغ بعد روحي على تلك الأصول الوثنية مستمدة من تعاليم المسيحية. ومارس الأباطرة السلطتين الدنيوية والدينية في آن واحد[131].

إلا أن أساقفة الكنيسة البيزنطية في المناطق الشرقية غير الخاضعة لسلطان القسطنطينية، أكدوا وجوب تفرد السلطة الكنسية بالفصل في ما يتعلق بالعقيدة والطقوس الدينية، وتأكد هذا حين ثار الخلاف حول نصب التماثيل والأيقونات وامتد إلى ما يزيد على قرن من الزمان. من هنا بدأ

---

[128]- وذلك في كتابه The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. راجع ذلك وما ذكره حول حرق البطريك لمكتبة الاسكندرية العظيمة في: Womersley, David P. "Gibbon, Edward", *Oxford Dictionary of National Biography*, vol. 22, H.C.G. Matthew; Brian Harrison, eds. (Oxford: 2004), 8-18.

[129] - Womersley, ibid, 8-18.

[130]- **الامبراطورية البيزنطية دولة تأسست في القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية من البسفور حتى نهر الفرات، أي فيما يعرف بتركيا حاليا. أسسها اركاديوس عام 395 م واستمرت حتى قيام الامبراطورية العثمانية عام 1453م عندما سقطت عاصمتها القسطنطينية. نشأت أولا لمجابهة العدو الفارسي وتوطدت بعد تجزئة الامبراطورية الرومانية الى دولتين متميزتين لا سيما بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية إذ اصبحت الامبراطورية البيزنطية وريثة الامبراطورية الرومانية بأسرها عام 476 م. لعبت دورا هاما في الخلافات الدينية المسيحية. انظر الموسوعة الحرة ويكبيديا/ الدولة البزنطية.**

[131] -The Catholic Encyclopedia, Volume IX, Jonathan Kirsch, *God Against the Gods*; Linda Woodhead, *An Introduction to Christianity*; The Columbia Electronic Encyclopedia.

التمايز الواضح بين الكنيسة الإغريقية الشرقية الأرثودوكسية عن الكنيسة الرومانية الغربية في العقيدة ونظم الحياة وصيغ العبادات والطقوس الدينية كذلك.

وأصدر الإمبراطور داديانوس منشورًا جاء فيه:

- يجب هدم الكنائس وإزالتهما من الوجود.
- يجب حرق جميع الكتب المقدسة التي للمسيحيين.
- يُطرد فورًا جميع المسيحيين الموظفين بالدولة.
- حرمان العبيد من الحرية إن ظلوا مسيحيين.
- يجب على الجميع تقديم الذبائح والبخور للآلهة ومعاقبة كل من يخالف أوامر الإمبراطورية ويعرض نفسه لأشد أنواع العقاب والعذاب حتى الموت.

وبالفعل فور صدور هذا المنشور، سرت موجة من الاضطهادات في كل ربوع الإمبراطورية. وأمام هذه الاضطهادات وإعادة بناء هياكل للأوثان وسجن رؤساء الكنائس استشهد الكثيرين. وعاشت الكنائس النصرانية في الشرق الإسلامي قرونًا طويلة – تحت نير الاستعمار البيزنطي– ديانة سرية مضطهدة ومطاردة ومتهمة بالهرطقة، حتى اغتصبوا كنائسها وأديرتها– منذ الانشقاق الذي حدث في «مجمع خلقدونية» سنة 451م– وتكون «المذهب الملكاني» الروماني المعادي للنصرانية الشرقية.

فتواصل الاضطهاد للنصرانية الشرقية. وتعرضت الأرثودوكسية وأتباعها إلى الاضطهاد والمنع بعد اختلافهم مع الكنيسة الرسمية الكاثوليكية، واعتبروا البيزنطيين محتلين لهم، فأعلنوا الثورة عليهم وتمسكوا بالعداء لهم.

ولقد استمر هذا الاضطهاد الذي هربت منه قيادات النصرانية الشرقية إلي الصحاري والجبال والمغارات.. والذي تؤرخ الكنائس الشرقية حتى الآن بمجازره ضد أنصارها، فتسميه «عصر الشهداء»[132]!..

يقول المؤرخ ميخائيل السرباني: "لم يصغ الإمبراطور إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت ولهذا فقد انتقم الرب منه.. لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا و أديرتنا بقسوة بالغة واتهمونا دون شفقة ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان وتركنا العرب نمارس عقيدتنا بحرية وعشنا في سلام".

ويقول الأسقف «يوحنا النقيوسي» واصفا تحرر الأقباط من سطوة الرومان على يد الفاتحين المسلمين:

" إن الله الذي يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى أيدي الإسماعيليين (العرب المسلمين) ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر، وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما سلباً أو نهباً، وحافظ على الكنائس طوال الأيام، ودخل الأنبا بنيامين بطرك المصريين مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الرومان ثلاثة عشر عاماً، وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون: هذا النفي، وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكس.. وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر.. وخطب الأب بنيامين في دير مقاريوس، فقال: لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون"[133].

وكان البطريك بنيامين قد فرّ من الرومان ثلاثة عشر عامًا.

---

[132]- يوحنا النقيوسي، تاريخ مصر رؤية قبطية للفتح الإسلامي، ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل، طبعة القاهرة -دار عين- سنة 2000م، ص 201, 220.

[133]- يوحنا النقيوسي، تاريخ مصر: رؤية قبطية للفتح الإسلامي، ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبدالجليل، دار عين، القاهرة، 2001م، ص 201-220. وقد عرف عن هذا المؤرخ تعصبه كما جاء في كتابه عبارات كثيرة تتضارب مع ما نقلناه عنه في نفس الكتاب.

وجاء في الموسوعة الحرية ويكبيديا:

"بعد وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خرج العرب المسلمون من شبه الجزيرة العربية لنشر الإسلام في أنحاء العالم المعروف، وضربوا أروع الأمثلة في الفضائل و القدوة الحسنة.. و قد رحب المصريون بالمسلمين الذين خلّصوهم من ظلم الرومان طيلة عقود طويلة من القهر و الظلم ..وبعد أن عجز البيزنطيون عن مقاومة الجيش الإسلامي تم عقد معاهدة في 641 م اشتهرت بـ"صلح الإسكندرية" تنتهي بعد حوالي سنة يتم خلالها جلاء الحامية البيزنطية عن الإسكندرية و ألا يعود البيزنطيون للإسكندرية.. و دخل القائد عمرو بن العاص الإسكندرية في 642 م و كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له المدينة و لكن بعد مدة قصيرة من السيطرة على المدينة، قام البيزنطيين بهجوم مضاد ليستعيدوا المدينة من جديد إلا أن عمرو بن العاص استطاع هزيمتهم و دخل الإسكندرية مرة أخرى في صيف سنة 646 و رحب الأقباط في الإسكندرية بقيادة البطريرك بنيامين بالمسلمين ترحيباً بالغاً و بذلك فقدت الدولة البيزنطية أغنى ولاياتها إلى الأبد"[134].

ويقول غوستاف لوبون: "لقد أُكرهت مصر على انتحال النصرانية، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي. وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية وأنهكها استبداد الحكام، تحقد على سادتها الروم، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين"[135].

---

[134]- انظر الموسوعة الحرة ويكبيديا، http://ar.wikipedia.org/wiki. وانظر كذلك: آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج1 ص63، ترجمة د· محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة العام 1981م· كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس ص 360.

[135]– غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العلمية، مصر، الطبعة الثالثة، 1956م، ص 336. وانظر كذلك: توفيق الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، طبعة دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1991م، ص 123.

ثالثا: العرب قبل الإسلام ومعاملة المخالف

تلقت قريش الدعوة إلى الإسلام المخالفة لما كان عليه الآباء والأجداد، بشتى أنواع الرفض وأساليب الاستنكار. ولم تكتف بذلك بل وظّفت كافة أساليب التعذيب والاضطهاد لقمع الدعوة في مكة. يقول السير توماس أرنولد في وصف عمليات القمع والتعذيب التي استعملتها قريش ضد المسلمين الأوائل:

"The hostility of the Quraysh to the new faith increased in the bitterness as they watched the increase in the numbers of its adherents. They relaised that the triumph of the new teaching meant the destruction of the national religion and the national worship, and a loss of wealth and powerto the guardians of the sacred Ka'bah…..the poor who had no protector, and the slaves had to endure the cruelest persucation, and were imprisoned and tortured in order to induce them to recant "[136].

لقد بقي النبي الكريم في مكة ثلاثة عشر عاما يدعو الناس سلميا إلى الإسلام، وتحمل كل أصناف الإيذاء والإقصاء والحصار التي أنزلها المشركون به في مكة وما جاورها. ثم حثّ النبي عليه الصلاة والسلام أتباعه خاصة من المستضعفين والعبيد على الهرب والفرار إلى الحبشة لما سمع عن ملكها النجاشي النصرني من طيب المعاملة والعدل والمساواة وتوفير الحرية الدينية لرعاياه[137].

لقد مارست قريش القتل والتعذيب والحصار الاقتصادي، والارهاب الفكري والاضطهاد الاجتماعي، فلم تفلح في تحقيق أهدافها. فقرّرت قتل النبي صلى الله عليه وسلم والتخلّص منه. الأمر الذي حدا به إلى الهجرة إلى المدينة بعد أن أذن الوحي له بذلك.

فكان التعامل

رابعا: النبي الكريم والتعامل مع المخالف

قدّم النبي الكريم تعاملا ساميا يسوده العدل والحرية والحفاظ على الكرامة الإنسانية مع الآخر المخالف له سواء أكان ذلك في التعامل مع الأفراد أو الدول. وكان ذلك في زمن لم تكن الشعوب – أفرادا ودولا- تعرف فيه إلا الصراع مع المخالفين وسيادة منطق القوة والغلبة.

[136] - Thomas Arnold, ibid, p.14.

[137] - John Bagot Glubb, The life and Times of Muhammad, Hodder, London, 1970.p. 119

فمنذ بدايات مبكرة قدم النبي عليه الصلاة والسلام إزاء أهل الكتاب، موقفاً منفتحاً رسمت من خلاله تقاليد العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ووُضعت أصولها ونُظّمت صيغها. وعندما مضت حركة التاريخ صوب العصور التالية مضت معها هذه التقاليد والأصول والصيغ تعمل في مجرى العلاقات الاجتماعية.

ويمكن إجمال أسس التعامل النبوي مع مخالفيه في العقيدة على النحو التالي:

أولا: رفض التنميط والتعميم في الحكم على الآخرين. فالقرآن منذ البدء لم ينظر إلى مخالفيه نظرة واحدة، ولم يفترض نظرة نمطية تجاه الآخرين. ولم يجعل العلاقة بين المسلمين ومخالفيهم حتى من الكفار والمشركين في سياق واحد بل تختلف تلك العلاقة وفق معايير متعددة.

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن ثمة آيات ونصوص عديدة في القرآن الكريم تحدثت عن "فئة"، و"طائفة" و"فريق" و"كثير" وهي مصطلحات تدل بوضوح على عدم وجود نمطية إزاء المخالف منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[138] وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[139]. وقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾[140]. وقوله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[141]. وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً

[138]- سورة المائدة: 65.
[139]- سورة البقرة: 78.
[140]- سورة آل عمران: 75.
[141]- سورة ال عمران: 113.

أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[142]. وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[143].

وحين يتحدث القرآن عن الصفات السلبية للمخالفين من اليهود والنصارى، تأتي النصوص في غاية التخصيص والدقة،كما في قوله تعالى :﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[144]. وقوله: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[145].

كل هذه النصوص جاءت تأكيدا لنفي النمطية عن العلاقة بالمخالف في المعتقد. فالمخالف ليس جنسا واحدا وإن كثر فيه السوء أحيانا في زمن ما أو بيئة معينة.

والقرآن الكريم والمنهج السلوكي العملي له المتمثل في تعامل النبي الكريم، **يعلّم المسلمين خطورة الوقوع في النظرة النمطية التي تقوم على أساس التعميم والإطلاق والنظر إلى الأمم والشعوب على أنها شريحة واحدة دون تمييز أو تفرقة بين الأفراد والأشخاص، وهو أمر في غاية الإنصاف والعدل الذي باتت تفتقده أكثر الأنظمة العالمية ادعاء للمساواة والعدالة.**

وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية الحديثة خطورة التنميط ودوره في توجيه الإدراك والعمليات المعرفية المنبثقة عنه، فإن تأثيره في توجيه تفاعل الفرد مع الآخرين وسلوكه تجاههم أكثر وضوحاً وأشد خطراً.

---

[142]- سورة آل عمران: 199.
[143]- سورة الأعراف: 159.
[144]- سورة آل عمران: 78.
[145]- سورة آل عمران: 69.

فكثير ما يعتمد الفرد على صورة النمطية كأطر معرفية توجّه سلوكه وتفاعله مع الآخرين فيسلك تجاههم على نحو يتسق مع هذه الصور وينسجم مع محتواها دون تفرقة أو تمييز بينهم[146].

كما أن أصل التصنيف والتمييز في المجتمع المسلم إلى مسلمين وغير مسلمين، يعود لما يترتب عليه من أدوار ووظائف وحقوق وواجبات لكل فئة في الدولة الاسلامية.

ثانيا: حق المساواة في الإنسانية حيث كانت المجتمعات البشرية قبل الاسلام تعيش على الفوارق الطبقية والعصبية للشرف والعِرق والمفاضلة بين الغني والفقير. فاهتم الاسلام بالقضاء على النظام الطبقي والاستعلاء على المنافسات الشعوبية.

فإنسانية الإنسان وآدميته أمر مقرر فى الشريعة الإسلامية... والإنسان أعلى المخلوقات مرتبة، كرّمه الله الخالق لآدميته كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلقد كرمنا بني آدم﴾. فالنفس الإنسانية مقدرة لذاتها معظمة لآدميتها بصرف النظر عن انتمائها الدينى أو العرقي أو الجنسي أو اللوني.

ثالثا: حرية الفكر والعقيدة بحيث تحول تلك الحرية دون تسلط فرد أو جماعة، فأطلق الاسلام للفكر العنان ليبحث ويتدبر ثم ألقى المسئولية على عاتقه في اختيار معتقده وليس لأحد أن يحمله على ترك معتقده[147].

ومن ذلك ما جاء في الحديث أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ

[146] -John M. Darely and Russell H. Fazio, Expectancy Confirmation Processes Arising in the Social Interaction Sequqnce, American Psychologist, vol. 35, no. 10 (October 1980), pp. 867-881.

[147]- السيد أحمد المخزنجي، العدل والتسامح الاسلامي، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة السادسة، العدد 67، شوال 1407هـ/ يونيو1987م، ص 24-25.

صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ[148].

وكان أكثرهم على دين اليهودية، ثم إنهم دخلوا الاسلام طواعية من غير إكراه. ومثلهم كثير منهم من أسلم من يهود المدينة ذكرتهم كتب السير والمغازي وتحملوا معاداة الأهل والأقارب مع ضعف شوكة المسلمين آنذاك[149]. ولم تشهد السيرة النبوية حادثة واحدة وقع فيها إكراه أحد على ترك دينه أو معتقده وحمله على اعتناق الإسلام.

رابعا: الاعتقاد بأن اختلاف البشر في عقائدهم واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته. كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[150]. فلم يضق النبي الكريم بالتنوع والاختلاف، فقد اعتبرته نصوص الوحي وأقرتّ وجوده كحقيقة واقعة بين البشر. وجاء ذلك الأساس في آيات ونصوص قرآنية عدة منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[151].

جاء في تفسيرها أي لجعلهم مسلمين كلهم. وقوله: ﴿ ولا يزالون مختلفين﴾ فالاختلاف الذي وصف الله الناس أنهم لا يزالون به هو الاختلاف في الأديان، كما قال البعض بمعنى ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتى من بين يهودي ونصراني ومجوسي ونحو ذلك[152]. وجاء موقف القرآن والسنة من المخالفين في العقيدة منطلقا من مبدأ الاعتراف بهم، لا ک "آخر" بالمعنى الأوربي للكلمة، بل كأهل دين متساوون أمام الله. **فالاعتراف أولاً هو القاعدة الأساسية التي**

---

[148]- رواه البخاري، المغازي، رقم 4000.

[149]- من هؤلاء على سبيل المثال: زيد بن سعنة، أسد بن سعية القرظي، ثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد ..انظر في ذلك: هامش كتابة هداية الحيارى، مرجع سابق، ص 73.

[150]- سورة هود: 118.

[151]- سورة هود: 118.

[152]- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ج12، ص 141. وانظر كذلك أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، 1401هـ، ج2، ص 466.

يرتكز عليها الحوار، إذ لا حوار دون الاعتراف بوجود تنوع وتعدد آراء في مجتمع واحد وعالم واحد.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[153].

من هنا كانت هذه الأصول والقواعد متأصلة في في صلب البناء العالمي الذي أرساه القرآن وطبقّه النبي الكريم. **وبات السلم متأصلا وليس أمرًا طارئًا أو استثنائيًّا، والحرب والصراع هو الخروج على القاعدة.**

وقد تأصلت هذه الرؤية وانعكست على كافة المستويات؛ ابتداء من حياة الفرد، ومرورًا بالأسرة والجماعة والمجتمع والدولة، ووصولاً إلى ما يمكن أن نطلق عليه العلاقات الدولية.

فالعالم ليس حلبة للصراع تكون الغلبة فيها للأقوى، بل هو كلٌّ متناسق. ولم تكن تعاليم النبي الكريم في ذلك، مثالية أو ضاربة في الخيال بل تمّ الالتزام بها وتطبيقها فعليا في حياته وبعد وفاته. لأنها تشكل عمق الرؤية الإسلامية للعالم الذي أراده القرآن.

وعلى هذا تُقرأ كافة السياسات والمواقف والإجراءات التي اتخذها النبي الكريم مع مخالفيه- أفرادا ودولا- في إطار الالتزام بمنظومة من القيم والمبادئ المعيارية، التي تضمن الوصول إلى هدف السلام العالمي.

ولم **يكن السِلم الذي أراده النبي الكريم على شاكلة السلام الروماني Pax Romana القديم؛ القائم على أن القوة تخلق الحق وتحميه، وأن البشر ينقسمون إلى أحرار وعبيد، بل هو نظام تحكمه قيّم العدالة والمساواة والحرية، وتحوطه أخلاقيات الوفاء بالعهود، والأمانة والصدق.**

---

[153]- سورة البقرة:62.

خامسا: التزام مبدأ التعارف الإنساني. فقد اعتبر القرآن البشرية أسرة واحدة تشترك في العبودية لله، والبنوة لآدم، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. وهذا ما أعلنه رسول الإسلام أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى"[154].

ثم إن الإسلام قد حدد العلاقة مع غير المسلمين في آيتين محكمتين من كتاب الله، تعتبران بمثابة الدستور في ذلك، يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[155].

سادسا: تقرير استقلال الإنسان في عقيدته وشخصيته ومعيشته مع توجيه الاهتمام إلى جوهر الإنسان وذاته من روح وعقل وفضيلة. وأن الله عز وجل يتولى حسابهم على اختيارهم يوم القيامة ويفصل بينهم في هذا الاختلاف. كما قال تعالى لرسوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾156.

سابعا: اعتقاد المسلم بكرامة الإنسان من حيث هو إنسان. عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ كَانَا بِالْقَادِسِيَّةِ فَمَرَّتْ بِهِمَا جَنَازَةٌ فَقَامَا فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ

---

[154]- سبق تخريجه، ص 48.
[155]- سورة الممتحنة: 8-9.
[156]- سورة الشورى: 15.

الْأَرْضِ فَقَالَا إِنَّ رسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ فَقِيلَ إِنَّهُ يَهُودِيٌّ فَقَالَ أَلَيْسَتْ نَفْساً[157].

ثامنا: إيمان المسلم بأن عدل الله لجميع عباد الله، مسلمين وغير مسلمين، وهو أمر رباني لا ينبغي للمسلم إسقاطه أو إغفاله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾158.

وقد انبثقت عن هذه الأسس والمبادئ قيم حاكمة، سارت وفقها منظومة العلاقات بين النبي عليه الصلاة والسلام والآخر سواء أكان هذا الآخر فردا أو جماعة أو دولة.

ويمكن الوقوف عند أبرز هذه القيم الحاكمة على النحو التالي:

أولا: العدالة

وتقتضي قيمة العدالة الحاكمة أن يعطى كل ذي حق حقه، بصرف النظر عن الموافقة في الدين أم لا. وقد أمر الله المؤمنين أن يلتزموا بهذا المعنى للعدالة وأن يطبقوه، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾**[159]**.

وعلى هذا أقر القرآن مبدأ إنصاف العدو وتبرئة ساحته مع مخالفته في الدين. كما جاء في سبب نزول الآية: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[160]. التي نزلت في طعمة بن أبيرق سرق درعا في جراب فيه دقيق لقتادة بن النعمان وخبأها عند يهودي فحلف طعمة مالي بها من علم فأتبعوا أثر الدقيق إلى دار اليهودي فقال

---

[157]- رواه البخاري، باب الجنائز، من قام لجنازة يهودي، رقم 1229. رواه مسلم، باب الجنائز، القيام للجنازة، رقم 1596. سنن النسائي، الجنائز، رقم 1895..

[158]- سورةالمائدة:8.

[159]- المائدة: 8

[160]- سورة النساء: 105.

اليهودي: دفعها إلى طعمة فلما همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقضاء في المسألة نزلت الآيات الكريمة تبرئ ساحة اليهودي وتنصفه[161].

فقد أقرّ القرآن هذا المبدأ وعززته السنة الفعلية للنبي عليه الصلاة والسلام فما كان لينصر مسلما على يهودي لمجرد أنه مسلم. **فالاختلاف في الدين بل والعداوة لا تمنع المسلم من إقامة العدل والإنصاف وتحقيقه وهذا أدب رفيع لا ينبغي أن تخلو ساحة الحوار منه مطلقا.**

وجاء نص القرآن الكريم صراحة آمرا المسلمين بالبر والقسط والعدل مع المسالمين من غير المسلمين قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[162].

يقول الطبري في تفسير هذه الآية:" **أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم** إن الله عز وجل عمّ بقوله: ﴿الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ جميع من كان ذلك صفته فلم يخصص به بعضا دون بعض.[163]

أما النهي فموجه لأولئك الذين يؤمنون بعدم إمكانية التعايش وضرورة إقصاء من يخالفهم حتى تتحقق لهم الهيمنة والسيادة وهم في الآية كفار قريش. فقد أرادوا القضاء على الدعوة الجديدة في مكة وحالوا دون إيصالها لغيرهم، وقاموا بإخراج المؤمنين بها من ديارهم وأموالهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[164].

---

[161]- رواه الترمذي في حديث طويل وقال عنه حديث غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحراني، باب تفسير القرآن عن رسول الله، رقم 2962.
[162]- سورة الممتحنة:8.
[163]- الطبري، تفسير الطبري، ج28، ص 66.
[164]- سورة الممتحنة:9.

كما أكد القرآن في أكثر من موضع، أهمية ذكر السمات الايجابية التي يتسم بها بعض المخالفين من يهود ونصارى، أكبر دليل على إنصاف الإسلام وعدالته. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[165]. وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا﴾[166].

فقد يدفع الهوى الإنسان لظلم مخالفيه قولا أوفعلا بل والتشهير بهم ليصرف الغير عنهم. إلا أن نصوص الوحي قرآنا وسنة، اجتثت ذلك التوجه واعتبرته ظلما لا يبرره مسوغ.

والناظر في النصوص القرآنية التي عرضت آراء الكفار وأقوالهم وافتراءاتهم على الله عز وجل وعلى نبيه صلى الله عليه وسلم وغيره من أنبياء الله، يلحظ خلوها المطلق من التعرض لشخوص الكفار بالهمز أو اللمز أو التعريض المباشر لهم. بينما يتوجه الحوار القرآني إلى الأفكار ومناقشة الأقوال دون الخوض في الأشخاص. وهو أدب رفيع تجلت آثاره في السنة النبوية قولا وفعلا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[167].

والعدل والإنصاف منهجٌ دقيق يُمثّل جميع صور القسط والعدل مع القريب والبعيد، المخالف والموافق دون تمييز بين مسلم أو غير مسلم بل ينهى عن جميع صور الجور والظلم مع كلّ أحد. فمبدأ الظلم محرم بكل حال، فلا يحل لأحد أن يظلم أحداً مهما اختلف **معه**[168].

فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ

---

[165]- سورةالأعراف:159

[166]- سورة النساء: 135.

[167]- سورة المائدة: 8.

[168]- ابن تيمية، الاستقامة، تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، 1403هـ، ج2، ص247 ـ 247.

اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَلَيْس يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُم وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي فَقَالُوا بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا ".[169]

ويتضح هذا المعنى في العدل مع المخالف وذكر محاسنه في كلام النبي الكريم وذكره لمحاسن النجاشي وعدله وصدقه حين قال لهم:" إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه"[170]. والنجاشي كان نصرانيا آنذاك، وخرج المسلمون إلى الحبشة المسيحية دون أن يخطر ببال أحدهم أن يتساءل عن مشروعية اللجوء إلى نصراني والإحتماء به.

ولم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك شيئا من الحساسية التى قد يظنها البعض من أصحاب النظرة القاصرة عائقا تحول دون التعامل مع النجاشى بدعوى أنه غير مسلم فكيف نلجأ إليه ونطلب الحماية منه. وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم تلك المعاني وتشربوا بها، فلم يغمطوا مخالفيهم حقهم من الثناء لمجرد العصبية أو المخالفة في المعتقد.

ومن ذلك ما قَالَه الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ وكان عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فقال الْمُسْتَوْرِدُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوك"[171].

ومن مقتضيات العدل والإنصاف مع المخالفين قبول الحق منهم ومن غيرهم وهو ما يعرف اليوم بالموضوعية Objectivity وعدم التحيز والحيادية في عرض الحقائق أو عند الحديث عن الآخرين. فالحق ضالة المؤمن، يَقْبله من كل من قاله كائناً من كان. وقد ضرب النبي عليه

---

[169]– مسند أحمد، مسند جابر بن عبد الله، رقم 14425.

[170]- أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، 1997م،ج1، ص 240

[171]- رواه مسلم، الفتن وأشراط الساعة، رقم 5158.

الصلاة والسلام المثل الأعلى في قبول الحق من مخالفيه. ومن ذلك ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ قُتَيْلَةَ امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَيَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ".[172]

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ فَقَالَتْ لَهَا أَعَاذَكِ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَقَالَ نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ[173].

أما في مجالات تطبيق العدالة في علاقات الدول مع بعضها البعض أو ما يعرف اليوم بالعلاقات الدولية، فيقتضي أن تُبنى كافة العهود والمواثيق والاتفاقات الدولية على أساس كفالة العدالة لكافة الأطراف، وتحريم إلحاق الظلم بفئة، وإن كانت أقلية. وهذا يوفر ضمانة كبرى لكل مظلوم، فردًا كان أو جماعة أو أقلية أو شعبًا، لتبقى قيمة العدالة فوق أي مستوى.

ومما لاشك فيه أن إقرار العدالة هو أساس السلام وشيوعه في العالم.

ومما تجدر الإشارة هنا إلى أن الجهاد هو وسيلة لإقرار العدالة والسلام، وليس غاية في ذاته؛ سواء كان هذا الجهاد حربًا دفاعية أو هجومية؛ تقوم بها الدولة الإسلامية في سياق ممارستها لسياستها الخارجية.

---

[172]- أخرجه النسائي، سنن النسائين الأيمان والنذور، رقم 3713. أخرجه: أحمد 43/45، رقم 27093، والحاكم 297/4، وصححه ووافقه الذهبي.

[173]- صحيح البخاري. 1283. الجنائز. ما جاء في عذاب القبر.

ثانيا: المساواة

البشرية في عمومها أسرة واحدة ترجع في أصل خلقتها ونشأتها إلى نفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام أبو البشر. وقد قرر القرآن الكريم هذا المبدأ في مفتتح سورة النساء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[174]

من هنا جاءت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية إلى إحياء الشعور بالتعاطف الأخوي الإنساني، مؤكدة وشائج الترابط النسبي بين أفراد الإنسانية في شتى الأزمنة والعصور بما يدعم ذلك الترابط والتعاون المسوق إلى تبادل المنافع والخير وتحقيق المحبة والوئام للبشرية أجمع.

كما قرر القرآن الاختلاف كحقيقة إنسانية طبيعية، وتعامل معها على هذا الأساس. فالإنسانية واحدة وقد خُلقت من نفس واحدة. وهذه الوحدة ليست وحدة في الأصل فحسب بل في الهدف كذلك وهو التعارف.

والغاية من التقسيم إلى شعوب وقبائل إنما هي التعارف لا التخالف، والتعاون لا التخاذل، والتفاضل بالتقوى والأعمال الصالحة التي تعود بالخير على المجموع والأفراد، والله تعالى رب الجميع يرقب هذه الأخوة ويرعاها، وهو يطالب عباده جميعًا بتقريرها وصيانتها. فيقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[175].

وأكد النبي الكريم هذه المعاني طوال فترة حياته قولا وعملا وفي يوم فتح مكة عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ"[176]. فليس ثمة شرعية لتعصب

---

[174]- سورة الحجرات: 13.
[175]- سورة النساء:1
[176]- رواه الترمذي، باب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم 3193.

قومي أو تمييز عنصري أو عرقي. وعلى هذا ألغى الإسلام كل مصادر الفرقة والحقد والخصومة والنزاع بين الناس من أي دين كانوا. وكانت السيرة النبوية تطبيقا لهذه المبادئ.

فالاختلاف آية من آيات عظمة الله، ومظهر من مظاهر روعة إبداعه في الخلق. يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[177]. واختلاف الألسن واللغات المشار إليه في الآية لا يعني اختلاف اللهجات كوسائل للتخاطب والتفاهم والحوار فحسب، بل ينصرف إلى ما تتضمنه تلك اللغات والاختلاف في اللهجات من معاني وأفكار وتصورات.

فقد خلق الله الناس مختلفين إثنياً واجتماعياً وثقافياً ولغوياً، ولكنهم في الأساس "أمة واحدة" كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[178].. أي أن **اختلافاتهم على تعددها لا تلغي الوحدة الإنسانية فيما بينهم**.

من هنا كان الاختلاف الفكري بين بني الإنسان قديما قِدم الإنسان في هذه الأرض، ابتدأ معه حيث ابتدأ ينظر إلى الكون فيشده بعظمته وتأخذه الحيرة في إدراك كنهه وحقيقته[179]. فالإنسان بطبيعته السوية ذو استعداد وقابلية للتنوع والتغير المتواصل، الأمر الذي نجم عنه أشكال الحياة وتباين صور فهمها وطبيعة نظرتها إلى الكون والوجود، فالتنّوع والتعدد والاختلاف حياة الإنسانية وهو سرّ ارتقائها واستمراريتها.

ومع حتمية التنوع تكويناً وفطرةً، لابد من التأكيد أن هذا التنوع لا يعني بالضرورة التنافر المطلق أو التضاد المؤدي إلى نفي الطرف الآخر وإلغاء وجوده. وإنما يعني ضرورة الاعتراف والإيمان بالتعدد والتنوع لتحقيق التفاعل بين أشكال متنوعة من الصور والأفكار. فالتباين والاختلاف

[177]- سورة الروم: 22.
[178]- سورة يونس: 19.
[179]- محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، دار الفكرالعربي، بدون تاريخ، ص 7.

والتنوع ليست عوامل هدم بل هي في الحقيقة عوامل تحفيز فكري واستنفار ذهني تقوم على ركائزه حركة الحياة الإنسانية المتفاعلة.

ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا التفاعل أن تتلاقى الأفكار أوتتنازع وقد تتصارع كذلك، ومن هنا ينشأ الحوار والنقاش والجدال لعرض تلك الأفكار وطرحها. ولا يمكن أن يخلو بشر من الحاجة إلى تلك الأولويات الذهنية في طرح أفكاره والتصريح بتصوراته بقطع النظر عن طبيعة تلك الأفكار أو كيفية عرضه لها [180].

وفي ظل هذه الرؤية المبدئية تأتي قيمة المساواة بتطبيقاتها المتعددة؛ التي يجب أن تلتزم بها الدولة الإسلامية في سياستها الداخلية وفي علاقاتها الخارجية. يقول في لك السير توماس أرنولد:

"Again, the equality in Islam of all believers and the common brotherhood of all Muslims, which suffered no distinctions between Arab and non- Ara, between free and slave, to exist among the faithful, was an idea that ran directly counter to the proud clan-feeling of the Arab…..indeed, the fundementa principles in the teaching of Muhammad were a protest against much that the Arabs had hitherto most highly valued'[181].

إن **وحدة الجنس البشري تقتضي في نظر الإسلام المساواة التامة بين كافة أفراده وجماعاته وشعوبه**، من حيث إتاحة فرص متساوية للحصول على الحقوق الأساسية للإنسان وللتمتع بها؛ فإذا توفرت الفرص المتساوية أمام الجميع يكون التفاوت النسبي بينهم بعد ذلك راجعًا إلى ما يبذلونه من جهد وعمل، وإلى ما يحققونه من إنتاج متميزة، وإلى ما يملكونه من قدرات على التحصيل العلمي والتقدم الحضاري.

وعلى هذا **لم يعترف النبي الكريم في علاقاته الدولية بأية نزعة أو سياسة عنصرية تميز بين الشعوب على أساس الانتماء العرقي أو العنصري**. فلم يقبل بأي وضع ينتقص من الحقوق الأساسية للمسلمين، كما لم يدخل أو يشارك في أية علاقة دولية –في صورة معاهدة أو تحالف، أو اتفاقية... إلخ– تستهدف الإخلال بمبدأ المساواة، أو يكون من شأنها تكريس وضع ما من أوضاع التفرقة العنصرية، أو مساعدة جماعة أو دولة على ممارسة سياسة الاضطهاد ضد طائفة

[180]- زاهر عوض الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، بدون تاريخ، ص 27.

[181] - Arnold, p. 43.

أخرى. الأمر الذي يمكن أن يترتب عليه صراع أو نزاع أو حروب يمكن أن تودي بكافة أشكال السلم بين الدول.

ويتمتع كل مواطن بهذه المساواة أمام القانون، وهو أمر رباني لا يحتمل مساومة، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[182]. وهذه الآية الكريمة، تأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، مسلمين أو غير مسلمين، كما تقضي بأن يلتزم العدل في الحكم بين الناس كلهم، دون تمييز، بسبب اختلاف الدين، أو العنصر، أو الثقافة، أو الجنس، أو اللون. والمؤمنون مأمورون ديناً، أن يكونوا قوامين بالقسط في كل موقف، لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[183]. فلكل مواطن، الحق في التملك والإرث والبيع والشراء....تقول في ذلك الكاتبة كارن آرمسترونج :

" Social justice was therefore the crucial virtue of Islam. Muslims were commanded as their first duty to build a community (ummah) characterized by practical compassion, in which there was a fair distribution of wealth…"[184].

ولغير المسلمين فرصة للعمل، وحرية التوظيف للوظائف العليا القيادية، وقد بلغ بعض المؤرخين الغربيين حدّ الإعجاب، في بيان ما لاحظه من كثرة العمال غير المسلمين في الدولة الإسلامية. يقول آدم متز أحد مؤرخي الغرب:

" من الأمور التي نُعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فالحقائق التاريخية تشير على سبيل المثال وليس الحصر أنه، لما فتح المسلمون مصر أبقوا العمال البيزنطيين، وكان من هؤلاء شخص يدعى ميناس، كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من مصر، ومن الأشخاص المعروفين "أثناسيوس" الذي شغل بعض مناصب الحكومة في مصر

[182]- النساء:58.
[183]- المائدة:8.

[184] - Karen Armstrong, Islam a short history, ibid,p. 6.

زمن الأمويين حتى بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الإسكندرية. وكان لمعاوية بن أبي سفيان كاتب نصراني اسمه سرجون. وقد تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرة، منهم نصر بن هارون وعيسى بن نسطورس.. واستمر الحال على ما هو عليه إبان الدولة العثمانية حيث كانت تُسند الوظائف المختلفة إلى غير المسلمين وقد جعلت أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الأجانب من النصارى"[185].

لقد تمّت ترجمة هذه القيم الحاكمة إلى ممارسات فعلية في التصرفات الفردية، والسلوكيات الاجتماعية، وفي السياسات والعلاقات الدولية التي بناها النبي الكريم وسار على نهجه فيها من تبعه من الخلفاء الراشدين.

وروح التسامح في الإسلام مبدأ أصيل ينبثق من مبادئه التي تلغي التعسف والتسلط على المخالفين وتمحو آثار الإحنة على طبقة أو جنس وتكرّس إشاعة الود والتراحم بين بني البشر لتنقية جوّ المجتمع من الشحناء والتناحر العنصري البغيض.

والتسامح في الإسلام يعني أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقا، وأن تكون له الحرية في ممارسة شعائر دينه الذي اختاره كما يشاء، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء[186].

وروح التسامح أساس يظهر في حسن المعاشرة ولطف المعاملة ورعاية الجوار وسعة المشاعر الإنسانية من البرّ والرحمة والإحسان وهي أمور لا تستقيم الحياة الإنسانية بدونها خاصة في المجتمع الواحد والأمة الواحدة. وقد مدت تلك الأسس جذورها عمقا في التاريخ الإسلامي.

فقد أتاح المسلمون للعناصر المتميزة من كافة الفئات، احتلال مواقعهم الاجتماعية والوظيفية في إطار من مبدأ تكافؤ الفرص. الأمر الذي أدى إلى إسهام غير المسلمين في صنع

---

[185]– آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرين نقله إلىالعربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الطبعة الثالثة، 1957م، ج1، ص 57.

[186]– علي حسن الخربوطلي، الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة، الكتاب التاسع والأربعون، 1969م، ص 95.

الحضارة الإسلامية وإغنائها، كما فُتح الطريق أمامهم للوصول إلى أعلى المناصب، بدءاً من الكتابة في الدواوين وانتهاء بمركز الوزارة نفسه. وأُتيح لأبناء الأديان والمذاهب الأخرى أن يتحركوا في ساحات النشاط الاقتصادي والمالي بحرية.

وشهد بلاط العباسيين مناقشات كتلك التي جرت في بلاط معاوية وعبد الملك، وقد ألقى تيموتاوس بطريك النساطرة في سنة (781م) دفاعاً عن النصرانية أمام المهدي، لا يزال محفوظاً نصه إلى اليوم, كذلك تحدّرت إلينا رسالة للكندي تصرح أنها بيان لمناقشة جرت سنة (819م) في حضرة المأمون في مقابلة بين محاسن الإسلام والنصرانية[187]..

وعلى هذا أقام المسيحيون واليهود في مزارعهم ومنازلهم الريفية، وتمسكوا بتقاليدهم الثقافية، وحافظوا على لغاتهم الأصلية؛ فكانت لهم الآرامية والسريانية لغة في سوريا والعراق، والإيرانية في فارس، والقبطية في مصر... وفي المدن تقلد النصارى واليهود مناصب هامة في دوائر المال والكتابة والمهن الحرة، وتمتعوا في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية، ونالوا كثيراً من التساهل والعطف.

لقد انعكست هذه القيم على الحياة في الدولة الإسلامية لقرون طويلة. في التعامل مع غير المسلمين، ممن يعيشون في الدولة الإسلامية، وتربطهم بها روابط الذمة والعهد، من أهل الكتاب. فالإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية، ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع مجفوين، معزولين، أو منبوذين، إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة، والخلطة، فيجعل طعامهم حلّا للمسلمين، وطعام المسلمين حلّاً لهم كذلك، ليتم التزاور، والتضايف، والمؤاكلة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة، والسماحة.

ومما لاشك فيه أن هذا التعامل، يقود إلى السلام الحقيقي بين أفراد المجتمع والدولة، فالأصل في العلاقات، هو العدل والسلام. وحالة السلم العامة هذه لم يغيرها في واقع المجتمع

---

[187]- نقلاعن عماد الدين خليل، المسلم والآخر ..رؤية تاريخية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 33، واشنطن.

النبوي إلا وقوع الاعتداء الحربي، وضرورة ردّه، أو خون الخيانة بعد المعاهدة، وهي تهديد بالاعتداء، أو الوقوف بالقوة، في وجه حرية الدعوة، وحرية الاعتقاد.

عن علي بن أبي طالب أَنَّ يَهُودِياً كَانَ لَهُ عَلَى رَسُولِ الله دَنَانِيرَ فَتَقَاضَى النَّبِيُ صَلَى اللهُ عَلَيه وَسَلَّم فَقَالَ لَهُ: مَا عِندِي مَا أُعطِيكَ قَالَ فَإِنِّ لاَ أُفَارقَك يَا مُحَمد حَتى تُعطِيَنّي قَالَ إذاً اجلِس مَعَك فَجَلسَ مَعهُ فَصلَّى النّبِيُ صلى الله عليه وسلم الظُهرَ وَالعَصرَ وَالمغرِبَ والعِشَاء والغدَاة وَكَانَ أصحَابُ النّبي يَتهدَدون اليهوديَ ويتوعدونه فقالوا يا رسول الله يهودي يحبسك قال: **منعني ربي ان اظلم معاهدا ولا غيره** فلما ترجل النهار أسلم اليهودي وقال شطر مالي في سبيل الله أما والله ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة محمد بن عبد الله مولده بمكة ومهاجره بطيبة وملكه بالشام ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا متزين بالفحشاء ولا قوال للخنا"[188].

وعن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قالا جاء أعرابي الى رسول الله فقال ان قومي أسلموا فزادهم الاسلام فقرا فالتفت رسول الله الى رجل كان دفع اليه نفقة فقال قد أنفقت ما كان معي فقال يهودي خلف رسول الله هذا رجل يعطيك ورقا يسلفك في تمر حائط كذا وكذا فقال رسول الله لا تسمي لك حائطا ولكن تسلفنا في تمر مسمى في كيل معلوم الى أجل معلوم فبايعه اليهودي ثم حل ورقا معه فقال رسول لله ادفعها الى الأعرابي الحق فأغث بها قومك فخرج رسول الله في جنازة فلما وضع الميت في قبره وحثوا عليه قام اليهودي فقال يا محمد ألا تقضين تمري فوالله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب الا تمطلون الناس بحقوقهم فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه والله لولا مجلسه لوجأت أنفك، فقال رسول الله يا عمر أنت الى غير هذا أحوج **أن تأمره فيحسن طلبي وتأمرني فأحسن قضاءه** . انطلق معه الى حائط كذا وكذا وهو الذي كان أراد من رسول الله فأبى أن يسميه له فأدخله فقل لفلان يكشف له عن الطعام فيريه اياه فان رضيه فمره فليوفه ماله وكل له كذا وكذا صاعا بشتمك

188– أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، مرجع سابق،ج2، ص 678. رقم 4242.

اياه فانطلق به عمر فأراه فرضي فكال له كما أمر به رسول الله فقال اليهودي لعمر: انه **لم يكن بقي شيء مما وجدنا في كتابنا مما وصف لنا موسى عليه السلام الا قد رأيناه في محمد الا الحلم فقد رأيناه الآن منه فأنا أشهدك أني أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله** وأشهدك أن نصف ما أملك صدقه على من آمن بمحمد فقال عمر انه قد حقت علي نصيحتك لا يسعهم كلهم ولكن اجعله لمن مع رسول الله ففعل ثم ان اليهودي مات فخرج رسول الله فحمل سريره على عاتقه الأيمن وحمل علي أيضا سريره على عاتقه الأيسر"[189].

ثالثا: الحرية

تنبثق قيمة الحرية من القيم الأخرى الحاكمة في القرآن والسنة، وتقوم على أساس الاعتراف حرية البشرة الفطرية، فالناس أحرار، واستلاب الحريات بكافة صورها أمر طارئ حادث، بحكم النزعات العدوانية والرغبة في السيطرة على الآخرين وتحقيق مصالح محددة.

وهي حرية منضبطة بقيم العدل والمساواة والأخلاق. من هنا كانت سياسة النبي الكريم – على مستوى الأفراد والدول– عدم إكراه أحد على الدخول في الإسلام، كما أنه ليس من أهدافها إكراه أحد على تغيير معتقده الديني. وجاءت عشرات النصوص القرآنية مؤكدة لهذه القيمة الكبرى. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[190]. ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ﴾[191]، وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[192].

[189]- رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين وقا ل عنه صحيح الإسناد، انظر: المستدرك على الصحيحين، ج2، ص 37. صحيح ابن حبان، ج1، ص 521. علي بن ابي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1407هـ، ج8، ص 240. ورواه البيهقي في السنن الكبرى، مرجع سابق،ج6، ص 52. وانظر كذلك هذه الرواية في: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، مرجع سابق،ج1، ص 166

[190]- سورة يونس: 99.

[191]- سورة البقرة:

[192]- سورة الكافرون:

فالإسلام دين يستوعب مبدأ التنوع العقائدي دون أن يكون لهذا التنوع أي مساس بالحقوق السياسية والاقتصادية والإنسانية لأصحابها. بل جميع هذه الحقوق مكفولة بمقتضى روح الدين وجوهره الثابت.

وعلى الرغم من خاتمية الدعوة الإسلامية إلا أنها خاطبت العقل والفطرة السليمة غير المعاندة مع تأكيد قضية الاقتناع بعد إلقاء البيّنة، والإدراك، وليس فيه أدنى توجه نحو الإكراه والغصب.

ولعل هذا الهدف أقرب إلى التحقيق وأدعى إلى التعايش على أساس هذه المشتركات، وخاصة بين الأديان: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[193]. ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[194]..

ولا يعني قبول الإسلام بوجود أصحاب الأديان الأخرى والملل المخالفة، اقراره للكفر مطلقا، بل يعني إيقاعه المسئولية الشخصية لكل فرد عن اختياره كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[195].

فليس ثمة سبيل ناجح لدعوة الناس إلا عن طريق الحوار الهادئ الحرّ والله عز وجل هو الذي يتولى الفصل بين العباد يوم القيامة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[196]. فالحرية الممنوحة للإنسان حرية تتضمن مسئوليته الكاملة عن اختياره بعد عرض الحقائق المدعمة بالبراهين والأدلة أمامه.

[193]- سورة آل عمران:64.

[194]- سورة العنكبوت:46.

[195]- سورة الكهف: 29.

[196]- سورة الحج: 17.

وقد **رفض النبي عليه الصلاة والسلام أن يعاقب أحدا على اختيار دينه على الإسلام، كتابياً كان أو مشركاً.**

ومن ذلك أن سهيل بن عمرو[197] حين فتح المسلمون مكة أرسل ابنه عبد الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب له جواراً فلما التقى عبد الله بالنبي عليه الصلاة والسلام فقال: تؤّمن أبي يا رسول الله؟ قال نعم: هو آمن بأمان الله فليظهر لعمري أن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام.. فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره فكان يقبل ويدبر وهو آمن دون أن يسلم بل وخرج بعد ذلك في جيش النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين وهو على شركه حتى أسلم بعد ذلك في الجعرانه[198].

وقد ذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك حين قرر احترام حرية الآخر في الاختيار حتى ولو كان ذلك الاختيار خطأ. وجاءت الآيات القرآنية مكرسة لهذا المبدأ مقررة له. قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ.قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[199].. فوصف اختيار النبي عليه الصلاة والسلام للحق وهو على حق بأنه اجرام (في نظرهم). ووصف اختيارهم للباطل وهم على باطل بأنه مجرد عمل، ثم ترك الحكم لله. وفي هذا أعظم أدب للتحاور مع المخالف. إضافة إلى ما تحمله الآية من تقرير لاحترام حرية الاختيار و ليس احتراماً للخطأ كما قد يتوهم البعض.

وبلغت قيمة الحرية الدينية مبلغا عظيما إلى حدّ ترك حرية الاختيار للمخالفين في اعتقاد ما يريدون بعد تبليغ الدعوة لهم، وتأكيد مبدأ عدم الإكراه على الاعتقاد أو الدخول في الإسلام

---

[197]- سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر. ويكنى أبا يزيد. وكانت له صحبة، رحل إلى الشام للغزو في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يقول: سمعت رسول الله يقول مقام أحدكم في سبيل الله ساعة خير من عمله عمره في أهله قال سهيل بن عمرو فأنا أرابط حتى أموت ولا أرجع إلى مكة أبدا فلم يزل بالشام حتى مات بها في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم. أنظر ترجمته في: محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ، ج7، ص 404.

[198]- أبوعبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفعبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج3، ص 317. السيرة الحلبية، ج3، ص 56.

[199]- سورة سبأ: 25-26.

قسرا. فالإسلام منذ لحظة ظهوره لم تكن وسيلته إلى الدعوة القهر والإكراه وحمل الناس بالعنف بكل أنواعه على اعتناقه، لأنه لم يضق ذرعا باختلاف الناس في المعتقد.

وكان التسامح والتعايش شعارا واقعيا يعيشه المسلمون وغيرهم في رحاب الأمة الواحدة والمجتمع الواحد، امتثالا لنصوص الوحي وأوامره.

يقول المؤرخ كارليلCarlyle :

" Muhammad iS the spark fallen from heaven to set alight the apparently, unnoticeable sand of the Arabian desert, to gather together the poor Bedouin tribes into a unity of irresistible power, the sand proves explosive powder, blazes heaven high from Delhi to Grenada"[200].

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ.لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[201] . معناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر وإنما بناه على التمكن والاختيار، لأن الله تعالى لما بيّن دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للعذر وقال بعد ذلك أنه لم يبق إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر، إلا أن يقسر على الإيمان ويجبر عليه وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء. إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان"[202]. ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. فأمر سبحانه وتعالى الرسول والمسلمين أن تكون الدعوة طيبة، تخاطب الناس في رفق لمحاولة إقناعهم، لا إكراه فيها ولا تهديد، وأن يكون حوارهم مع أهل الكتاب هادئاً لا يجادلونهم إلا بالتي هي أحسن، فإن آمنوا فقد اهتدوا، وإن تولوا فالآمر متروك لله سبحانه وتعالى.

كل ذلك يثبت أن حرية العقيدة كانت من أبرز ما أوجبه القرآن والسنة. بل إن **الفتوحات الاسلامية ذاتها،كانت تهدف إلى تحطيم سلطات حكومات متعصبة وقفت دون حريات**

---

[200] - Francesco Gabrieli, Muhammad and the Conquests of Islam, World University Library, Italy, 1968. p.17.

[201]- سورة الغاشية: 21-22.

[202]- محمد فتح الله الزيادي، انتشار الإسلام، دار قتيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1415هـ/1995م، ص 35.

شعوبها في اعتناق الدين الذي تريد فكانت تلك الحكومات تجبر شعوبها على اعتناق دين الملك.

وما جاء في القرآن الكريم، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، من ذكر أقوال المخالفين من غير المسلمين، على اختلاف مللهم، ومناقشة هذه الأقوال بالحجة، والبرهان، دليل واضح على هذه الحرية، كما هو دليل على امتداد بقاء غير المسلمين، وسماحة التعامل معهم..

والواقع التاريخي، يثبت أنه على توالي القرون، في تاريخ الدعوة الإسلامية، لم يحدث أن أكره المسلمون غيرهم على الدين.

يقول ول ديورنت في كتابه:(قصة الحضارة):" لقد كان أهل الذمة، المسيحيون، والزردشتيون، واليهود، والصابئون، يتمتعون في عهد الخلافة الأموية، بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية، في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم، ومعابدهم، ولم بفرض عليهم أكثر من أداء ضريبة عن كل شخص، تختلف باختلاف دخله"[203].

ويستخدم الفقهاء في كثير من الأحيان اصطلاح أهل الذمة وهم المعاهدون من أهل الكتاب ومن جرى مجراهم الذي أُعطوا عهداً يأمنون فيه على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ودينهم. وسمّوا ذميّين لأنهم أقاموا مع المسلمين على أساس العهد ولهم ذمة أي عهد وأمان. فهم يتمتعون بالحماية الكافية لأنفسهم وأموالهم ويلتزمون بأحكام الإسلام المتعلقة بالأمن والنظام في ديار المسلمين كالمعاملات ونحوها، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين إلا فيما يتعلق بدينهم وعقيدتهم فإنهم يقرون عليها[204].

[203]– ويل ديورانت، أبطال من التاريخ.. مختصر قصة الحضارة، ترجمة: سمير الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2003م.

[204]- بتصرف عن علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1982م، ج9، 433. الشربيني، مغني المحتاج، ج4، 243. ابن قدامة، مرجع سابق، ج9، 337.

وعقد الذمة هو العقد الذي يتم بين السلطة الاسلامية وغير المسلمين، يكتسب بموجبه هؤلاء حق الأمان الدائم في الدولة الاسلامية ويتولى المسلمون حمايتهم والدفاع عنهم مقابل ضريبة شخصية يدفعونها تسمى الجزية[205].

والجزية ليست مالا مقابل عدم دخولهم في الإسلام وبقاءهم على دينهم، بل هي واجب مالي فرض على غير المسلمين مقابل إعفائهم من الواجب العسكري في الدفاع عن الدولة، فإذا تحملوا واجب الدفاع عن الدولة، سقط عنهم.

يقول السير توماس أرنولد في توضيح معنى الجزية هذا:

‘ This tax was not imposed on the Christians as some would us think, as a penalty for their refusal to accept the Muslim faith, but was paid by them by common with the other dhimmis or non- Muslim subjects of the state whose religion precluded them from serving in the army, in return for the protection secured for them by the arms of the Muslamans”[206].

فالمدخل لصياغة العلاقة بين هذا التنوع العرقي والقومي والجنسي.. هو التعارف الذي يفتح باب التلاقي والتعايش، فالحركة الكونية حركة انسجام وتناسق، والحوار هو اللغة التي ينبغي لها أن تسود في دنيا العدالة.

وعلى هذا الأساس تُفهم الرسائل التي أرسلها النبي الكريم للملوك ورؤساء الدول. ومن ذلك رسالته صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة والتي جاء فيها:" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة جملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده .."[207].

---

[205]– محمد ضياء الحق، أحكام المعاهدات الدولية في الشريعةالاسلامية والقانون الدولي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الامارات العربية المتحدة، السنة الثانية عشرة، العدد السادس والأربعون، يوليو/ تموز 2004م، ص 45.

[206] - Arnold,p. 61.

[207]- أبو بكر السيد البكري، إعانة الطالبين، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ج3، ص 147.

والتأكيد على القواسم المشتركة يؤكد منهج النبي الكريم في توطيد السلام وتحقيق مبدأ التعارف بين الناس وبقاء المحبة من خلال عدالة التعامل ونزهة السلوك. وعلى هذا الأساس أرسالنبي عليه الصلاة والسلام أسس التعايش معهم لأهمية ذلك في بناء وتأسيس الاستقرار الذي هو من أهم عوامل النهوض والبناء.

ورد في كتب السيرة الكتاب الذي أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي مع عمرو بن أمية حيث جاء فيه:

" لما وجّه رسول الله رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام وجه إلى النجاشي عمرو بن أمية فقال له يا أصحمة: إن عليّ القول وعليك الاستماع إنك كأنك في الرقة علينا منا وكأنا في الثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور وفي ذلك وقع الحز وإصابة المفصل وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم وقد فرق النبي رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمنك على ما خافهم عليه لخير سالف وأجر ينتظر فقال النجاشي أشهد بالله أنه للنبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب"[208].

كما سار النبي عليه الصلاة والسلام على ذات الأسلوب مع قيصر ملك الروم حين أرسل إليه دحية الكلبي، مما يؤكد أن هذا الأسلوب في الاحتجاج بما يكون لدى المخالف حجة، هو الأسلوب الأنجع في التوصل إلى الحق المرتجى[209].

ولم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام أو يحتّج على أهل الكتاب إلا بما ورد في كتبهم من الحق. وقد أدرك هذا الضابط رسله الذين أرسلهم إلى الملوك لمحاورتهم. ومنهم ولما وجه رسول الله رسله إلى الملوك، ومنهم حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس صاحب الإسكندرية بكتاب جاء فيه:

" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بداعية الإسلام اسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين

---

[208]- أبو الربيع سليمان الكلاعي، مرجع سابق، ج2، ص 390.

[209]- أنظر الكتاب بصيغته المطولة في: المرجع السابق، ج2، ص 379.

فإن توليت فإن عليك إثم القبط يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون"[210].

ثم دار بين حاطب والمقوقس الحوار التالي:" إن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم منه النصارى ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل وكل نبي أدرك قوما فهم من أمته فالحق عليهم أن يطيعوه فأنت ممن أدركه هذا النبي **ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به** ".

لقد أدرك الصحابة وهم حملة رسالة الإسلام ما انطوى عليه هذا الدين من أصول وقيّم وقواسم مشتركة تربط بين أهل الأديان كلها بل بين الإنسانية كلها من وشائج الإخاء والمحبة، فجاءت حوارتهم تعكس تلك القناعات السامقة.

وتأسيسا على هذا أجاب حاطب عن تساؤلات المقوقس بأن مثل محمد صلى الله عليه وسلم عند الله كمثل عيسى في أن الله جعلهما رسولين لهداية الخلق كغيرهما من الأنبياء. فلما لزمت الحجة المقوقس فقال إن لنا دينا لا ندعه إلا لما هو خير منه، أجاب حاطب بأن ما يدعو الإسلام إليه هو ما دعاك دينك إليه. وفي هذا غاية الفهم العميق في التحاور وإقامة الحجة النيرة التي أوردها في كلمته ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به.

كما التزم النبي الكريم في حواره مع الآخرين، بمبدأ الحوار العلمي بعيداً عن الجدل بالباطل: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[211]. والتزام العلم يسع الناس جميعاً، كما أن الادلاء بالحجج والبراهين يستميل العقول والقلوب، ويفتح الأبصار والبصائر على الحق المبين، أما الجدال بالباطل فمضيعة للوقت

[210]- أبو الربيع سليمان الكلاعي، مرجع سابق، ج2، ص 394.
[211]- سورة آل عمران: 66.

وإزدراء بالعقل ومجافاة للحكمة، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[212].

كما التزم بمبدأ الاحتجاج بما يحتج به المتحاور معه ويؤمن به، فالقواسم المشتركة هي نقطة الانطلاق للتحاور مع الآخرين، وهي من أقرب الوسائل وصولا إلى ذاته ودنوا منها وبناء على هذا فقد أثمرت تلك الحوارات جميعا نتائج طيبة.

ومن ذلك أيضا ما كتبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى ضغاطر الأسقف حيث جاء فيه:" سلام على من آمن أما على أثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية وإني أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون والسلام على من اتبع الهدى"[213].

وقد كانت تلك الحوارات الإيجابية ذات أثر بعيد في مستقبل الدعوة الإسلامية عندما انساح المسلمون في الأرض يدعون تلك الشعوب إلى الله، فقابلها هؤلاء بالوقوف مع المسلمين في وجه الظلمة من الرومان حتى أتيح لهم الدخول في الإسلام لاحقا عن إيمان وقناعة بدون إكراه[214]. فهذه الرسائل تعارض فكرة إكراه أحد على الدخول في الدين، وإعطاء الإنسان حق الاختيار وتحمل مسؤولية اختياره.

النبي الكريم والوفاء بالعهود والمواثيق

وضعت قيم العدالة والحرية والمساواة الحاكمة في صورة عقود أو عهود ومواثيق، وجاء الأمر صريحًا ومباشرًا –بأكثر من صيغة وفي أكثر من موضع في آيات القرآن الكريم– باحترامها والوفاء بالعقود والالتزامات على أكمل وجه، والتحذير من الغدر والخيانة ونقض العهد.

وقد عُرف عن النبي عليه الصلاة والسلام الوفاء والأمانة والرحمة بالمظلومين قبل البعثة، ومن ذلك ما ذكرته كتب التاريخ أيضا من حلف الفضول الذي شارك فيه النبي عليه الصلاة والسلام.

---

[212]- سورة الحج:8.
[213]- محمد بن سعد بن منيع، مرجع سابق، ج1، ص 276.
[214]- محمد الصادق عرجون، مرجع سابق، ج1، ص 262.

فقد تحالفت قريش على أن لا يدعوا بمكة كلها ولا في الأحابيش مظلوما يدعوهم إلى نصرته الا انجدوه حتى يردوا إليه مظلمته أو يبلغوا في ذلك عذرا وعلى ان لا يتركوا لاحد عند أحد فضلا الا اخذوه وعلى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر[215].

وقد أشار إلى ذلك بعد قدومه المدينة بسنوات فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: شهدت حلف المطيبين من عمومتي وأنا غلام فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه. وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ أَوْفُوا بِحِلْفِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ يَعْنِي الْإِسْلَامَ إِلَّا شِدَّةً وَلَا تُحْدِثُوا حِلْفًا فِي الْإِسْلَامِ[216].

من هنا كانت أول وثيقة تفصيلية، بين المسلمين وأهل الكتاب، تضمن لليهود ولكافة المواطنين في المدينة حرية الاعتقاد، والفكر، وحقوق المواطنة الكاملة، هي الوثيقة المعروفة بوثيقة المدنية.

" ويهود أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ..وأن بطانة يهود كأنفسهم إلا من ظلم وأثم. فإنه لا يوتغ(أي يهلك) إلا نفسه وأهل بيته...ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ...ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ..على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ..وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.."[217].

وقد التزم البعض من اليهود بادئ الأمر في الدفاع عن المدينة، وذكرّوا بعضهم البعض بما تضمنته الصحيفة فجاء على لسان مخيريق أحد أحبارهم:" يا معشر يهود والله لقد علمتم أن نصر محمد

---

[215]- أخبار مكة، ج5، ص 192.

[216]- رواه الإمام أحمد، مسند احمد، السير عن رسول الله، ما جاء في الحلف، رقم 1511.

[217]- محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة، بيروت، 1990م، ص 15-21.

عليكم لحق، قالوا إن اليوم يوم سبت قال: لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء"[218].

ومن ذلك أيضا، عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران: وهو عهد ضمن لنصارى نجران، الأمان على أنفسهم، وأموالهم، وعشيرتهم، وأماكن عبادتهم، وألا يغير أسقف، ولا راهب، ولا كاهن.

جاء في معاهدة نجران: " لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض: جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير..أن أحمي جانبهم وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وصلواتهم ومواضع الرهبان، ومواطن السياح...وأن أحرس دينهم وملتهم أينما كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي..لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وعلى المسلمين ما عليهم ..حتى يكونوا للمسلمين شركاء، فيما لهم وفيما عليهم .."[219].

وقد بلغت هذه الصحيفة في سطورها مثالاً تنظيرياً صدّقته الوقائع والحوادث على مدى التاريخ الإسلامي في الاعتراف بالمخالف في الدين والمعتقد. بل والقبول به وتكريمه وتمكينه من خصوصياته والاندماج معه، ما لم تبلغه وثيقة أخرى عبر التاريخ الإنساني مع تميز يُضاف إليها من خلال التنوع والاختلاف المعترف به للمخالف في إطار وحدة الأمة وليس على أنقاض الدين وهو أمر لم تعرفه أروقة الوثائق الوضعية مطلقا[220].

---

[218]- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1411هـ، ج3، ص 89. ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، بدون، ج4، ص 36. وقد ذكر الألباني رحمه الله أن هذه المعاهدة ذكرها ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد وقد نقلها عنه ابن كثير ولم يزد عليه في تخريجه شيئا على خلاف عادته مما يدل على أنهخا ليست مشهورة عند أهل العلم والمعرفة بالسيرة والأسانيد فلا يحتج بها لأنها بدون إسناد وهي معضلة. أنظر: الألباني، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة في الرد على جهالات البوطي وكتابه فقه السيرة، مكتبة الخافقين، دمشق، ص 25-26. إلا أن هذه المعاهدة وكتابة الصحيفة قد ثبتت بأحاديث صحيحة منها ما أورده أبو داود في سننه. وانظر في ذلك: حميد الله، مرجع سابق.

[219]- محمد حميد الله ، مرجع سابق، ص 123- 128.

[220]- بتصرف عن محمد عمارة، في فقه الحضارة الاسلامية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2003م، ص 144-145.

ولما آلت الخلافة إلى أبي بكر رضي الله عنه، فإنه أكد في عهدٍ منه لأهل نجران، أنه أجارهم بجوار الله، وذمة النبي محمد رسول صلى الله عليه وسلم على أنفسهم، وأرضهم، وملتهم، وعبادتهم، وأساقفتهم، ورهبانهم، وفاءً لهم بكل ما ورد في العهد النبوي لنصارى نجران.

فقيمة الحرية تتصل بشكل مباشر بالعلاقات مع الشعوب والأمم الأخرى. فالوصاية على المعتقد الديني إهانة لكرامة الإنسان، وإهدارًا لحقه في الحرية؛ بل وتعديًّا على إرادة الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا ل**م تتبن السياسة الخارجية في الدولة التي أقامها النبي الكريم مبدأ القسر العقائدي سواء كان ذلك على الصعيد المحلي الداخلي، أو على الصعيد الخارجي الدولي**.

وقد نظر الإسلام إلى الوفاء بالعهد على اعتبار أنه فضيلة إنسانية لا تختص بجنس او عقيدة أو جماعة فالعهد مع الكافر كحرمته مع المسلم وهو مع الأعداء كقداسته مع الموالين. فلا يحل عقدة الوفاء بالعهد إلا بسبب موجب من نحو خيانة أو غدر أو ممالاة عدو للإسلام والمسلمين. قال تعالى: ﴿وأَوفُوا بِالعَهدِ إنَّ العَهدَ كَاَنَ مَسئولاً﴾[221].

وقد امتثل المسلمون لهذا الأمر الإلهي فاعتبروا كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء به بمقتضى ذلك العهد والعقد. وثمة تأصيل معرفي لقيمة الوفاء بالعهد ولأخلاقيات الالتزام به، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[222]

[221]- سورة الإسراء، الآية 34.
[222]- سورة الرعد: 20-24

فالوفاء بالعهود والمواثيق يعد عاملاً أساسيًّا وحاسمًا في عملية التفاعل المنظم، في العلاقات الداخلية والخارجية على السواء. وهي أداة من أدوات ترسيخ مبادئ التعاون والتعايش، وعاملاً أساسيًّا لترسيخ ثقافة السلام التي أرادها النبي الكريم.

يقول في ذلك السير توماس أرنولد:

" Muhammad himself had entered into treaty with several Christian tribes, promising them his protection and gurARanteeing them the free of their religion and to their clergy undisturbed enjoyment of their old rights and authority'[223].

ومعاهدات النبي صلىالله عليه وسلم ومواثيقه مع المخالفين من اليهود والمشركين كما جاء في صلح الحديبية وغيره، كثيرة. وكانت تلك المعاهدات تنص على التعاون بين الطرفين وحسن الجوار معهم وتحقيق المصالح للمتعاقدين لحماية المجتمعات وتحقيق الأمن والاستقرار وإشاعة السلام والعيش الكريم للإنسان مطلقا. كما دخل النبي الكريم في مواثيق مع قبائل عربية دخلت في الإسلام، وكفل لهم فيها حفظ الأنفس والأموال والأعراض.

وعلى هذا كان الوفاء بالعهود والاتفاقيات والمعاهدات المبرمة بين المسلمين ومخالفيهم، أمراً ربانياً، ينبغي تنفيذه مهما كانت سجايا المخالف ومهما عرف عنه من عدم الوفاء والإنصاف. وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في سياق النعي على الناقضين عهودهم مع الناس.

ففي الحديث المتفق على صحته:" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ"[224].

[223] - Arnold, Ibid, pp; 47-48.

[224]- رواه مسلم، باب الإيمان، رقم 88.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ[225].

ولم تتغير تلك المواقف والمبادئ الأصيلة إزاء المخالف مطلقا، فهي تشكل منظومة قيّمية لا يمكن تغييرها إلا ما كان من موقف المخالف ذاته بإظهار العداء ونقض العهود والمواثيق وخيانتها.

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تحقيق تلك المبادئ، فكان من أوائل أعماله عليه الصلاة والسلام حين قدم المدينة، كتابة صحيفة المدينة.

وكان اليهود فيها ثلاث طوائف حول المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة. ولم يتغير موقفه منهم مطلقا إلا عندما بادروه بالخصومة والغدر ونقض العهد الذي بينهم وبينه. فحاربته بنو قينقاع بعد ذلك بعد بدر، وأظهروا البغي والحسد فسار إليهم وحاصرهم خمسة عشر ليلة وهم أول من حارب من اليهود. وتحصنوا في حصونهم فحاصرهم أشد الحصار وأخرجهم من المدينة.

وكذا الأمر بالنسبة ليهود بني النضير فقد نقضوا العهد وأرادوا قتله عليه الصلاة والسلام لإنه أتاهم مع بعض أصحابه في ديارهم يستعينهم في دية العامريين، فنزل الوحي بذلك وأطلعه على ما همّوا به من سوء ونجّا الله نبيه صلى الله عليه وسلم من كيدهم. ونزلت الآيات فيهم: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[226].

وعلى الرغم من خيانتهم الواضحة وخروجهم السافر على قيّم الوفاء واحترام العلاقات الإنسانية، إلا أن الآية القرآنية حضّت النبي عليه الصلاة والسلام بالبقاء أنموذجا للفضائل الإنسانية المتمثلة في العفو والصفح. يقول الطبري في تفسيرها:" وهذا أمر من الله عزّ ذكره نبيه محمدا صلى الله

---

[225]- رواه البخاري، باب الإجارة، رقم 2109. رواه ابن ماجه، سنن ابن ماجه، الأحكام، رقم 2433.
[226]- سورة المائدة، الآية 13.

عليه وسلم بالعفو عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل واصفح عن جرمهم بترك التعرض لمكروههم فالله يحب من أحسن إليه..".

وعليه فقد وضع النص القرآني والسلوك النبوي من خلال هذه الواقعة تشريعا في التعامل مع المخالفين حتى وإن بدرت منهم أقسى الإساءات ليؤكد أصالة التسامح والإحسان في المعاملة في التشريع الإسلامي.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؓأَنَّ يَهُودِيَّةً أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا فَجِيءَ بِهَا فَقِيلَ أَلَا نَقْتُلُهَا قَالَ لَا فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[227].

وقد أرشد الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به إلى ما يجب أن يكون من أخلاقهم في إقامة العهد والعدل المطلق الذي يتساوى أمامه الناس جميعا. فجعل المحافظة على العهد واجبة الرعاية ما دام المعاهدون مهما كان أمرهم محافظين عليه. فإن أظهروا نقضه وجب على أهل الإيمان أن يعالنوهم بنبذ عهدهم إليهم وأنهم لم يعودوا سلما لهم بل هم حرب عليهم فليرتادوا لأنفسهم وليستعدوا حتى يتساووا معهم ف يالعلم بفك عروة العهد وهذا اقصى ما يمكن تصوره في مراتب العدل[228].

وعلى هذا أنذرهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يخرجوا من المدينة ولكنهم أبوا ذلك فحاصرهم حتى استسلموا، على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح. وأما قريظة فقد نقضوا العهد في غزوة الخندق واشتركوا مع المشركين ضد المسلمين، فنازل

[227]- رواه البخاري، قبول الهدية من المشركين، حديث رقم 2424. وأنظر حول ذلك: أبو محمد عبد الله بن محمد الأصبهاني، أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه، تحقيق: صالح الونيات، دار المسلم، الرياض، 1998م، ج1، ص 256.

[228]- حول هذه النقطة انظر: محمد الصادق عرجون، الموسوعة في سماحة الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الثانية، 1404هـ/ 1404م، ج1، ص 365.

حصونهم وحصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ورضوا به، فحكم فيهم أن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال[229].

وقد دونت الأحاديث والروايات في السنة النبوية حوادث الغدر والخصومة التي بادر بها اليهود بمختلف قبائلهم، فكان من الطبيعي أن يواجه ذلك الغدر بما يتلاءم معه. ولم يكن ذلك مطلقا نتيجة لضيق المسلمين بوجود مخالفين لهم في المدينة. فقد تعاهد اليهود مع المشركين رغم وجود العهد الذي يوجب عليهم ألا ينصروا أحدا على المسلمين.

ولم تتغير المواقف مع المخالف عقيدة إلا ما كان من تغير موقف المخالف نفسه من الدولة الإسلامية لا باعتباره مجرد مخالف. ومن ذلك موقف الروم التي رأت آنذاك أن الإسلام لم يعد مجرد حركة داخل الجزيرة العربية، بل صار دولة تشكل خطرا يهدد مصالح الروم في المنطقة خاصة بعد فتح مكة. فبادرت إلى الاصطدام العسكري معه في غزوة مؤتة(8هـ) فقتل الروم الرسول، الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام بكتابه إلى ملك الروم. فاشتد ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام فبعث البعوث وكانت غزوة مؤتة[230].

فهنا نرى تغيرا في طبيعة المخالف وموقفه أدى إلى تغير طبيعي في التعامل معه. فتغير الموقف إزاء المشركين من قريش الذين نقضوا معاهداتهم معه، **فالموقف من المخالف هنا ليس لمجرد مخالفته وغيريته عن المسلمين وإنما لموقفه العدائي الواضح تجاه الإسلام والمسلمين، وموقف المسلمين منه موقف ترعاه الدولة وتسوسه وليس أفراد المسلمين**.

النبي الكريم والعلاقات الدولية

مما لاشك فيه أن النبي الكريم أرسى دعائم دولة ذات سيادة في قلب الجزيرة العربية، التي لم تعرف معنى الانضواء تحت لواء حكومة مركزية واحدة. يقول السير توماس أرنولد في هذا السياق:

---

[229]- زاد المعاد، ج3، ص 124 وما بعدها.

[230]- الجوزية، زاد المعاد، مرجع سابق، ج3، ص 381.

" There was an entire absence of any organized administrative or judicial system such as in modern times we connect with the idea of a government. Each tribe or clan formed a separate and absolutely independent body. And this independence extended itself also to the indivual members of the tribe, each of whome recognized the authority or leadership of his chief only as being the exponent of a public opinion which he himself happened to share…."[231].

بل إن تلك التنظيمات والشرائع التي جاء بها، إنما طبقت في مجتمع، غابت عنه سمات التنظيم الإداري والتشريعي بالمعنى المتعارف عليه. فقد كان لكل قبيلة نظامها الخاص بها باستقلالية تامة.

يقول في ذلك البروفيسور توماس أرنولد:

" It is important to remember the peculiar character of Arab society at that time…There was absence of any organized administrative or judicial system such as in modern times we connect with the idea of a government. Each tribe or clan formed a deparated and absouletly independent body, and this independence extended itself also to the individual members of the tribe, each of whom recognized the authority, or leadership of his chief only as being the exponent of a public opinion which he himself happened to share…"[232].

ويؤكد السير توماس أرنولد أن النبي الكريم استطاع أن يؤسس دولة ذات كيان مستقل وينشئ نظاما سياسيا في الجزيرة العربية.

Arthur Glyn Leonard in 'Islam, Her Moral and Spiritual Values' said:

"..Arabia that had never before obeyed one prince, suddenly exhibits a political unity and swears allegiance to the will of an absolute ruler…"[233].

ومن المتعارف عليه في إطار العلاقات الدولية، أن لسيادة الدول مظهرين:

الأول: المظهر الخارجي ويكون بتنظيم علاقاتها مع الدول الأخرى في ضوء أنظمتها الداخلية، وحريتها في إدارة شئونها الخارجية، وتحديد علاقاتها بغيرها من الدول وحريتها بالتعاقد معها، وحقها في إعلان الحرب أو التزام الحياد. بمعنى تقف على قدم المساواة مع غيرها من الدول ذات السيادة، ولا يمنع هذا من ارتباطها وتقييدها بالتزامات أو معاهدات دولية مع غيرها من الدول.

الثاني: المظهر الداخلي ويكون ببسط سلطانها على إقليمها وولاياتها، ورعاياها وتطبيق أنظمتها عليهم جميعاً.

[231] - Arnold, ibid, p. 31.
[232] - Thomas Arnold, The spread of Islam in the world, Goodword Books, London, 2003, p.31.
[233] - Arnold, ibid, pp. 32-33.

لكن الدولة الإسلامية ولما تتميز به من قيم العدالة والحرية والمساواة الحاكمة، منحت رعاياها غير المسلمين حق تطبيق أحكامهم الخاصة في جانب حياتهم الأسرية.

والقوة –كما هو معروف– مفتاح الأساس للعلاقات الدولية للمنهج الواقعي، وغايتها ما يعرف بالمصلحة القومية أو الوطنية[234].

يقول جوزيف فرانكل في كتابه العلاقات الدولية: 'المصلحة الوطنية هي 'المفتاح الأساسي' في السياسة الخارجية، ويرتد هذا المفهوم في جوهره إلى مجموع القيم الوطنية، تلك القيم النابعة من الأمة والدولة في نفس الوقت، غير أن هذا المفهوم لا يخلو من غموض.. إن الجدل المتكرر حول السياسة الخارجية يتركز حول التفسيرات المختلفة لمتطلبات المصلحة الوطنية". ويتابع حديثه بالقول بأن القوة تدخل جميع أنواع العلاقات الدولية، في الحروب والمنافسات تدخل القوة بمعناها العسكري، وفي التعاون يدخل التهديد بالقوة لقمع أحد الأطراف. ويدور عالم السياسة كله حول ممارسة القوة والبحث عنها، غير أن القوة في السياسة الدولية أوضح بكثير وأقلُّ قيودًا من القوة في السياسة الداخلية. ولهذا فكثيرًا ما تسمى السياسة الدولية بسياسة القوة.. ولقد أدى الدور المهم الذي تلعبه القوة في العلاقات الدولية إلى نشوء مدرسة فكرية تفسر العلاقات الدولية على ضوء مفهوم القوة.. ولكن على الرغم من أن القوة تلعب دورًا مهمًا في السياسة الدولية، فإنها في الأساس وسيلة لتحقيق قيم وطنية[235].

بَيد أن **القوة في الإسلام تضبطها قيمة عظيمة حاكمة ومهيمنة عليها، ألا وهي قيمة العدل، التي ينبغي الالتزام بها في العلاقات مع الأفراد والدول على حد سواء. في الحرب والسلم في القول والعمل في حالة الصداقة والعداوة....فهي قيمة ذات معيار واحد، لا تعرف الازدواجية ولا الكيل بمكيالين،** قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ

---

[234] -Armstrong, Karen. Muhammad: A Biography of the Prophet. Harper: San Francisco, 1992. 3. Andrae, Tor. Mohammed: the Man and His Faith. Translated from German by Theophil Menzel, New York, N.Y: Barnes and Noble, 1957. Kelly, Marjorie. Islam. The Religious and Political Life of a World Community. New York: Praegers Publishers, 1984. 10. Lewis, Bernard. "Gibbon on Muhammad". In Daedalus, vol.105, no.3 (summer 1976): Pp.89-101. Peters, F E. Muhammad and the origins of Islam. Albany, New York:State University of New York Press,1994. Schimmel, Annmarie. And Muhammad is His Messenger. Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 1985. Watt, William Montgomery. Muhammad: Prophet and Statesman. London: Oxford University Press, 1961

[235]- Joseph Frankel, International Relations in a Changing World, Oxford University Press, 1988,p. 93

شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**[236]**.

إلا أن القرآن الكريم أوضح أن مناخ العلاقات الدولية، هو مناخ التدافع الدائم بين الأمم والأقوام، فهذه هي الصفة التي ميّزت تاريخ الإنسان منذ القدم، إذ ظلت تجمعاته وتكتلاته في حالة تدافع دائمين بين الحق والباطل والخير والشر، وذلك هو مصداق قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾**[237]**.

بيد أن هذا التدافع لا يلغي قيم العدالة والحرية والمساواة بين البشر، فلا يعمل على فرض إرادته على الجنس البشري ولا يتجه إلى استئصال الأديان أو الأفكار الأخرى المخالفة له، ولا يستعين بالقوة أو الجهاد في سبيل إكراه الناس أو إرغامهم على الدخول فيه.

فالأصل في العلاقات الدولية في الاسلام هو السلم، حتى يكون اعتداء على البلاد او الدعاة او حرمات الاسلام او المسلمين، بفتنتهم عن دينهم. والحرب حينئذٍ ضرورة للدفاع عن النفس والمال او العقيدة.

وقد أكد القرآن في آيات عديدة أن رسالة النبي الكريم هي رسالة محبة وهدى ورحمة وسلام للعالمين. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾**[238]**، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾**[239]**، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[240]ونحو ذلك كثير في القرآن.

لقد شهد التاريخ أن النبي الكريم حول قيم العدل والمساواة والحرية والتسامح والرحمة واحترام المواثيق إلى واقع معاش، ولم يخرج على عهد ولا ميثاق ولم يغير الأنماط القيمية الحضارية التي جاء بها ولا حتى في أشد الظروف والحالات.

[236]- المائدة: 8.
[237]- البقرة:251.
[238]- سورة الأنبياء: 107.
[239]- سورة النحل: 89.
[240]- سورة التوبة، 128.

فلم يعمد النبي الكريم قط إلى القوة إلا لمحاربة القوة التي تصدُّه وتهاجمه. ولم تكن الحروب التي خاضها حروبا دينية الهدف منها إرغام الآخرين على اتباع هذا الدين.

‘‘ These stupendous conquests which laid the foundations of the Arab empire, were certainly not the outcome of a holy war, waged for the propagation of Islam’[241].

تقول لورا فيشيا فاغليري[242] في كتابها (دفاع عن الإسلام):

(وإذا كان الإسلام قد وفق إلى خلق أمة أمة موحدة قوية مؤسسة على المباديء الأخلاقية في شبه الجزيرة العربية، حيث سادت فوضى ليس كمثلها فوضى، وحيث كانت فكرة الحكومة كمؤسسة إجتماعية مستقلة مجهولة بالكليّة، وحيث كان أيما شكل من أشكال السلطة البشرية يُعتبَر غير محتمل، وحيث كانت القسوة هي القاعدة، وحيث لم يكن القتل والسرقة جريمتين يُعاقب عليهما ولكن مجرد عملين يستدعيان مبادرة أسرة القتيل أو المعتدى عليه أو قبيلته إلى الأخذ بثأره، فإنَّ ذلك ما كان ليتمّ إلا لأن الإسلام كان قانوناً وديناً في وقت واحد)[243].

وجميع الآيات القرآنية التي جاءت في الإذن بالقتال، علّلت ذلك الإذن بإخراج الكافرين للمؤمنين من ديارهم وأهليهم كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾244.وعندما نزل الأمر بالقتال، جاءت مسألة إخراج المؤمنين سببا لقتالهم على اعتبار أنه كفار قريش هم الذي بدأوا العداوة والإخراج. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[245].

لقد جعل القرآن الكريم الإخراج من الديار والفتنة المتمثلة في مصادرة حرية الناس واضطهادهم لإجل عقيدتهم، وإرغامهم على تغيير دينهم، جماع أسباب الجهاد القتالى في الإسلام.[246]

---

[241] - Arnold, ibid, p. 46.

[242]- لورا فيشيا فاغليريL.Veccia Vaglieri باحثة إيطالية معاصرة انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديما وحديثا إلى فقه العرب وآدابها. ومن آثارها : قواعد العربية في جزأين (1937-1941) و (الإسلام) (1946) و (دفاع عن الإسلام) والعديد من الدراسات في المجالات الاستشراقية المعروفة.

[243]- لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص 94.

[244]- سورة الحج: 39.

[245]- سورة البقرة:190.

[246]- محمد عمارة، مرجع سابق، ص 122-123.

يقول ابن القيم[247] رحمه الله في ذلك:" ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تبين له أنه لم يُكره أحدا على دينه قط، وأنه إنما قاتل من قاتله وأما من مهادنه فلم يقاتله ما دام مقيما على هدنته لم ينقض عهده بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[248]". [249]

لقد كانت غزوات النبي الكريم دفاعية ، فغزوة بدر، هي أولى المعارك، لم يبدأ الرسول الكريم فيها بقتال، بل تعرض لقافلة قريش التجارية، وهي عمل مقاصّة مالية من أهل مكة، فقد استولى زعماء مكة على أموال المهاجرين وصادروها، وحين علم الرسول الكريم بخروج قافلة مكة التجارية إلى الشام بقيادة أبي سفيان، خرج لاعتراض القافلة. غير انّ القافلة تمكنت من الافلات، فجمعت قريش جيشها وقامت بالهجوم على المسلمين، وكانت المعركة عند ماء بدر قرب المدينة المنورة، في السنة الثانية من الهجرة.

تقول في ذلك الكاتبة كارن آرمسترونج :

" He also had to deal with Meccan, where Abu sUfyan now directed the campaign against him and had launched two major offencives against the Muslims in Medina. His object was not simply to defeat the Ummah in one battle but to annihilate all the Muslims'[250].

ومثلها معركة أُحُد، فقد كان مشركو مكة هم المهاجمون، وكان موقف النبي الكريم دفاعياً إذ جمع المشركون ثلاثة آلاف مقاتل، واتّجهوا من مكة إلى المدينة للقضاء على الرسول والدعوة والدولة هناك، فتصدى لهم المسلمون على مقربة من المدينة فوقعت معركة أُحُد .. وأمّا معاركه مع اليهود فلم يبدأ بقتال حتى نقضوا العهود والمواثيق. وتؤكد الوثائق التاريخية أن

---

[247]– محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي من كبار العلماء. ولد في دمشق عام 691هـ، تتلمذ لشيخ الاسلام ابن تيمية وتوفي في دمشق عام 751هـ. ترك مصنفات كثيرة منها: اعلام الموقعين عن رب العالمين. وإغاثة اللهفان...انظر ترجمته في: محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي، الرد الوافر. تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، بيروت، 1393هـ، ج1، ص 68.

[248]– سورة التوبة:7.

[249]– محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، بدون، ص 71.

[250] - Karen Armsrong, Islam, p. 17.

غزو النبي الكريم لقبائل اليهود: بنو قينقاع، النضير، وبنو قريظة لم تكن إلا بعد نقضهم الوثيقة والعهد الذي كان بينهم وبين المسلمين.

فقد كانت الوثيقة عهد التزام واضح لمن أقرّ بما فيها، وكان على اليهود التزامات واضحة ومسئوليات محددة. وقد أنهت الوثيقة كافة التحالفات والعلاقات والتحركات التي كانت تموج بها المدينة قبل الهجرة وأقامت بدلا منها صورة جديدة. وموافقة كافة الأطراف عليها، تقتضي عدم نقضها أو الخروج عنها. وهذا ما حصل من طرف القبائل اليهودية بأشكال مختلفة، تعد كلها خروجا على بنود الوثيقة. فلم يكن ثمة عنف أو معادات تجاه يهود المدينة الذين احترموا الوثيقة، بل اتجاه القبائل التي نقضت العهد. فالقرآن يتحدث عن اليهود بأنهم أهل كتاب ويأمر المسلمين باحترام كافة أنبيائهم. وقد بقيت بعض المجموعات اليهودية التي حافظت على العهد مع المسلمين تعيش في المدينة بمنتهى الحرية والتسامح.

تقول الكاتبة كارن آرمسترونج :

“ The struggle did not indicate any hostility towards Jews in general, but only towards the three rebel tribes. The Quran continued to revere Jewish prophets and to urge Muslims to respect the People of the Book. Smaller Jewish groups continued to live in Medina and later like Christians enjoyed full religious liberity in the Islamic empires’[251].

أمّا غزوة مؤتة فسببها أن ملك بصرى، في بلاد الروم كان قد قتل المبعوث الذي بعثه النبي الكريم، سنة ثمان من الهجرة ليخاطبهم خطاباً فكرياً وحوارياً بالدعوة إلى الاسلام، وينقل إليهم رسالة النبي الكريم. فكان لابد من ردّ دفاعي من قبل الدولة ذات السيادة.

ولم يفاتح النبي أحدا بالعداء في بلاد الدولتين، وإنما كتب إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى. ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم، إلا بعد تحريضهم القبائل العربية في العراق والشام على غزو الحجاز، وإعدادهم العدة لقتال المسلمين وقد علم المسلمون بإصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة،

[251] - Armstrong, Islam,p.18.

ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية في بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمدافعتها والتحصن دونه.

لقد **حوّل النبي الكريم واقع الجزيرة العربية الذي كان يسوده الصراع والحرب والنزاع في غضون أعوام معدودة إلى واقع سلام، مؤكدا أن السلام من أبرز عوامل التطور الاجتماعي والحضاري العام بين مختلف الأمم والشعوب فهو الكفيل بإيقاف حدوث النزاعات أو نشوب الحروب والصراعات فيما بينها.**

لقد وصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وهي في حالة صراع، أنهك قبائل الأوس والخزرج وحلفائهما من اليهود لسنوات طويلة. تقول في ذلك الكاتبة كارن آرمسترونج :

' Awas and Khazraj were engaged in a bloody conflict with one another. The jewish clans had become involved in their struggle, Nadir and Qurayzah supporting Aws, while Qaynuqa was allied to Khazraj…Everbody was exhausted by vilonce'[252].

وقد ظهرت إنجازاته في بناء قيمة السلام وإعلائها في الشعوب آنذاك ليس فقط في حياته بل بعد وفاته كذلك. فقد بقيت القيم الحاكمة تهيمن على سلوكيات الأمراء والخلفاء من بعده.

واستمرت صور السلام والتسامح بعد وفاة النبي الكريم وفي عهد الفاتحين الأوائل، الذين تمكنوا من إنقاذ الأمم المجاورة من وطأة الظلم والحرمان من قيم العدالة والمساواة والحرية.

فقد عاني الأرثودوكس في الإمبراطورية الرومانية من تعصب الإمبراطور Heraclius الذي أمر بمصادرة كنائسهم وحملهم على مبادئه. وتمّ تحريم الارثودوكسية في مجمع خلقدونية عام 451م، وقد كان لها أتباع في الشام وما بين النهرين على عهد الإمبراطورية البيزنطية. وكان الخلاف بينهم وبين الكنيسة الرسمية الكاثوليكية حادا امتزج بمشاعرهم الوطنية ضد المحتلين البيزنطيين فأعلنوا الثورة عليهم وتمسكوا بعداءهم للبيزنطيين. فلما جاء الفتح الإسلامي اعتبروه تحريرا لهم من تسلط البيزنطيين.

---

[252] - Karen Armstrong, p.103.

ويتضح ذلك الوضع جليا في رسالة البطريك مايكل الأكبر التي دونها في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي:

"This is why the God of vengeance, who alone is all-powerful, and changes the empire of mortals as He will, giving it to whomsoever He will, and uplifting the humble beholding the wickedness of the Romans who throughout their dominions, cruelly plundered our churches and our monasteries and condemned us without pity, brought from the region of the south the sons of Ishmael, to deliver us through them from the hands of the Romans. And if in truth we have suffered some loss, because the Catholic churches, that had been taken away from us and given to the Chalcedonians, remained in their possession; for when the cities submitted to the Arabs, they assigned to each denomination the churches which they found it to be in possession of (and at that time the great churches of Emessa and that of Harran had been taken away from us); nevertheless it was no slight advantage for us to be delivered from the cruelty of the Romans, their wickedness, their wrath and cruel zeal against us, and to find ourselves at peace'[253]..

وعلى ذات النهج، سار عمر رضي الله عنه، فأعطى لأهل إيلياء عهداً، وأماناً لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسقيمهم، وبريئهم، وسائر ملتها، ألا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم، وألا يضار أحد، ولا يكره على الدين.

يقول أليكسي جورافسكي[254]في ذلك:

" قابلت– أي المسيحية الشرقية– الدين الجديد الإسلام دون أي مقاومة بل وبالترحاب في كثير من المناطق ومرد ذلك الموقف إلى عدة عوامل، أولا: تسامح الإسلام إزاء القضايا المتعلقة بإقامة طقوس العبادة المسيحية بشرط التعاون السياسي، ثانيا: بسبب أن المسلمين الفاتحين حموا المسيحيين من تعديات واعتداءات ملاحقات أمبراطورية بيزنطة غير المتسامحة مطلقا في ما يخص التيارات المونوفيزية والنسطورية.."[255].

---

[253] - Michael the Elder, vol,2pp.412-13. chronicon Ecclesiasticum, ed.J.B Abbeloos et Lamy,p.474.

[254]- أليكسي فاسيلفيتش جورافسكي متخصص في تاريخ العلاقات الحضارية بين الشعوب والقارات والثقافات يعمل في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية. أصدر عدة دراسات في قضايا العلاقات الحضارية بين الأديان والشعوب ولا سيما بين ثقافتي الغرب والشرق. انظر ترجمته في خاتمة كتابه الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم، ترجمة: خلف الجراد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 1996م.

[255]– أليكسي جورافسكي، المرجع السابق، ص 177-178.

فالمسيحيون واليهود وغيرهم ممن لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعا دون أي عائق أن يمارسوا شعائر دينهم وهذا منتهى التسامح. وفي ذلك كتب بطريك بيت المقدس في القرن التاسع لأخيه بطريك القسطنطينية عن المسلمين أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف[256].

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه[257]:" لعل من أهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم حتى إن الملك الفارس كيروس نفسه قال: إن **هؤلاء المنتصرين لا يأتون مخربين. فيما يدّعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد اسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة على تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة.** والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عددا ضئيلا من الشعوب التي عاملت خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب وكان لمسلكهم هذا أطيب الأثر مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف ولا الحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة"[258].

ويقول السير توماس أرنولد:

" إنه من الحق أن نقول أن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد معادلا لها في اوروبا قبل الأزمنة الحديثة.. وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على يد المتزمتين

---

[256]- بتصرف يسير عن: زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، الطبعة العاشرة، 2002م، ص 364.

[257]- زيغريد هونكة المستشرقة الألمانية الذائعة الصيت وهي زوجة الدكتور شولتزا الذي اشتهر بكتاباته المنصفة عن العرب وآدابهم وآثارهم. صدر للمؤلفة العديد من الكتب في هذا المجال وكانت رسالتها للدكتوراه أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية ومن أشهر كتبها كتاب شمس العرب تسطع على الغرب.

[258]- زيغريد هونكه، مرجع سابق، ص 358.

والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح"[259].

وقد أسهمت المواجهة التاريخية التي حدثت بين المسلمين وغيرهم في عصور الفتوحات وما اتسمت به من التسامح والبعد عن الجمود والتعصب في ازدهار وانتعاش الحركة الحوارية أو الجدلية ونشأة ما عُرف فيما بعد بعلم مقارنة الأديان ودراسة الملل والنحل.

وتكللت تلك الحركة الفكرية بظهور عدد من المؤلفات في مراحل تاريخية مبكرة تعود إلى نهاية القرن الثاني وبدايات القرن الثالث الهجري. وأدت تلك القفزات المبكرة إلى قيام ردود فعل من قِبل بعض الكُتّاب غير المسلمين من أمثال يوحنا الدمشقي[260] وتيودور أبو قرة وكركيساني اليهودي تمثلت في ظهور عدد من كتاباتهم، في جوّ غلبت عليه الروح العلمية. الأمر الذي أسهم في نشأة حوار كتابي بين المسلمين وغيرهم من أرباب الأديان الأخرى وخاصة النصارى.

وبناء على هذه الحقيقة يشيد آدم متز الكاتب المسيحي الغربي المعروف، بالحريات التي أتاحتها التجربة الاسلامية للديانات الأخرى، وشعوبها التي دخلت في إطار الدولة الإسلامية الكبرى، فيقول:

"ان الكنائس والبيع ظلت في المملكة الإسلامية، كأنها خارجة عن سلطان الحكومة وكأنها لا تكوّن جزء من المملكة، معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح، لا تعرفه أوربا في القرون الوسطى".

" ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها.. وليس فيما

---

[259]- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، القاهرة، 1970م، ص 729-730.

[260]- القديس يوحنا الدمشقي(675-750م) ولد في دمشق من آباء ومعلمي الكنيسة. حفيد منصور بن سرجون رئيس ديوان المالية في عهد معاوية. ألّف في اللاهوت والفلسفة والتاريخ ومهد بمؤلفاته إلى نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوروبا. انظر ترجمته: زوني أيلي الفا، موسوعة أعلام الفلسفة، مراجعة: جورج نخل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ج2، ص 601.

يوصم به الإسلام من الجَبْرية ما يزيد خطرا على ما رددنا عليه، وليس في آي القرآن التي ذكرناها آنفا من الجَبْرية ما ليس في كتب الأديان الأخرى كالتوراة مثلا"[261].

ويقول آدم متز واصفا حالة التعايش السلمي بين المسلمين ومخالفيهم في العقيدة:

" كان وجود النصارى بين المسلمين سببا لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون وكان الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الامر نوعا من التسامح الذي لم يكن معروفا في أوروبا في العصور الوسطى ومظهر هذا التسامح نشوء علم مفارنة الأديان اي دراسة الملل والنحل على اختلافها والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم ..."[262].

وكان من نتاج تلك الجهود، تحول عدد من الكتّاب النصارى[263] إلى الإسلام والكتابة لأقوامهم شارحين أسباب ذلك التحول، ومن تلك الكتابات: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب للترجمان[264]. وقد اشتملت تلك الأدبيات عموما إلى جانب المناظرة والجدل، التاريخ والوصف والتحليل العلمي والمقارنة الموضعية والنقد المنهجي كذلك[265].

كما ظهرت مؤلفات أخرى تحوي في طياتها حوارات رفيعة دارت بين المسلمين والمسيحيين، والمسلمين واليهود الذين عاشوا في كنف الاسلام في الأندلس بوجه خاص، ومن

---

[261] - Arnold,ibid, p. 254.

[262]- آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرين نقله إلىالعربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الطبعة الثالثة، 1957م، ج1، ص 57.

[263]- كان نصرانيا ثم أسلم وصنف رسالة في الرد على النصارى وبين عوار مذاهبهم ومدح فيها الاسلام وأقام الحجة على أنه الدين الحق وذكر فيها ما قرأه في التوارة والانجيل من ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وأنه نبي مبعوث وأن اليهود والنصارى اخفوا ذلك ولم يظهروه ثم ذكر فيها معائب اليهود والنصارى. وهي رسالة حسنة أجاد فيها وهو من المشاهير في علم رآه وعمله وكان يطبب أهل محلته ومعارفه بغير اجرة ويحمل اليهم الاشربة والأدوية بغير عوض ويتفقد الفقراء ويحسن اليهم ووقف كتبه قبل وفاته وجعلها في مشهد ابي حنيفة رحمه الله توفي في سنة 493. انظر ترجمته في: صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م، ج3، 117.

[264]- عبد الله بن عبد الله الترجمان . وكان من أفاضلهم ولما أسلم أراد ان يبين أباطيل نواميسهم وتناقض أناجيلهم وفساد عقولهم بالنقل والعقل. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ج 1، ص 362.

[265]- محمد عبد الله الشرقاوي، بحوث في مقارنة الأديان، دار الفكر العربي، مصر، 2000م، ص 345.

أشهرها رسائل القاضي الأندلسي أبو الوليد سليمان بن خلف المالكي الباجي[266]. وكانت تلك الرسائل حواراً وردّاً على راهب دير كلوني (القديس الفرنسي هيو) كبير الرهبان، الذي أرسل رسالة إلى المقتدر بالله حاكم سرقسطة آنذاك، يدعوه إلى دخول المسيحية. فأرسل الحاكم إلى القاضي الباجي للرد عليه.

وتُعد الرسالتان من أهم الوثائق التي تكشف اهتمام المسلمين بالحوار والجدل المتبادل مع النصارى، المعبّر عن مديات الاحتكاك الثقافي بينهم. وقد لقيت هاتان الرسالتان عناية بالغة من قِبل المستشرقين المهتمين برصد العلاقات بين الإسلام والغرب بوجه عام كما تمت ترجمتهما إلى أكثر من لغة أوروبية.

ومن أهم ما ورد في رسالة الباجي إلى الراهب، تلك الآداب التي حوتها في ثنايا الحوار المكتوب فقد أظهر الباجي اهتمامه بأمر الراهب واحترامه له وتقديره لمكانته بين قومه. كما أعرض عن مناقشة الأمور المستحيلة التي ذكرها الراهب من إلوهية المسيح وغير ذلك.

ويتضح من الرسالة، أدب الحوار ونهجه التطبيقي من خلال رفق الباجي رحمه الله في محاورته وصبره والتزامه بالموضوعية بأسلوب تطبيقي يمكن الإفادة منه في كتابة أدبيات الحوار إلى حد بعيد[267].

من هنا كان الحوار بالتي هي أحسن - وليس الحرب - هو الوسيلة المثلى للتفاهم فيما بين المسلمين وغيرهم بشأن قضايا الإيمان والعقيدة، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي

---

[266]- أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي الاندلسي المالكي ولد سنة 403هـ. كان من علماء الاندلس وحفاظها سكن شرق الاندلس ورحل إلى المشرق وأقام بمكة ثم رحل إلى بغداد يقرأ الحديث ويدرس الفقه. له كتاب التجريح والتعديل، شرح المدونة إحكام الفصول في أحكام الأصول، المنتقى المنهاج في ترتيب الحجاج وغيرها. وهو احد ائمة المسلمين وكان قد رجع إلى الاندلس وولي القضاء هناك. انظر ترجمته في: محمد بن أحمد الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، 1413هـ، ج18، 536. إبراهيم بن علي اليعمري، الديباج المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج1، ص 120.

[267]- رسالة راهب فرنسة إلىالمسلمين وجواب الباجي عليها، تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1986م.

هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾[268].

وإذا كان الحوار هو الوسيلة المعتمدة في مثل هذه القضايا على خطورتها وأهميتها؛ فإنه يكون أولى بالتطبيق فيما دونها من القضايا والمشكلات، وأولى أن يكون مبدأً عامًّا من مبادئ معالجة معضلات العلاقات الإنسانية بما فيها العلاقات الدولية.

وليس الحوار في القرآن والسنة النبوية مدلفا لتشريع الإكراه أو الاستلاب الفكري، مما يؤكد أن غاية الحوار فيما لم تكن بغية سلب الطرف الآخر قناعاته الفكرية بقدر ما تروم إيصال الحقائق والكشف عنها وتحقيق الأمانة في التبليغ والدعوة.

ولا يمكن تصور حوار في غياب تقبل الآخر والاعتراف بالتنوع المراجعة فى الكلام، وهو التجاوب بما يقتضى ذلك من رحابة الصدر وسماحة النفس ورجاحة العقل، وبما يتطلبه من ثقة ويقين وثبات، وبما يرمز إليه من القدرة على التكيف، والتجاوب والتفاعل، والتعامل المتحضر الراقى مع الأفكار والآراء جميعا. وهذا المعنى يؤكد بما لا يرقى إليه الشك أن الحوار أصل من الأصول الثابتة للحضارة العربية الإسلامية، ينبع من رسالة الإسلام وهديه، ومن طبيعة ثقافته وجوهر حضارته[269].

بَيد أن هذا التسامح والتعايش الذي أسسته النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وسار عليه المسلمون على مدى التاريخ، شابه بعض السلوكيات الشاذة من قِبل البعض، في سياق تاريخي وظروف اجتماعية وسياسية معينة. فلا تُفهم تلك الشوائب الفكرية على أنها فكر أصيل منبثق من تعاليم الاسلام أو قيّمه.

---

[268]- العنكبوت، 46.

[269]– عبد العزيز بن عثمان التويجري، الحوار والتفاعل الحضاري من منظور اسلامي، المؤتمر الثامن، يوليو 1996م.
http://www.alazhr.org/conf/default.asp

فقد كان **واقع المسلمين على مدى قرون من الزمن، قائما على تلك الأسس التي أرست دعائمها نصوص القرآن ونفذتها السنة النبوية من خلال أقوال وسلوكيات النبي الكريم. إلا أن تلك الشوائب كانت من قبيل أخطاء وممارسات فردية لا تمثل قطعيا حكم القرآن أو السنة.**

وقد نشأت بعض تلك السلوكيات نتيجة ميول ودوافع شخصية سرعان ما كان ينبّه عليها علماء الأمة كلما أطلّت برأسها. ومن ذلك ما حدث من الوالي العباسي صالح بن علي عندما أجلى قوما من أهل الذمة من جبل لبنان لذنب ارتكبه بعض أفرادهم، فاعترض الأوزاعي[270] رحمه الله بشدة وطالب بعودتهم إلى ديارهم، وكتب إليه يقول:

" ..وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه، ممن قتلت ورددت بعضهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة؟؟ حتى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى فيهم: ألا تزر وازرة وزر أخرى. فإنهم ليسوا بعبيد فتكون من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة"[271]. وهكذا فإن أحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله صلى اللهعليه وسلم حيث قال:" أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[272].

وثمة ظروف تاريخية سياسية أخرى، ولدّت ردود فعل مختلفة لدى البعض من المسلمين. الأمر الذي نجم عنه وقوع إساءات من قِبل بعض المسلمين اتجاه أهل الذمة في المجتمع. فقد شهد التاريخ بعض الحوادث التي وقع فيها ظلم وتعدي من قِبل بعض الذميّين على المسلمين.

ومن تلك الوقائع التاريخية ما حدث في عهد أبي جعفر المنصور. فإنه لما حجّ اجتمع جماعة من المسلمين إلى شبيب بن شيبة وسألوه مخاطبة المنصور أن يرفع عنهم المظالم ولا يمكّن النصارى من

[270]- أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو وكان أصله من سبي السند نزل في الأوزاع فغلب عليه ذلك وكان فقيه أهل الشام وكانت صنعته الكتابة ولد سنة 88هـ له كتب في السنن والفقه والمسائل. انظر ترجمته في: الذهبي، مرجع سابق، ج7، 107.

[271]- البلاذري، فتوح البلدان، 222. وراجع كلك: أمين محمد القضاة، معاملة غير المسلمين في الإسلام، بحوث المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن، ص 585.

[272]- سنن أبي داود، باب الخراج والإمارة والفيء، حديث رقم 2654.

ظلمهم وعسفهم في ضياعهم ويمنعهم من انتهاك حرماتهم. فقال مخاطبا المنصور: يا أمير المؤمنين سلطّت الذمة على المسلمين ظلموهم وعسفوهم وأخذوا ضياعهم وغصبوهم أموالهم وجاروا عليهم واتخذوك سلما لشهواتهم وإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا يوم القيامة، فأمر المنصور بعزلهم[273].

وهذه الواقعة وغيرها مما حدث أثناء حكم بعض الخلفاء والأمراء، كانت بسبب إساءة تعامل أهل الذمة أنفسهم وما وقع منهم من ظلمٍ وتعدٍ على المسلمين في ديارهم. الأمر الذي أدى إلى نقمة الناس وغضبهم.

وقد عبّر العالم الألماني آدم متز عن تلك الحالة موضحّا استبداد بعض النصارى بقوله:" لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام"[274]. ويُرجع المؤرخ اللبناني جورج قرم ظهور تلك التوترات في العالم الاسلامي آنذاك إلعوامل ثلاثة هي:

أولا:مزاح الخلفاء الشخصي فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميّون، وقعا في عهد المتوكل العباسي(206- 247هـ) الذي كان يميل بطبعه إلى العنف والقسوة والتعصب مع مجموع الرعية وفي عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي (375-411هـ) الذي كان مغاليا في الشدة معهم.

ثانيا: الظلم الذي كان يمارسه بعض الذميّين المعتلين لمناصب إدارية عالية فلا يعسر إدراك صلتها المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار الاسلامية. وقد أشار إلى ذلك السير توماس أرنولد:

" ….In fact they may generally be traced either to popular indignation exicted by the harsh and insolent behaviour of Christian officials…the government acts of oppression that were contrary to the general spirit of Muslim rule"[275].

---

[273]- ابن القيم الجوزية، احكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر العاروري، دار رمادي للنشر، الدمام، 1418هـ/1997م، ج1، ص 461.

[274]- آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، بيروت، 1967م، ج1، ص 105.

[275] - Arnold, p. 76.

ثالثا: وهذا العامل يرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلدان الاسلامية وقيام الحكام الأجانب بإغراء الأقليات الدينية غير المسلمة بالتعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة. فنهايات الحملات الصليبية قد أعقبتها في أماكن عدة أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية التي تعاونت مع الغازي. ولم يحجم الحكام الأجانب من الانجليز والفرنسيين عن استخدام الأقليات غير المسلمة في مصر وسوريا، الأمر الذي أثار قلاقل خطيرة بين النصارى والمسلمين[276].

إن فهم تلك الظرفية التاريخية والأوضاع الاجتماعية واستحضارها قبل إصدار حكم تعسفي ضد سماحة الإسلام وقيّمه إزاء المخالف، يسهم اليوم في إدراكنا لموقف بعض فقهاءنا المتوجس إزاء التعامل مع الذميين عموما. فقد عاصر هؤلاء الفقهاء تلك الحوادث وعاينوا الظلم الواقع من تكبر بعض الذميّين وإساءتهم للمسلمين، والمجتهد ابن بيئته وعصره.

ومن أبرز العلماء الذين عاينوا تلك الأحداث، ابن القيم رحمه الله، الذي يقول واصفا حالة تكبر واستعلاء الذمييّن في عصره:" وأما اليوم فقد وفقنا إلى زمان يُصدّرون(يعني أهل الذمة) في المجالس ويُقام لهم وتُقبّل أيديهم ويتحكمون في أرزاق الجند والأموال السلطانية.."[277]. وقد عقّب الأستاذ صبحي الصالح محقق كتاب (شرح الشروط العمرية) وكتاب (أحكام أهل الذمة) للإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله، يقول: يُستقرأ من خلاله الحالة التاريخية والاجتماعية والسياسية السائدة آنذاك. تلك الحالة التي دفعت بابن القيم رحمه الله وهو العالم الجليل المنصف إلى التمسك ببعض السلوكيات التي لم تخل من الشدة نوعا ما، إزاء أهل الذمة في عصره[278]. وما ذاك إلا اجتهادا منه رحمه الله في مراعاة مصلحة البلاد والعباد وتغير الأحوال والأزمنة والأمكنة واحتياطا للإسلام والمسلمين ونظرا في المصلحة العامة لهم.

يقول الأستاذ صبحي الصالح حول ذلك:

---

[276]- جروج قرم، تعدد الأديان ونظام الحكم، بيروت، 1979م، ص 211-224.

[277]- المرجع السابق، ج3، ص 1323.

[278]- من ذلك ما ذكره على سبيل المثال معتمدا على الشروط العمرية ، بأن أهل الذمة ممنوعون من ركوب السروج وتكون أرجلهم إلى جانب واحد، وتكون نعالهم مخالفة لنعال المسلمين....انظر كتاب شرح الشروط العمرية مجردا من كتاب أحكام أهل الذمة، تحقيق وتعليق: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1981م، ص 90، 101.

" ابن القيم كان يعيش في عصر كثرت فيه ضروب التحدي من أهل الذمة للمسلمين وكان من العسير أن ينسى أهل دمشق ولو امتد الزمان ما فعله النصارى يوم غزا المغول مدينتهم سنة 658هـ فقد أراقوا الخمر على ملابس المسلمين وعلى مساجدهم وأرغموا أصحاب الحوانيت على الوقوف لهم ولصلبانهم وراحوا يهتفون اليوم انتصر دين المسيح"[279]. فظهر شيء من الغلو في عرض بعض المسائل المذكورة في كتبه- رحمه الله- مشبّعة بروح العصر الذي عاش فيه المصنف متأثرة بالتشدد الديني الذي كان يسوده. إلا أنها لا تغض من قيمة مؤلفاته في الموضوع بحال"[280].

وواقع الأمر أن **تأثر العلماء والمجتهدين رحمهم الله بالأحوال السائدة في عصورهم والظرفية التاريخية والاجتماعية، أمر لا مندوحة عنه إلا أنه محض اجتهاد بشري محكوم عليه بالنسبية لا الإطلاق. أما نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية هي المطلقة الحاكمة على جميع الاجتهادات**[281].

ولم تكن تلك الفترات المحدودة في عمر التاريخ تيارا عاما في التاريخ الاسلامي، فهذا شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يسعى بإطلاق سراح أسرى المسلمين من التتار ويصرَّ كذلك على إطلاق سراح المأسورين من أهل الذمة قائلاً لمسؤول التتر: "بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمَتنا، فإنا نفكُّهم ولا ندعُ أسيراً لا من أهل الملَّة ولا من أهل الذمة"[282].

---

[279]- هامش كتاب احكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1981م، ج2، ص 771.

[280]- بتصرف يسير شرح الشروط العمرية مجردا من كتاب أحكام أهل الذمة، المرجع السابق، المقدمة. ويرى الأستاذ صبحي الصالح أن شهرة تلك الشروط المنسوبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تغني إسنادها بحال وهو ما اعتمده الإمام ابن القيم رحمه الله حيث يقول:" شهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها". راجع المقدمة. صفحة ز. وهو في كل ما ذهب إليه رحمه الله كان مجتهدا مراعيا للحالة السائدة في عصره فلا ينبغي أن تعزل تلك الأحكام الاجتهادية وتؤخذ على عناتها دون النظر إلى طبيعة الظرفية التاريخية المقارنة لها كما لا ينبغي أن تقرأ دون الإلمام والوقوف أولا وآخرا على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

[281]- في تفاصيل تلك النقطة انظر: رقية طه العلواني، أثر العرف في فهم النصوص، دار الفكر، دمشق، 2003م. ص10. والكتاب برمته يبين مديات تأثير الأعراف على الأحكام الفقهية.

[282]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج28، ص 618.

وتأسيسا على هذا كله لم تنطبع فتاوى العلماء وأحكامهم في أي حال من الأحوال بالعدوانية أو الملاحقة فروح التواصل ومبدأ النفتاح بقي قائما بسبب المكون العقدي الذي غالب كل الظروف[283].

وتبقى أحكام الإسلام وقيّمه ومبادئه تُؤخذ من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية القولية والفعلية، بقطع النظر عن طبيعة الظرفية التاريخية التي تمرّ بها المجتمعات المختلفة التي تظهر وتبرز فيها بعض التأويلات والآراء الفقهية التي تمثل في نهاية الأمر جهدا بشريا يحاول التوصل إلى فهم النص، وإمكانية الصواب والخطأ فيه واردة مشروعة.

وعلى هذا **لا ينبغي الانتقاء من بعض الحوادث التاريخية واستصدار الأحكام التعميمية على عهود من تسامح المسلمين مع غيرهم. وهي حقيقة يفهمها العقلاء من الغرب**، كما جاء في كلمة الأمير تشارلز عن تعامل الإسلام مع أهل الكتاب واحترامه لهم.

“ I think we need to recover the depth, the subtlety, the generosity of imagination, the respect for wisdom that so marked Islam in its great ages…. Islam called Jews and Christians the peoples of the book, because they, like Muslims, are a part of a religion of sacred texts."[284],"

لقد استمر التعايش والتسامح ديدنا بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى على مدى قرون متعاقبة، واتسم تاريخ العلاقة بين المسلمين واليهود بالوفاق والتحالف.

يقول المؤرخ مارك كوهين[285] في كتابه المعروف في ظل الصليب والهلال:

"العرب لم يقتلوا اليهود ولم يطردوهم كما فعل الغرب المسيحيون على مدى ألفي عام، فاليهود وجدوا في الفتح الإسلامي للشام والعراق نهاية للكابوس الروماني، وتحررا من القهر والاضطهاد،

---

[283]– أحميدة النيفر، المعيار والهوية والحوار قراءة في التجربة التاريخية للغرب الاسلامي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الرابع عشر، دبي، الامارات العربية المتحدة، سبتمبر 1996م، ص 65.

[284] - http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/4844952.stm

[285]- الحاخام الأستاذ في دراسات الشرق الأوسط والتاريخ اليهودي في جامعة برنستون والأستاذ الزائر والباحث في القاهرة والقدس وفي معهد الدراسات المتقدمة ببرلين. من أبرز كتاباته: في ظل الصليب والهلال. وقد حوى الكتاب العديد من المغالطات التاريخية إلا انه رغم لك لم يتمكن من إنكار طبيعة الحياة التي عاشها اليهود في ظل الدولة الإسلامية.

ورفض العرب طلبا من بطريك الإسكندرية بإبعاد اليهود عن مصر، ووجد اليهود في الأندلس ملاذا آمنا من الاضطهاد والتهجير الأوروبي، وفرصة للتأسيس الحضاري والفلسفي للفكر اليهودي، وفي الحروب الصليبية كان اليهود من ضحايا القتل الغربي كما المسلمون، ولجؤوا إلى الدولة العثمانية في العصور الحديثة".[286]

وقد جعل التناقض بين وضع اليهود في أوروبا ووضعهم في العالم الإسلامي المثقفين اليهود يرون الإسلام نموذجا مثاليا يمكنهم من التعايش والاندماج، وكان صعود الحركة الرومانتيكية في القرن التاسع عشر وراء صورة الصحراء النقية والمثالية الإسلامية وكان هذا موضع افتخار وانتماء اليهودي المضطهد والمهمش في الغرب[287].

لقد حدا هذا التوافق والتعايش بالكثيرين من مؤرخي وفلاسفة القرن التاسع عشر اليهود من أمثال إبراهام غايغر، وغوستاف فايل، ويوسف دهرنبورغ، وغولدزيهر، ووولف، وليوبولد فايس، وبالغريف، بإبداء إعجابهم بهذا التسامح الفريد.

وكان غايغر يعتبر أن الإسلام أوجد مناخات مؤاتية لازدهار العلوم والفلسفة خلافا للمسيحية التي غذت النفور من العلم والعقل. وكان فايل أول من ترجم ألف ليلة وليلة من العربية إلى الألمانية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وألف كتابا عام 1837م عن أدب العرب الشعري وكتابا عن النبي محمد(صلى الله عليه وسلم) عام 1843م. ولكن أهم كتاب لفايل كان تاريخ الخلفاء الذي جاء في خمسة أجزاء وكتب بين عامي 1846 و1862 عرضا لتاريخ الشعوب الإسلامية منذ النبوة حتى زمن السلطان العثماني سليم، وقد اعتمد على مصادر أولية من المؤرخين المسلمين واستفاد من رحلاته في البلاد العربية. يقول الكاتب مارك ابستين:

"Jewish communities in Anatolia flourished and continued to prosper through the Turkish conquest. When the Ottomans captured Bursa in 1324 and made it their capital,

---

[286] -Mark R. Cohen, Under Crescent and Cross. The Jews in the Middle Ages.*The Jewish Quarterly Review*, New Ser., Vol. 88, No. 1/2 (Jul. - Oct., 1997), pp. 76-78
doi:10.2307/1455066

[287] - Bernard Lewis, *The Jews of Islam* (Princeton, New Jersey: Princeton University Press), 4-9

they found a Jewish community oppressed under Byzantine rule. The Jews welcomed the Ottomans as saviors. Sultan Orhan gave them permission to build the Etz ha-Hayyim (Tree of Life) synagogue which remained in service until 50 years ago. Early in the 14th century, when the Ottomans had established their capital at Edirne, Jews from Europe, including Karaites, migrated there"[288].

وعلى الرغم من كل ذلك فلا يزال البعض من المؤلفين الغربيين، يصمون الاسلام بأنه دين التعصب وعدم التعايش والتسامح، وهو قول مردود على ألسنة المنصفين من كُتّاب الغرب أنفسهم. يقول المؤرخ سميث في كتابه الإسلام في التاريخ الحديث:

" من الآراء غير الصحيحة التي نصادفها بين حين وآخر الرأي الذي مؤداه أن الإسلام دين التعصب وعدم التسامح وهما سمتان متلازمتان أبدا له. واعتراضنا على مثل هذه الدعوى أن التعصب يمكن أن يبرز في مرحلة تاريخية معينة وفي أي دين، بل ليس في الأديان فقط وإنما في النظريات والعقائد والحركات السياسية والاجتماعية المختلفة. وفي الوضع الذي نناقشه حالة الإسلام فإن **متابعة النواحي التاريخية والاجتماعية والعقائدية(القرآن والسنة) للإسلام، لا تبيح لأي باحث ومراقب موضوعي الحديث عن التعصب الاسلامي. قد نجد بعض المسببات والدوافع النفسية والحالات الاجتماعية الطارئة بين الحين والآخر أو في بلد ما، ولكن ذلك لا يعطي الحق في التعميم إطلاقا**"[289].

يقول ول ديورانت" :لقد كان أهل الذمة، المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم [290]. وينقل ترتون – الأستاذ بجامعة لندن– في كتابه "أهل الذمة في الإسلام "شهادة البطريك " عيشو يابه " الذي تولى منصب البابوية حتى عام 657هـ:" إن العرب الذين مكنهم الرب من

[288] - Mark Alan Epstein, "The Ottoman Jewish Communities and their role in the 15th and 16th centuries, K. Schwarz (1980). Stanford J. Shaw, Turkey and the Holocaust: Turkey's Role in Rescuing Turkish and European Jewry from Nazi Persecution, 1933-1945, New York University Press; Reprint edition (November 17, 2006)
[289]- W. C. Smith. Islam in Modern History,(London, 1963), p.98.
[290]- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الثانية، مصر، 1964،ج13، ص 130.

السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون. إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويوقرون قديسينا وقسسنا، ويمدون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا[291].

ويواصل القول : "وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين .. وأصبحوا يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وممارسة شعائر دينهم .. وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجاً آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين. وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية، الذين كانوا يلقون صوراً من الاضطهاد على يد بطاركة القسطنطينية وأورشليم والاسكندرية وإنطاكيا، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين".[292]

ويقول المستشرق دوزي في كتابه نظرات في تاريخ الإسلام:

"إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة"[293] .

فالقوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم .. فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له؛ فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى[294].

فكان حلم العرب الفاتحين وتسامحهم من أهم أسباب اتساع فتوحاتهم وسهولة اقتناع كثير من الأمم بدينهم ولغتهم[295].

ويوافقه المؤرخ ول ديورانت فيقول:

---

[291]- آرثر ستانلي ترتون .**أهل الذمَّة في الإسلام**، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب1994) ,، ط3، مصر. وراجع كذلك: لوثروب ستودارد،حاضر العالم الإسلامي، ترجمة :عجّاج نويهض، ط4، دار الفكر، بيروت، 1973م.

[292]- نقلاعن: غوستاف لوبون ، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مكتبة الأسرة، 2000م. ص 320. وانظر سر تطو رالأمم، ترجمة: أحمد زغلول، دار النفائس، الأردن، 1987م.

[293]– **رينهرت دوزي، نظرات في تاريخ الإسلام**، ترجمة، تحقيق: كامل كيلاني، دار ومكتبة بيبليون، بيروت، 2005م.

[294]– غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 322 وما بعدها.

[295]– المرجع السابق، ص 324.

"وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون، أو بسبب هذه الخطة اعتنق الدين الجديدَ معظمُ المسيحيين وجميع الزرادشتيين والوثنيين إلا عدداً قليلاً منهم .. واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلدان الممتدة من الصين وأندنوسيا إلى مراكش والأندلس، وتملك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها[296].

ويقول المؤرخ آدم متز: (كان أهل الذمة -بحكم ما يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم، ومن حمايتهم لهم- يدفعون الجزية، كل منهم بحسب قدرته، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات، ولا المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار)[297].

على أن هناك علة أخرى لإيجاب الجزية على أهل الذمة، وهي العلة التي تبرر فرض الضرائب من أي حكومة في أي عصر على رعاياها، وهي إشراكهم في نفقات المرافق العامة، التي يتمتع الجميع بثمراتها ووجوه نشاطها، كالقضاء والشرطة، وما تقوم به الدولة من إصلاح الطرق وإقامة الجسور، وما يلزمها من كفالة المعيشة الملائمة لكل فرد يستظل بظلها مسلمًا كان أو غير مسلم. والمسلمون يسهمون في ذلك بما يدفعونه من زكاة عن نقودهم وتجاراتهم وأنعامهم وزرعهم وثمارهم، فضلاً عن صدقة الفطر وغيرها . فلا عجب أن يطلب من غير المسلمين المساهمة بهذا القدر الزهيد وهو الجزية.

وتقول المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاغليري في كتابها **دفاع عن الإسلام**:

«لقدكانت هذه الضريبة أخفَّ من الضرائب التي كان المسلمون مُلزمين بدفعها إلى حكوماتهم نفسها ومقابل ذلك مُنح أولئك الرعايا المعروفون ب (أهل الذمَّة) حمايةً لا تختلف في شيء عن تلك التي تمتعت بها الجماعة الإسلاميَّة نفسها. ولما كانت أعمال الرسول والخلفاء الراشدين قد

---

[296]- ول ديورانت، مرجع سابق، ج13، ص 200.

[297]- آدم متز، مرجع سابق، ص 210.

أصبحت فيما بعد قانونًا يتَّبعه المسلمون، فليس من الغلو أن نُصِرَّ على أنَّ الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامُح الديني, بل تجاوز ذلك ليجعل التسامُح جزءًا من شريعته الدينية"[298].

[298]– لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للمايين، 1981م، ص 94.

الفصل الرابع

الوضع الحضاري قبل وبعد رسالة النبي الكريم

أولا: الوضع الحضاري للعرب قبل الرسالة

لم يكن العرب يملكون حضارة متميزة. ففي منطقة العراق استعاروا بعض المفردات الحضارية من بلاد فارس وفي الشام تأثروا بالبيزنطيين. أما في شمال الجزيرة فلم يكن لهم حظ يذكر في التقاليد والنظم الإدارية والاقتصادية إلا نادرا.

أما من الناحية العقائدية فقد سادت الوثنية الجاهلية التي وسمت تلك الحقبة التارخية بسمة الجاهلية بلا منازع، وجعلت عصرهم من أشد عصور التخلف الفكري. فقد انتشرت عبادة الأوثان بين القبائل العربية وباتت مكة مرتعا واسعا لعبادة الأوثان. وأصبحت الكعبة وهي أول بيت وضع للناس، حين ذهب إبراهيم ليعبد الله وحده، محلا لعبادة 360 إلهاً[299].

وعلى الرغم من قناعة البعض منهم بهشاشة هذه العقائد من الناحية العقلية والفكرية، إلا أن رسوخ تقليدهم لعقائد الآباء والأجداد، وقف مانعا وحاجزا لهم عن إعادة النظر فيها أو الخروج عنها.

وقد كانت عبادة الأوثان في الأصل تقليدا، نُقل إلى العرب ثم تكرر فعلها على مدى عصور متتابعة حتى فقدت مضمونها وسبب تكونها. إلا أن الأجيال المتعاقبة لم تتساءل –إلا قليلا– عن سرّ تلك العادة أو نشأتها أو سببها، حتى باتت تقليدا راسخا، يُعد الخارج عليه عاصيا متعديا. وقد أحاطت بتلك الأصنام هالة من الخرافات والأضاليل والأوهام المتشابكة التي رسخت الإيمان بها، حتى صار لكل أهل دار في مكة صنم يعبدونه ويتمسحون به ويستشيرونه في أمورهم وسفرهم ...

تقول في ذلك الكاتبة كارن آرمسترونج :

---

[299] - De Lacy O' Leary, D.D, Arabia Before Muhammad, E.P. Dutton&Co, New York, 1927.pp.196-197. See also; D.S. Margoliouth, Mouhammed and the rise of Islam, G.P. Putnam's Sons, London, 1978.p. 27.

"This idole worship was a relatively new religious enthusiasm, which had imported from Syria by one of the Meccan elders who belived that they could bring rain……"[300]

من هنا كانت التقاليد والأعراف في الذهنية العربية – على وجه الخصوص– تشكل جذور الحياة الاجتماعية، التي تمتد لتطبع سلوكياتهم ومعاملاتهم بطابع خاص معين يتعذر الخروج أو الحيدة عنه. ثم إن هذا الطابع العام يصبح فيما بعد معيارا للحكم وللكشف عن كل من يشذ عنه.

فالأعراف، قواعد إجتماعية تَصفُ سلوك الأفرادِ في مجتمع ما، والتي إذا ما أُنتَهَكتَ، نجم عن ذلك رّفضٍ شديد أو عقابٍ. فالأعراف تَعتبرُ جزءا من عادات الناس الشعبية. وإنتهاكات الأعرافِ قَدْ قادتْ إلى فرضٍ عقوبات جزائية، كالمقاطعة أو العقاب البدني.

ومما لاشك فيه أن عملية إفراغ الإنسان من كل المعطلات والمثبطات الفكرية والنفسية، والسلوكية، التي تعيق حركته الفاعلة في التاريخ، وتكبل نظم الطاقة الحيوية لديه، وتبددها خارج دوائر البناء الحضاري المستقيم على الطريقة وتزويده بالقيم، والمبررات الفاعلة التي تسلك بطاقته على طريق الخير والعمل الصالح، هي التي تخلق في ذات الإنسان القدرة على التخلي عن كافة المعوقات الذهنية. وتبقى المعلومات الأسبق أكثر سيطرة على العقول، وما تتطلبه لتخرج من تلك العقول، يستغرق زمنا طويلا.

يقول بيار مانوني في هذا السياق:

" الأحكام المسبقة والمقولبات تتوسط هي أيضا الحياة الاحتماعية فكلاهما تعابير عن أفكار يقرّ بها الأفراد انتمائهم لرتبة ما وانتسابعم الضمني لأحكام تجري في الجماعة التي هي مرجعهم ...وهي تمثل المحتوى النفسي التي يدين بها هذا الفرد لأفكار الآخرين والتي غالبا ما يرثها رغما عنه".[301]

ويؤكد مانوني أن المعلومات **والأحكام المسبقة أو المقولبات تقوم مقام إسمنت اجتماعي** يحول دون التوصل إلى الجديد الذي قد يحمل في ثناياه الكثير من الصحة والصواب والعقلانية.

[300] - Karen Armstrong, Muhammad, p. 41.

[301]– بيار مانوني، علم النفس الجماعي، شركة انترسبيس للنشر، قبرص، بلا تاريخ، 78 وما بعدها.

والفرد يكتسب في الجماعة بفعل العدد الشعور بالقدرة على الإقدام على سلوكيات لم يكن ليفعلها وهو منفرد. وذلك من حيث زوال الشعور بالمسؤولية الذي يرد جماح الأفراد على الدوام.

ويوضح هذا المعنى الفيلسوف غوستاف لوبون حيث يقول:" إن أبرز أمر في الجماعة النفسية هو أن الأفراد الذين تتألف منهم، مهما كانوا ومهما تماثلوا أو اختلفوا في طراز حياتهم وأعمالهم وأخلاقهم وعقولهم، هو أنهم إذا ما تحولوا إلى جماعة، منحتهم هذه الجماعة ضربا من الروح الجامعة، وهذه الروح الجامعة تجعلهم يشعرون ويفكرون ويسيرون على وجه يخالف ما يشعر به ويفكر فيه ويسير عليه كل واحد منهم وهو منفرد..."[302].

وعلى هذا يتولد الشعور بالتخوف لدى الأفراد من الخروج على هذا التيار العام أو مواجهته وما يتبع ذلك من تألب العامة. وقد أسهم هذا الشعور في خلق حالة من الذعر في نفوس من يحاول التصدي لتيار التقليد السائد.

ثانيا: الوضع الحضاري بعد الرسالة

لقد كان الإنسان العربي بعيدا عن وعي ذاته، وإدراك ما يختزن في نفسه من قوى وطاقات. قبائل مبعثرة في الصحراء، لكل منها إله خاص بها ومصالح تتعدها وتحار بمن أجلها، لا يجمعها هدف واضح، ولا يوّحدها فكر قائد. إلا أن القرآن حرّر العقل من قيود الجهل والتبعية والتقليد الأعمى والإيمان بالموروثات المتهرئة ليسهم في صنع الإبداع الحضاري وعمران الأرض، ويعيد تشكيل العقلية الاستقرائية التي لا تعتمد على أحكام وتوقعات مسبقة.

لقد كانت العادات والتقاليد الاجتماعية، مسيطرة على العقول في تفكيرها، موجهة إلى النتائج التي توافق ما استقرت عليه في الأذهان، حائلة دون حركتها الحرة. من هنا جاء نهي القرآن عن التقليد بغير علم ولا عقل ولا هداية في آيات عديدة، منها: ﴿وإذا قِيلَ لَهُم اتبِعُوا مَاَ أَنزَلَ اللّهُ قَالَوا بَلْ نَتَبع مَا أَلفَينا عَليه آباءنا أو لَو كَانَ آباؤهُم لاَ يَعقلُون شَيئا ولا يهتدون﴾[303]. ويقول

[302]- غوستاف لوبون، المرجع السابق، ص 30.

[303]- البقرة:170

أيضا: ﴿ومَثلُ الذين كَفَروا كَمَثل الذي يَنعِقُ بمَا لا يَسمعُ إلا دُعَاءً ونداءً صُم بُكم عُمي فَهُم لاَ يَعقلون﴾[304]. وهكذا يعيب الله على الذين لا يستخدمون عقولهم ولا يستخدمون العلم والعقل ويصفهم بأنهم كالدواب.

كما **أسس القرآن للمنهج العلمي المدعم بالحجة والدليل والبرهان الهادف إلى إظهار الحقائق دون حمل الآخرين عليها بالقسر الفكري أو ممارسة الفرض والإكراه**. فهو يطالب الكفار بالبرهان على اتخاذهم آلهة من دون الله وهذه المطالبة كما يقول العلماء مطالبة تعجيز فيقول لهم: ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[305].كما أن القرآن الكريم يعتمد على العلم اليقيني لا على الظن والوهم.. فيقول ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[306].

ولما نزل القرآن، كانت أول كلمة فيه (اقرأ). فبدأت بتحويل العقل وإعادة صياغته على نحو من القراءة والتفكير والتعقل بنبرة متواصلة لم تنقطع طيلة فترة نزول القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة. وابتداء الوحي بكلمة ﴿ اقرأ﴾ له دلالة خاصة، فالبداية هي القراءة ثم يأتي القَسم بأداة الكتابة والتعلم ﴿القلم﴾. الأمر الذي يؤكد خصوصية هذه القراءة ومعالمها.

فهي قراءة باسم الله لهذا الكتاب الذي سينزل على النبي الكريم من جهة، ولهذا الكون والوجود المفتوح أمامه الذي كان يقضي الأيام ذوات العدد، يتأمله وينظر في عظمة خلقه. فالكون المفتوح أمامه من خلق الله، مهيأ مسخر للإنسان، والإنسان مزود بالقدرات الذهنية التي تمكنه من تسخير الكون وقوانينه الطبيعية والشعور بعظمة خالقه.

---

[304]- البقرة: 171
[305]- النمل: 64
[306]- الروم: 29

لقد أسس القرآن منذ أول كلمة (اقرأ) نموذجا جديدا للعقلية الواعية التي أراد صناعتها، العقلية التي تدرك أن لها مهمة على هذه الأرض تتمثل في إعمارها والإفادة من طاقاتها في بناء المجتمع والحضارة.

ويمكن الوقوف عند أبرز الإنجازات المعرفية التي أسست للإسهامات الحضارية لدى المسلمين فيما يلي:

- دعا القرآن الكريم وحضّ على استعمال مختلف القدرات العقلية وتنميتها وإعمالها، وعاب على الذين يعطّلون تلك القدرات ويهملون استعمالها رغم أنها أهم مزايا العقل الإنساني. قال تعالى في سياق الاستنكار على المعطلين للقدرات العقلية:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[307] . وقد ورد ذكر مادة التفكر في القرآن الكريم في تسعة عشر موضعا. ويراد به إدامة النظر العقلي في العلامات والإشارات والآيات للتوصل إلي الفروق والموافقات بين الأشياء، والأشياء والمعاني، والمعاني والاحتمالات[308].

من هنا أمر القرآن بتحريك العقل، واستثارة طاقاته في كل وقت، وعلى كل حالة بشتى الأساليب وتنمية مهارات منهج البحث التجريبي، وتأسيس العقلية المسلمة العلمية التي ترى النظر والتفكر في الكون والأنفس فريضة وعبادة تتقرب بها إلى الله عزّ وجلّ. الأمر الذي يفتح أمام العقل آفاقا واسعة لإدراك حقائق جزئية وكلية مشاهدة وغير مشاهدة على أسس عقلية لا تجري وراء الظنون والأوهام.

تقول المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاغليري:

---

[307]- سورة الحج، الآية 46.

[308]- للمزيد من التفصيل حول قدرة التفكر وأهميتها راجع: مالك بدري، التفكر من المشاهدة إلى الشهود، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، 1413هـ/1993م.

" بفضل الإسلام اندحرت الوثنية بكل صورها، وتحررت مفاهيم الناس عن الكون وعن الدين من المسوخ التي كانت تحط من قدرها. وأدرك الإنسان مكانته الرفيعة عندما أصبح يقول مع إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام 79) ويقول مع محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام 162و163).
لم يعد الإنسان يذل نفسه إلا أمام الخالق العظيم، فانطلقت إرادته من كل القيود وتحررت روحه من هوى الكهان وحفظة الألغاز وسماسرة الخلاص.. وبطلت الوساطة بين الإنسان وربه، وأصبح لا يرتبط بغيره من الناس إلا كما يرتبط إنسان حرّ بإنسان حرّ مثله"[309].

– وضع أساس علاقة الإنسان بالكون والحياة، فهي علاقة أداء مشترك متسق لإنفاذ إرادة الله في عمارة الأرض، والقيام بعبادته في محراب الكون. فإذا اعتلت هذه النظرة، اعتلت ثمرات السير الحضاري للإنسان في الأرض. وبقدر ما تعتل وتختل هذه العلاقة، بقدر ما ينتاب ويعتري ثمرات الجهد البشري العيب والخلل والفساد.

فالتكليف الرباني بإعمار الأرض جاء مطلقاً لجنس الإنسان، بصرف النظر عن طبيعة إيمانهم أو معتقدهم أو ثقافتهم. وعلى هذا الأساس كان التسخير المطلق للمادة لتكون في خدمة الإنسان بدون استثناء، ولتكون فاعلة بين يديه للنهوض بأمانة عمارة الأرض، لمنح الفرصة لجميع الخلق، للتنافس في إنجاز هذه المهمة العظيمة.

فالمادة مسخرة للإنسان لتسهيل مهمته بالنهوض بأمانة الاستخلاف الرباني لعمارة الأرض .. في إطار العبودية المشتركة لله تعالى ، حيث أن الكون كله، في عبادة الله تعالى إلا من أبى من الناس ، كما يؤكد ذلك قول الله تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.[310] والقرآن يعلّم

[309]- لورا فيشيا فاغليري، مرجع سابق، ص23.
[310]- الإسراء: 44

الإنسان أن المادة وكل القوى الكونية المسخرة للإنسان، لا تستعصي في عطائها على أمة من الأمم ولا تنحاز لأحد دون أحد، ولا تستعصي إلا على الجهل والجاهلين والمتقاعسين عن اكتشافها، أياً كانت ديانتهم. من هنا كان تأكيد القرآن على أهمية البحث في الكون وفق منهج واضح المعالم يكشف النقاب عن نظم الكون وقوانينه عن طريق النظر الحسي. ذلك النظر الذي جاءت الدعوة إليه في القرآن، متواصلة. فأعطى القرآن الحواس مسؤولية كبرى لتوظيفها في مهمة البحث والسير في الأرض كما يعبر عنه القرآن. كل ذلك تهيئة لها لأن تكون قادرة فعلاً على الاستجابة لأكبر عدد ممكن من المؤثرات والتناغم إلى أقصى حد ممكن إزاء ما يحيط بها من أشياء، وما يناديها من قيم بثها الله في كل مكان..

فالمنهج الذي أرسى القرآن قواعده يعني حشد الطاقات وتجميعها والتنسيق بين معطياتها لكي تنصب في الهدف الواحد فتكون أغنى فاعلية وأكثر قدرة على التجديد والإبداع والعطاء. ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ. فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[311].

فالقرآن يدعو إلى منهج، وقد تجلى ذلك في استثارته لعقل الإنسان طالباً منه تنمية حواسه وفق منهج، ونبذ كل ما من شأنه أن يؤدي إلى ركود ذهني أو شل لحركة الفكر. من هنا كان تأكيد القرآن على أهمية البحث في الكون وفق منهج واضح المعالم يكشف النقاب عن نظم الكون وقوانينه عن طريق النظر الحسي. ذلك النظر الذي جاءت الدعوة إليه في القرآن، متواصلة.

فالمنهج الذي أرسى القرآن قواعده يعني حشد الطاقات وتجميعها والتنسيق بين معطياتها لكي تنصب في الهدف الواحد فتكون أغنى فاعلية وأكثر قدرة على التجديد والإبداع والعطاء.

– أسس القرآن الكريم وأفعال النبي الكريم وأقواله، مبدأ الحفاظ على البيئة التي أودع الخالق فيها كل مقومات الحياة للإنسان. كما أرسى الأسس والقواعد والمباديء التى تضبط وتقنن علاقة الإنسان ببيئته لتتحقق من خلالها العلاقة السوية والمتوازنة التي تصون البيئة من ناحية، وتساعدها

311– الغاشية: 17-22

على أداء دورها المحدد من قبل الخالق العليم فى إعالة الحياة من ناحية أخرى. خلق الله البيئة وذللها سبحانه وتعالى وسخرها لخدمة الإنسان الذي استخلفه فيها. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[312] ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[313]. ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[314]

وفي موضع آخر:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[315]

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"[316].

والاستخلاف يعني أن **الإنسان وصيّ على هذه البيئة لا مالك لها**، إنه مستخلف على إدارتها واستثمارها وإعمارها أمين عليها. وعلى هذا عليه أن يتصرف فيها تصرف الأمين فيما لديه من أمانات فالأرض أرض الله.

وكان الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم يرّغب أصحابه ويدعوهم إلى استزراع النباتات وحمايتها والمحافظة عليها من أحاديث الرسول فى هذا المجال، كما في حديث: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ "[317].

---

[312]- الملك:15.
[313]- سورةالنحل:14.
[314]- لقمان:20.
[315]- الأنعام:165
[316]- رواه مسلم، باب الذكر والدعاء، رقم 4925.
[317]- رواه البخاري، باب المزارعة، رقم 2152.

وفي حديث آخر: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ "[318]." وحديث: (إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)[319].

وكانت الأوامر تصدر صريحة إلى قواد المسلمين تنهاهم عن قطع الأشجار أو تدميرها وضرورة المحافظة عليها كما أعطي الإسلام لولي الأمر الحق فى إقامة الحمي " المحميات الحيوية" إذا كان ذلك فى صالح المسلمين. وقد أدرك العالم الغربي فى السبعينيات من هذا القرن أهمية المحمية الحيوية فى حماية البيئة الحيوية، وهي الدعوة التى تبناها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا. وقد اعتبر النبي الكريم حماية البيئة من أي تلوث، من محاسن الأعمال التي يثاب عليها الإنسان. الأمر الذي يؤكد اهتمام النبي الكريم وعمق ربطه لتعاليم الدين بواقع الحياة والبيئة.

جاء في الحديث:" عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي بِأَعْمَالِهَا حَسَنَةٍ وَسَيِّئَةٍ فَرَأَيْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا إِمَاطَةَ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ"[320]. أي الحماية من التلوث ومحاربته بكافة أشكاله وصوره.

وقد امتدت رحمة النبي الكريم لتشمل الحيوانات والطيور والنمل في أدب رفيع وإنسانية سامقة، جاعلا من تلك العناية والرفق، عبادةيثاب عليها الإنسان، ويعاقب على نقضها. كما أكد على ضروة الرفق بالكائنات الحية والحفاظ عليها وعلى صغارها. ولا يخفى أثر ذلك في الحفاظ على النظام البيئي من التدهور.

جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا فَجَاءَتْ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تُفَرِّشُ فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا وَرَأَى قَرْيَةَ

---

[318]- صحيح مسلم، المساقاة، رقم 2904. مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، رقم 12910.

[319]- مسند أحمد، رقو 12512

[320]- مسند أحمد، رقم 20570

نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ قُلْنَا نَحْنُ قَالَ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ[321].

كما وضع النبي عليه الصلاة والسلام قواعد إيجابية في استثمار الأراضي والانتفاع بها، للقضاء على ما يعاني منه العالم اليوم وهو ما يعرف **بالتصحر**، الناجم عن إهمال الأراضي الزراعية. جاء في الحديث النبوي: " مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا فَإِنْ لَمْ يَزْرَعْهَا فَلْيُزْرِعْهَا أَخَاهُ"[322]

فالمسلم مطالب بأن يزرع أرضه بنفسه، أو يتيح لغيره زراعتها دون مقابل، أو يعطي أرضه لمن يزرعها ويتحمل جانباً من نفقات الإنتاج مقابل شطر من الناتج، وهي المزارعة. كما وضع النبي الكريم قانون إحياء الأرض الموات حين قال: مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ[323].

وأوجد الحافز والدافع للعناية بالبيئة والحفاظ عليها، وأمر الإنسان أن يفكر ويجتهد ليجد الحلول اللازمة لمعالجة القضايا البيئية المختلفة وإلا أصبح آثماً ومقتصراً من وجهة نظر الإسلام. بل جعل الإسلام الاهتمام بها وصيانتها من العبث من باب العبادة.

والله إذ أوجد المخلوقات والأشياء وأتاحها للإنسان أمره أن يتعامل معها بتعقل، فلا يسرف ولا يفسد، أي يتعامل بقدر لا ضرر فيه ولا ضرار، يأخذ بقدر حاجته وإقامة أموره دون استنزاف أو إجهاد أو إنهاك.

– وضع القرآن أصول المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة واستخدام النظر مع العقل فيقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾**[324]**

---

[321]- سنن أبي داود، في قتل الذر، رقم 4584.
[322]- صحيح مسلم، رقم 2862.
[323]- صحيح البخاري، المزارعة، رقم 2167
[324]- العنكبوت، 20.

ويبين الله تعالى أن ما يكسبه الإنسان من علم ومعارف بعد مولده إنما يحصله عن طريق السمع والبصر والعقل. ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[325].

– **أسس القرآن الكريم ما يمكن أن يطلق عليه اليوم علم مناهج البحث.** فقد أرشد إلى أساليب البحث في العلوم الكونية للوصول إلى الحقيقة العلمية. كما أكد أهمية المنهج التجريبي الاستقرائي الذي يراد به منهج استخراج القاعدة العامة أو القانون العلمي من مفردات الوقائع استنادا إلى الملاحظة والتجربة.

وينسب الكثير من المؤرخين وعلماء المناهج الفضل في اكتشاف هذا المنهج إلى العالم الانجليزي (فرنسيس بيكون) Francis Bacon الذي وضع إبان عصر النهضة الأوربية الحديثة كتابه المشهور "الأورجانون الجديد " ويعنى به منهج البحث التجريبي، ليعارض به أرسطو في كتابه " الارجانون القديم".

يقول الأستاذ روبرت بريفولت[326] Robert Briffault, في كتابه " بناء الإنسانية " عن أصول الحضارة الأوربية:

(إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه في الأندلس، ولم يكن لروجر بيكون ولا لسمّيه الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة، والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول هذه الحضارة). [327]

[325]- النحل: 78

[326]- عالم الاجتماع والانثروبولوجي والجراح والأديب الفرنسي الشهير. ولد في فرنسا عام 1876م، له العديد من المؤلفات منها: الأمهات. سقوط والحطاط الإمبراطورية البريطانية. توفي في انكلترا عام 1948م.

[327] - Robert Briffault, The making of humanity, London, 1938

ويقول بريفولت أيضا: (لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية إلى العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج: إن العبقرية التي ولدّتها ثقافة العرب في أسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب لظلام) ثم يقول: (إن ما ندعوه العلم قد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي).

– أسس القرآن المنطق التجريبي وذلك حين حثّ العقل في عدد هائل من آياته على التبصر والنظر في حقيقة الوجود والكون وآفاق النفس. قال تعالى: (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)[328] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى)[329] (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُون)[330].

لقد أسس القرآن العقلية العلمية حين دعا بتواصل إلى التأمل والتدبر في الكون وآيات الخلق في الأنفس والمجتمعات والأمم. وكانت تلك الدعوة تروم إلى حثّ العقول على التنقيب والبحث والسير في الكون واستخراج سنن وقوانين سيره. تلك القوانين المطردة التي لا تقبل التغيير ولا التبديل. وهي قوانين خلقها الله عز وجل وأودعها لتحكم الكون وتحدد سيرورته. قال تعالى: (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)[331]. تلك القوانين هي مفتاح تحقيق العمران وإقامة الحضارة المنشودة.

فالنظر العقلي في هذا الكون واستخراج مكنونات قوانين سيره والتعرف على أسراره ومن ثمّ توظيف ذلك كله لخدمة الإنسانية جمعاء من خلال توفير سبل أفضل للحياة الكريمة الهانئة، من

---

[328]– سورة يونس، الآية 101.

[329]– سورة الروم، الآية 8.

[330]– سورة الأعراف، الآية 185.

[331]– سورة الفتح، الآية 23.

أعظم غايات نزول القرآن الكريم. وهكذا تحررت العقلية العربية من الأغلال الفكرية التي كانت تكبلها بها هواجس الجهل والخرافة والشعوذة، لتنطلق لكتشف أسرار الكون وقوانينه.

لقد انتقل المسلمون وفق هذا المنهج إلى إجراء التجارب واستخلاص النتائج بكل مقومات الباحث المدقق، مدركين أن لمنهجهم الجديد شروطا وعناصر نظرية وعملية وإيمانية يجب الإلمام بها.

وبهذا **سبق علماء المسلمين إلى تحديد عناصر المنهج العلمي بما يتفق مع كثير من المسميات والمصطلحات الجديدة التي يتداولها اليوم علماء المنهجية العلمية مثل أنواع الملاحظة والتجربة (الاستطلاعية الضابطة الحاسمة) ومقومات الفرض العلمي، واستخدام الخيال العلمي في المماثلة بين الظواهر المختلفة والكشف عن الوحدة التي تربط بين وقائع متناثرة.**

ويبلغ تكامل المنهجية الإسلامية شأوه في تحديده لعلاقة النظرية بالتجربة. وقد أوضح كل من فيديمان Wiedemann وشرام Schramm مكانة العلماء المسلمين من تأسيس قانون النظرية والتجربة، وأثرهم الواضح في روجيه بيكون الذي زعم أنه مؤسس المنهج العلمي الذي يقوم على التجربة كأساس للبحث في العلوم الطبيعية.[332]

ويذكر فيديمان أن العرب كانوا سباقين إلى هذا الموضوع، بل إن ما توصل إليه روجيه بيكون أقل بكثير مما كان موجودًا عند العلماء العرب القدماء.

وقد يكون اكتشاف العلاقة بين النظرية والتجربة هو الذي نقل المنهجية الإسلامية والإنتاج الفكري من مرحلتي الأخذ والتمثل إلي مرحلة الإبداع التي بدأت في أواسط القرن الثالث الهجري. وبالرغم من أن مرحلة الأخذ والتمثل يفترض فيها ندرة الإبداع فإن علماء المسلمين تمكنوا من تأسيس علم لقياس الشعر، وهو علم العروض، وتطوير علوم اللغة والنحو، فضلاً عن تلك الكتلة الضخمة من الاصطلاحات الكلامية والفلسفية وعلم أصول الفقه، ونشأة

[332] -King, D. *Islamic Mathematical Astronomy.* Aldershot: Variorum, 1985, 2nd edition 1993. Wiedemann, E. *Aufsätze zur arabischen Wissenschaftsgeschichte*, 2 vols. Hildesheim: Olms, 1970.

علم الكيمياء. كما اعتُبر الجبر علمًا مستقلاً لا كفرع للأعمال الحسابية. كما وضعت طريقة لقياس محيط الكرة الأرضية.

من هنا كانت **الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى حلقة هامة في تاريخ العلم والحضارة بما قدمه علماؤها من تأسيس لمنهج علمى سليم ساعد على تطوير معارف جديدة**.

وهذا ما حدا **بأوجبست كونت**[333] August Kundtرائد المدرسة الوضعية أن يقول عن الإسلام أنه لم يصادر الإسلام العقل وإنما أعطى له قدرة على التحرر والتفكير والتبصر والقدرة على الإبداع الفني والجمالي والعمراني، ولا يمكن لدين أن يفعل هذا إلا إذا كان ديناً يستحق أن يُدرس بعمق.

لقد قام النبي الكريم بتطبيق هذا المنهج العلمي في أدق تفاصيل دعوته ومواقفه مع أفراد المجتمع والدولة. ومن مواقفه التي تظهر ذلك، موقفه يوم وفاة ابنه إبراهيم.

فقد حدث كسوف للشمس في ذلك اليوم، فبدأ الأفراد بمحاولات تفسير هذه الظاهرة الكونية بناء على وقوع حادثة وفاة ابنه إبراهيم التي تألم لها النبي الكريم كثيرا واشتد حزنه فيها. فإذا بالنبي الكريم يقف وقفة علمية منطقية، يجتث بها بذور الخرافة والأباطيل البعيدة عن منطق العقل بقوله: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ)[334]. فهذه الآيات العظيمة تسير وفق سنن كونية وقوانين طبيعية. الأمر الذي يؤكد عمليا أهمية الالتزام بالحقيقة العلمية حتى في أصعب المواقف.

"Muhammad, the inspired man who founded Islam, was born about A.D. 570 into an Arabian tribe that worshipped idols. Orphaned at birth, he was always particularly solicitous of the poor and needy, the widow and the orphan, the slave and the downtrodden. At twenty, he was already a successful businessman, and soon became director of camel caravans for a wealthy widow. When he reached twenty-five, his employer, recognizing his merit, proposed marriage. Even though she was fifteen years

---

333- أوغست كونت (1798-1857) " يعتبر تلميذا لـ سان سيمون وهو فيلسوف فرنسي. أسس المذهب الوضعي القائل ان لا سبيل إلى المعرفة إلا بالملاحظة و الخبرة. أوغست كونت من مؤسسي علم الإجتماع. انظر الموسوعة الحرة ويكبيديا. ومن أهم أعماله كتاب " الفلسفة الوضعية" الذي ظهر لأول مرة في ستة أجزاء (1830- 1842).

334- سنن أبي داود، رقم 1006

older, he married her, and as long as she lived, remained a devoted husband. "Like almost every major prophet before him, Muhammad fought shy of serving as the transmitter of God's word, sensing his own inadequacy. But the angel commanded 'Read.' So far as we know, Muhammad was unable to read or write, but he began to dictate those inspired words which would soon revolutionize a large segment of the earth: 'There is one God.' "In all things Muhammad was profoundly practical. When his beloved son Ibrahim died, an eclipse occurred, and rumours of God's personal condolence quickly arose. Whereupon Muhammad is said to have announced, 'An eclipse is a phenomenon of nature. It is foolish to attribute such things to the death or birth of a human being. "At Muhammad's own death an attempt was made to deify him, but the man who was to become his administrative successor killed the hysteria with one of the noblest speeches in religious history: 'If there are any among you who worshipped Muhammad, he is dead. But if it is God you worshipped, He lives forever." [335]

لقد أحدثت تلك التعاليم القرآنية والسلوكيات النبّوية، هزة قوية في عقل الإنسان العربي–الذي جبل على الإيمان بالخرافة والشعوذة قرونا من الزمن– وفجرّت ينابيع العلم والمعرفة لكل ما يحيط به من ظواهر ووقائع وأحداث، وأدخلته في مسرح حركة التاريخ.

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: (إن العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال ثم نظموها ورتبوها وأهدوها إلى الغرب فحسب، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب، والجبر، والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع، لقد قدم العرب أثمن هدية : وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم). وتتابع قولها في ذلك:" إن لعلم الفلك لدى المسلم معنى دينيا عميقا. فالنجوم ومدارها والشمس وعظمتها والقمر وسيره، لبرهان ساطع على عظمة الله وقوته، الخالق الذي جاء باسمه النبي العربي، مبشرا بأنه خالق السماوات والأرض وجاعل الظلمات والنور.."[336]

- أسس القرآن مناهج النظر في قوانين الحركة التاريخية الثابتة الموجودة في صميم التركيب الكوني وفي صميم العلاقة المتبادلة بين الإنسان والكون. فالتاريخ البشري لا يتحرك على غير قوانين تحكمه أو سنن ونواميس تهديه. من هنا جاء التركيز في القرآن على الوعي التاريخي بمعنى

---

[335] -James A. Michener, "Islam: The Misunderstood Religion," in READER'S DIGEST (American edition), May 1955, pp. 68-70.

[336]– زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص 130.

التبصر الدائم والهادف بالتاريخ القريب والبعيد، الذاتي والموضوعي، من خلال التوغّل المركّز في قراءة صفحات التجارب البشرية الكثيرة والمتنوعة، وفحصها وتدبّر أبعادها وخلفياتها، واكتشاف المؤثرات والسنن التي ساهمت في بعثها وإيجادها؛ قصد التزوّد والاعتبار، ومحاولة تفهم الأسس السيكولوجية للكثير من الأحداث والصراعات والانفعالات والتأثيرات والحروب.. الحاصلة والمتولدة عبر الأيام في تاريخ البشرية الحافل والطويل. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[337].

- أسس القرآن **المعايير الأخلاقية للبشرية في مجال البحث العلمي**. وتتضح هذه المعايير جلية في وصايا العلماء الكبار لتلاميذهم كما جاء في وصية جابر بن حيان بالاهتمام بالتجربة وعدم التعويل إلا عليها، مع التدقيق في الملاحظة، والاحتياط وعدم التسرع في الاستنتاج، أو ما يطلق عليه اليوم، **الحذر من التعميم** وعدم القفز إلى النتائج.

وفي هذا يقول جابر بن حيان أيضًا: "وأول واجب أن تعمل وتجري التجارب؛ لأن من لا يعمل ولا يجري التجارب لا يصل إلى أدنى مراتب الاتفاق، فعليك يا بني بالتجربة لتصل إلى المعرفة.[338]

وفي كتاب "المناظر" للحسن بن الهيثم عن "علم البصريات"، يقول: ومبدأ العلم أن نستأنف النظر في مباديه ومقدماته، ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب، مع انتقاد المقدمات، والتحفظ من الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا من جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي به

337- الروم: 9.

338- موريس شربل، موسوعة علماء الكيمياء (حياتهم وآثارهم). دار الكتب العلمية.

يثلج الصدر، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي يقع عندها اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف؛ وتحسم بها سوار الشبهات[339].

وما ذكره هؤلاء الاعلام من معايير أخلاقية في بحوثهم، يعود إلى ما أسسه القرآن وحضت عليه سيرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، من تأكيد اتباع العدل وتدريب النفس عليه حتى يصبح سجية للنفس الإنسانية، مما يسهّل خلاصها من نوازع الهوى وبواعثه المسوقة إلى الظلم والتجاوز على الآخرين.

ويرى علماء النفس أن الهوى ميل طبيعي لإرضاء النزعات الشخصية مما يجعل المرء يتعجل الوصول إلى نتيجة قد ترضيه وتريحه ولو أنها زائفة أو مؤقتة. الأمر الذي يدفع به إلى البحث عن كل ما يتماشى مع ميوله الشخصية فيبرزها في الإطار الذي يرضيه ويفسرها بالأسلوب الذي يدعم ما يراه بغض النظر عن كل ما يمكن أن يناقض ذلك[340].

من هنا تأسست العقلية المسلمة في العصور الخيرية الأولى، تنتهج نهجا فكريا سليما في التوصل إلى العلوم والحقائق وأحكام المسائل المختلفة. فبرزت العقلية الناضجة النائية عن التعصب للأشخاص، الواقفة مع الحجة والاستدلال، السائرة مع الحق أينما سارت ركائبه، المستقلة مع الصواب حيث استقلت مضاربه. تلك العقلية التي متى ما بدا لها الدليل، أخذت به وسارت على نهجه. وعلى هذا لم تظهر مناهج الاستبداد بالرأي أو التعصب أو نفي التعددية الفكرية بأي شكل من الاشكال.

كما أدى الالتزام الأخلاقي لدى صنّاع الحضارة الإسلامية، بأساليب تحري الصدق في التراث الديني المنقول إلى تشكُّل وتطور المنهجية الإسلامية. وكان لوضع ضوابط التفكير وإلى الاحتكام إلى العقل، الفائدة الجمة عندما اتجهت أنظار مفكري وعلماء المسلمين إلى العلوم العقلية والطبيعية.

---

[339]- ابن الهيثم، محمد بن الحسن: كتاب المناظر، المقالات في الإبصار –تحقيق عبد الحميد صبرة، المجلس الوطني للثقافة (الكويت، 1983م) ص65.

[340]- Straughn, R. Wringley, J. eds, Values & Evaluation in Education, London, Harper& Row Pub. 1980.p. 85.

وكان أيضا التزامهم بالبدء بما انتهى إليه الأولون، أو بما يعرف اليوم بمسح التراث أو الأدبيات الخاصة بمجالات المعرفة أو الدراسات السابقة، إحدى مراحل الممارسة المنهجية.

و**لم يقف الأمر عند حد الأخذ من المعارف الأجنبية وتمثلها كما هي، بل كان النقد المنهجي لهذه المعارف يتم بأسلوب أخلاقي، دون انتقاص قدر أصحاب هذه المعارف أو تجريحهم**، انطلاقًا من المعايير الأخلاقية التي كرستها نصوص القرآن والسيرة النبوية.

يقول البيروني: "إنما فعلت ما هو واجب على كل إنسان أن يعمله في صناعته؛ من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمِنَّة، وتصحيح الخلل إن عُثِر عليه بلا حشمة، وتخليد ما يلوح له فيها تذكره لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده"[341].

وفي كلامه إشارة واضحة إلى الاهتمام بالمنهج النقدي. ويرى الدكتور فرانز روزنتالRosenthal أن روح النقد قد ظهرت عند المسلمين منذُ العصور الأولى من تاريخهم، ولتنظيم العمل بهذا المنهج؛ وصفوا له مبادئ للسير عليها منها: احترام السلف، على الرغم من وقوع البعض منهم في زلات وهفوات، كما لا يمنع الاستدراك على الأسلاف بشريطية ألا ينطوي ذلك الاستدراك على الإسراف في التجريح والتضليل[342].

و يقول جاك . س . ريسل عن الأطباء العرب في كتابه الحضارة العربية: "قد جمعوا دون كلل – وهم ناقدون مدققون غاية التدقيق، ومتأنون وذوو رأي صلب– ومن الآن وصاعدا أصبح الطب تجريبياً"[343].

– **أرسى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، قواعد حضارة إنسانية، جاءت لبناء الإنسان**. فهي تتعامل مع الإنسان أيا كان موقعه، فلا ترتبط بإقليم جغرافي، ولا بجنس بشري، ولا بمرحلة تاريخية، ولكنها تحتوي جميع الشعوب والأمم، وتتجاوز كافة الحواجز العرقية والإقليمية

---

[341]- فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ص 51. عبد الحليم منتصر، أبو ريحان البيروني،دار المعارف (مصر، 6891م) ص112. وانظر كذلك: زكية بالناصر القعود، المنهج النقدي عند الأطباء المسلمين، موقع جيل الثقافي. http://www.jeel-libya.com/profiles/thoughtview.asp?field=content&id=1792

[342]- فرانتز روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، 1961م، ص133.

[343]- جاك س .رسل: الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، بدون تاريخ، ص194.

والطبقية والمذهبية واللونية، لتحقق للإنسان سعادته ورفاهيته، وتجعل كل عمل يُقصد به تحقيقُ هذه الغاية، عمل إنساني حضاري يثاب عليه صاحبه.

لقد تشكلت هذه الحضارة لتتعامل مع الإنسان ذاته، فتستجيب لمطامحه وحاجياته في توازن تام، وتحقق أهدافه واهتماماته في اتساق كامل وإعراض شديد عن أي حاجز عنصري، يفرّق بين الناس حتى وإن كان ذلك باسم الدين. وبهذه السمة أصبحت الحضارة الإسلامية تجسيدا واقعيا لعالمية الإسلام ورسالته باعتباره ديناً عالمياً لكل البشر. وظهر أثر ذلك جليا من خلال إسهام كافة الشعوب الداخلة في الإسلام في بناء وصياغة حضارته مع مراعاة أن تبقى لغة الحضارة الجديدة هي اللغة التي نزل بها القرآن(العربية).

فسلوكيات الإنسان وقيمه وأخلاقياته هي التي تحدد وترسم مسار العطاء الحضاري وكيفية توظيفه لصالح البشرية وليس جنسه أو عرقه. **والمعيار الدقيق في الحكم على إيجابية أمة من الأمم وعلى صحة علاقتها بالحضارة، هي درجة ومساحة الكرامة والعدل، التي يتمتع بها الإنسان في كنف تلك الحضارة.**

والقرآن الكريم يتحدث عن نماذج حضارية من التاريخ مثل حضارات قوم عاد وثمود وأهل مدين وقوم فرعون، تخلفت في تحقيق المعيار القيمي الأخلاقي لشعوبها، فأدى ذلك إلى اندثارها رغم كل ما بذلته من جهود ي البحث عن مكنونات الأرض وتفعيل طاقاتها وأشادوا صروحاً شامخة من البناء الحضاري المادي، التي لا يزال الكثير من آثارها شاهداً على عظمة إبداع ومهارات تلك الأقوام في أزمنتهم. ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾[344].

لقد ظهر أثر هذه السمة البارزة في الحضارة الإسلامية من خلال، تقديمها مختلف إنتاجاتها وكشوفاتها للعالم بأسره دون تفرقة أو تمييز وجعلها في متناول الجميع أيا كان. فقدّمت للإنسانية

---

[344]- سورة الفجر، 10-12

عطاءً زاخراً بالعلم والمعرفة والفن الإنساني الراقي، وكان عطاؤها لفائدة الإنسانية جمعاء، لا فرق بين عربي وعجمي، أو أبيض وأسود، بل لا فرق بين مسلم وغير مسلم.

كما أدت هذه السمة إلى صبغ الحضارة الإسلامية بالتسامح والمحبة مع شعوب العالم كله، مما أسهم في انفتاحها على الحضارات والثقافات الإنسانية التي عرفتها شعوب العالم القديم، ومن ثمّ تمثل كل ما هو إيجابي فعّال في بناء الحضارة واستمراريتها ونموها وتنوعها. الأمر الذي أدى إلى إثراء الحضارة الإسلامية وتنوعها من خلال تنوع وتعدد الأجناس البشرية الداخلة في صياغتها. فقد اجتمع في بوتقتها العربي والفارسي والرومي والتركي والأفريقي ..الخ ذلك من أجناس العالم. وتجمعت خصائصهم وطاقاتهم لتتعاون في صياغة أمة واحدة وحضارة واحدة على قدم المساواة المطلقة التي تربط بين البشر.

من هنا ساهم الكثيرون من غير المسلمين في صنع الحضارة، والوصول إلى أرفع المناصب في الدولة، ليدلي بدلوه في نمو الحضارة الإسلامية ويسهم في صياغة بعض إنجازاتها.

وهكذا تمّ التلاقح الفكري والثقافي بين المسلمين ومختلف الأقوام والأجناس، ووصلت الحضارة الإسلامية درجة النضج والكمال. وشاركت غالب طبقات المجتمع وشرائحه في تلك الحركة العلمية والعمران الحضاري. وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل.
وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين.[345]
ويؤكد المستشرق هورتن –أستاذ فقه اللغات السامية بجامعة بون– قدرة المسلمين على التلاقح الفكري والانفتاح على حضارات وثقافات الأمم الأخرى مع المقدرة على إبقاء تعاليم القرآن الكريم والسنة مهيمنة، قاضية حاكمة على ذلك كله في نسق معرفي نادر المثال. يقول في ذلك:" إن روح الإسلام رحبة فسيحة بحيث أنها تكاد لا تعرف الحدود، وقد تمثلت كل ما أمكنها

---

[345]- Nicholson, *Literary History of the Arabs*, Cambridge, 1930, p281.

الحصول عليه من أفكار الأمم المجاورة، فيما عدا الأفكار الملحدة، ثم أضفت عليها طابع تطورها الخاص»[346].

ثالثا: ميادين الإنجازات الحضارية للمسلمين

لم تكن هذه التربية العقلية النوعية من النبي الكريم محصورة في جانب تنظيري بعيد عن واقع الحياة، بل كانت سلوكاً وتطبيقا عمليا وروحيا، يدرّب المسلمين ويغذي فيهم جنين الحضارة الإسلامية المنشودة. كان يتدرج بها من مرحلة إلى مرحلة، بصبر وأناة، وحكمة، حتى نقلها من عالم الجاهلية إلى عالم الحضارة.

يقول الكاتب توماس كارليل في عنوان فصله Hero as a Prophet"ذلك: "لقد أخرج الله العرب بالاسلام، من الظلمات إلى النور، وأحيى به من العرب أمة هامدة وأرضاها مدة، وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب، خاملة فقيرة تجوب الفلاة، منذ بدء العالم، لا يُسمع لها صوت ولا تُحس منها حركة. فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدّنه ورسالة من قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة، والغموض نبهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة حريقاً، وسع نوره الأنحاء وعمّ ضوء الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس وأشرقت دولة الاسلام حقباً عديدة، ودهور مديدة بنور الفضل والنبل، والمرؤة والبأس، والنجدة. ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة، وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة، ومنبع القوة، وما زال للأمة رقي في درج الفضل، وتعريج إلى ذرى المجد، ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان، ألستم ترون في حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم، كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال، التي كان لا يبصر بها فضل، ولا يرجى فيها خير. فإذا هي بارود سريع الانفجار وما هي برمل ميت، وإذا هي قد

---

[346]– سهيل فرح، الفلسفة العربية المعاصرة، مركز دراسات الوحدة العربية، 1988م، ص263.

تأججت واشتعلت، واتصلت نيرانها بين غرناطة ودلهي. ولطالما قلت أن الرجل العظيم كالشهاب من السماء، وسائر الناس في انتظاره كالحطب، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبو"[347].

وقد برزت هذه النقلة النوعية المنهجية وتجسدت في صور وأشكال عدة. ففي القرن الأول من الهجرة كانت الملامح مختلطة والسمات غير واضحة المعالم. لكن ما إن أشرف القرن الثاني على الانتهاء حتى بدأت الملامح تبرز وتتضح. فنشأت العلوم العربية والعلوم الاسلامية والعلوم العقلية والعلوم الرياضية والعلوم الطبيعية والعلوم الانسانية ... وأخذت العلوم تترى والقرائح تتفتق والطاقات تتفجر في حركة طليعية رائدة وعملية حضارية متألقة.

وفي تلك الاجواء الحرّة دخل المجتمع في حركة فقهية واجتماعية هائلة، وقام العلماء بتلبية حاجات المجتمعات من خلال اجتهاداتهم وآرائهم المتفاعلة مع الواقع ومستجداته المتزايدة، وفق منهج القرآن الكريم والسنة. فازدهرت الحركة العلمية وأينعت ثمارها في عدد من المدارس والمناهج الفكرية السائرة على نهج النبوة والرسالة، فكان العصر العباسي الأول (132-232هـ) عصر الإبداع في الحضارة الإسلامية[348].

ولانتشار وإزدهار تلك الحركة العلمية الهائلة عوامل عديدة من أهمها، اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء، وتوجيه اهتمام خاص للمعرفة. فقاموا بتقريب العلماء وإعلاء منزلتهم في المجتمع وخصصوا مجالس للعلم والمناظرة. ونبغ العديد من العلماء في مختلف حقول العلم والمعرفة، وظهر الأئمة المجتهدون فازدهرت حركة التدوين في مختلف الفروع العلمية.

وكان لانبساط رقعة الدولة الإسلامية ووفرة ثرواتها واستقرار اقتصادياتها، أثره البالغ في خلق تلك النهضة العلمية الثقافية، التي لم يشهدها الشرق بأسره من قبل، حتى بدا الناس جميعا في تلك الأجواء طلابا للعلم وأنصارا له[349].

---

[347] - Thomas Carlyle, On Heroes, Hero-Worship, & The Heroic In History, 1993, University Of California Press, p. 38

[348] - Hamilton Gibb. *Studies on the civilization of Islam*. Princeton University Press. 1982. p.66. Bertold Spuler. *The Muslim World. Vol.I The Age of the Caliphs.* Leiden. E.J. Brill. 1960. p.29.

[349] - R.A. Nicholson, *Literary History of the Arabs*, Cambridge, Cambridge University Press, 1956, p.281. Marshall G. S. Hodgson (Edited, with an Introduction and Conclusion, by Edmund Burke III) *Rethinking World History: Essays on Europe, Islam and World History* (Cambridge 1993

وكان الجمع بين الاجتهاد في العلوم الشرعية والمسائل الفقهية والإبداع في العلوم الطبيعية، ديدنا للعلماء وطلبة العلم. فكان النجاح الذي حققه المسلمون في مختلف ميادين العلم والمعرفة، وأضحت الحضارة الإسلامية محصّلة لتفاعل تكاملي بين دراسة العلوم الطبيعية والعلوم الشرعية دون ثمة فاصل بينهما.

وهذه الحقيقة لم يستطع إنكارها المستشرق جولد تسهيرحين قال: «كذلك يصدق على القرآن ما قاله في الانجيل العالم اللاهوتي التابع للكنيسة الحديثة (بيتر فيرنفلس): كل امرىء يطلب عقائده في هذا الكتاب المقدس، **وكل امرىء يجد فيه على وجه الخصوص ما يطلبه**»[350]. فعالِم الطبيعة والفيزياء في معمله، وعالِم الشريعة في مسائله وفتاويه ...كلهم يجد في القرآن الكريم مبتغاه.

فالعلم في المفهوم الإسلامي يشمل كل جوانب النشاط الإنساني والأوضاع والقيم والأخلاق والعادات والقوانين الطبيعية ووسائل تسخيرها في خلافة الأرض التي هي مهمة الإنسان الأولى في الوجود. تلك المهمة التي لا يستطيع الإنسان تأديتها على الوجه الأفضل إلا بالعلم. من هنا كان **العلم في الإسلام فريضة. ولم يكن العلم في الحضارة الإسلامية منفصلا عن الدين مطلقا، بل كان أداته الفعّالة**[351].

وعلى هذا لم يقع العلماء المسلمون فريسة التفريق بين العلوم الشرعية والعلوم الطبيعية وإنما جعلوهما يلتقيان على نحو من التكامل والتوازن، فلا خطر على العلم من الدين ولا خوف من تأثير العلوم الدنيوية على تعاليم الدين.

من هنا برزت ظاهرة الجمع بين العلوم الفقهية والعلوم الطبيعية بين عدد كبير من علماء المسلمين، فالكندي مثلاً (توفي260 هـ/873 م) جمع بين الفلسفة والمنطق والحساب والفلك

---

[350]- أجنتس جولديسهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، مصر، ومكتبة المثنى، بغداد، 1955. 1974م، ص 3.

[351]- حول المقارنة بين حركة العلم الغربي والإسلامي راجع ما كتبه المفكر البريطاني: روم لاندو، الإسلام والعرب، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1977م، الطبعة الثانية، ص 280-281.

والهندسة والسياسة والطب والفقه وأصول العقيدة، ومثله الفارابي والرازي وابن النفيس وعبد اللطيف البغدادي وابن رشد وابن الطفيل والسمعاني وغيرهم.

وبهذا بات للعلم مفهوم حضاري إيماني، وصارت علوم الطبيعة والإحاطة بها طريقا للإيمان. فكان الارتباط بين المعرفة العقلية والدين، وعلم الطبيعة وعلوم الشريعة والعقيدة ..ارتباط تفاعل وتمازج ومحاولة لصياغة حضارية متكاملة متوازنة. فبرزت العلوم والآداب والحكم والصنائع والفنون ..فكانت العلوم بأسرها عناصر لهذه الحضارة.

يقول توماس كارليل في ذلك: " وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون، وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً، وجدير أن يصدق به. وإنما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به. وهذا الشيء هو روح جميع الأديان، وروح تلبس أثواباً مختلفة، وأثواباً متعددة، وهي في الحقيقة شيء واحد. وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماماً كبيراً لهذا المعبد الأكبر . الكون . جارياً على قواعد الخالق، تابعاً لقوانينه، لا مجادلاً عبثاً أن يقاومها ويدافعها. لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة، والنحل الباطلة، فابتلعها، وحق له أن يبتلعها؛ لأنه حقيقة، وما كان يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب، وجدليات النصرانية، وكل ما لم يكن بحق؛ فإنها حطب ميت"[352].

وقد أجمع العلماء على أن الحضارة الإسلامية تحتل مكانة رفيعة بين الحضارات الكبرى التي ظهرت في تاريخ البشرية، كما أنها تعد من أطول الحضارات العالمية **عمراً، وأعظمها أثراً في الحضارة العالمية**. **فقد** أسهم المسلمون في تأسيس حضارة مميزة غيرّت وجه التاريخ وكانت من أهم العوامل وراء تفتق الحضارة الغربية الحديثة وبزوغها[353].

فقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس العلم والمعرفة وعملت على حمايته، وجعلت منه فريضة يتقرب بها المسلم إلى الله وعممت التعليم والتربية وحرّمت عملية احتكار العلوم. وبرزت

---

[352] - Thomas Carlyle, ibid, p. 38. Simon Heffer, *Moral Desperado - A Life of Thomas Carlyle*, Weidenfeld & Nicolson, 1995, http://en.wikipedia.org/wiki/Thomas_Carlyle

23– عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، القاهرة، 1989م، ص 10.

العبقرية في مختلف ميادين العلم والمعرفة، واستفاد الشرق والغرب من العلوم العربية الإسلامية،حيث كانت الحواضر الإسلامية مراكز يتجه اليها طلاب العلم من كل حدب وصوب[354].

وقادت الحضارة الإسلامية مسيرة العلم والمعرفة في القرون الوسطى التي تعدّها أوروبا عصور الظلام، وكان العالم الإسلامي يعيش أزهى مراحله. وكان العرب أئمة العلم وحدهم في الوقت الذي دامت فيه همجية أوروبة زمنا طويلا كما يقول غوستاف لوبون[355].

وشمل تفوق المسلمين وإنجازاتهم الحضارية، مجالات العلوم المختلفة كالطب والعلوم، الجغرافيا، الفلسفة، الأدب والفنون. وإنه لمن الصعب حقا متابعة ذلك الأثر في مختلف العلوم والفنون والآداب أو حتى مجرد الإشارة إليها. إلا أن نظرة فاحصة لما حوته فهارس التراث الإسلامي (لابن النديم وحاجي خليفة، وأبروكلمان وفؤاد سزكين وغيرهم)، يمكن أن تقدم لنا تصورا عاما لتلك المنجزات الهائلة التي حققتها الحضارة الإسلامية عبر قرون من الزمن.

ويكفي الإشارة في هذا السياق إلى ما قام به جورج سارتون في كتابه " Introduction to the History of Science".

فقد قام بتقسيم النشاطَ العلميَّ على مدى التاريخ، إلى فترات تستمر كل منها نصف قرن، وذكر اسم شخص يرمز لكل نصف قرن على مستوى العالم، فمن سنة 750م إلى سنة 1100م، على مدار 350 سنة، كان كل العلماء الرامزين من العالم الإسلامي من أمثال: جابر بن حيّان، والخوارزمي، والرازي، والمسعودي، وأبو الوفاء، والبيروني،كانوا مسلمين، عرباً وأتراكاً وأفغاناً وفرساً، نبغوا في علوم الكيمياء والرياضة والطب والجغرافيا والطبيعة والفلك[356]. ولم يكن الواحد

---

[354]- ماهر عبد القادر وحسان حلاق، تاريخ العلوم عند العرب، مكتب كريدية أخوان، بيروت، 1991م، ص 5.

[355]- غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 567.

[356] - Sarton, George : Introduction to the History of Science, Carnegie Institution of Washington , by The Williams and Wilkins Company, Baltimore..

من هؤلاء الأعلام بارزا في علم واحد أو فن من الفنون، بل كان معظمهم موسوعيين كما اعترف لهم بذلك مفكرو الغرب أنفسهم[357].

وبلغت العلوم العربية ذروتها في القرنين السابع والثامن الهجري مثل اكتشاف العلامة ابن النفيس للدورة الدموية، وعرض لسان الدين الخطيب لقضية العدوى، ووضع علم حساب المثلثات من قبل نصير الدين الطوسي، والاكتشافات الخطيرة والمتعددة في علم الرياضيات لغيّاث الدين الكاشي، والمحاولات الرائعة في علم الفلك لقطب الدين الشيرازي وابن الشاطر، ووضع ابن خلدون لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع[358]..

يقول في ذلك جورج سارتون:

"During the reign of **Caliph Al-Mamun** (813-33 A.D.), the new learning reached its climax. The monarch created in Baghdad a regular school for translation. It was equipped with a library, one of the translators there was Hunayn Ibn Ishaq (809-77) a particularly gifted philosopher and physician of wide erudition, the dominating figure of this century of translators. We know from his own recently published Memoir that he translated practically the whole immense corpus of Galenic writings….Besides the translation of Greek works and their extracts, the translators made manuals of which one form, that of the 'pandects,' is typical of the period of Arabic learning. These are recapitulations of the whole medicine, discussing the affections of the body, systematically beginning at the head and working down to the feet."[359]

ويقرر اليكسي جورافسكي، في كتابه " المسيحية والإسلام" أن:

وراجع: التويجري، خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، مرجع سابق. وانظر عبد العزيز بن عثمان التويجري، تقديم كتاب (بُناة الفكر العلمي في الحضارة الإسلامية)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، 2002. الشريف، دراسات في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص 300 وما بعدها. وحول إنجازات العلماء المسلمين راجع: محمد عبد الرحمن مرحب، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، منشورات عويدات، 1988، طبعة ثانية. سعيد مريزن عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب، مكة المكرمة، 1987.

[357]- Pearce Williams and Henry John Steffans, The History of Science in Western Civilization, Washington, DC: University Press of America, 1977.p. 224

[358] - John William, Intellectual Development of Europe**.** T. Arnold and A. Guillaume, "The Legacy of Islam," Oxford University Press, 1931.

[359] - George Sarton, Introduction to the History of Science and the New Humanism, Indiana University Press, 1962. p. 94.

" العالم يدرك اليوم ويعي بوضوح شديد، ذلك **الدور الفعال، الذي لعبته شعوب الشرق الأدنى وثقافاتها، وتجاربها الروحية في نشوء الحضارة الاوربية وتطورها**. فلقد كان الشرق الأدنى بالنسبة لأوروبا نوعا من المنبع أو المصدر، الذي استمدت منه عناصر ثقافته، لم تكن في متناول يديها قبل احتكاكها بهذه المنطقة الحيوية. وفي الوقت ذاته كان الشرق الأدنى هو المحرض الدائم، الذي شكّل تحديا لأوروبا من خلال طرحه أفكارا جديدة، وإشكاليات غريبة معقدة، اضطرتها إلى البحث المتوتر والنشيط بغية التوصل إلى حلول معقولة لتلك الاشكاليات والمعضلات. وبدءا من المرحلة الأخيرة في القرون الوسطى، لعبت الثقافة العربية الإسلامية دور المنافس، والمعارض عقليا وروحيا لمكونات الحضارة الاوروبية في تلك الآونة"[360].

ويقول في ذلك المؤرخ ستانودو كب Stanwood Cobb:" قليلون من هم على علم بما أسهم به العالم الاسلامي من جهود متميزة في تقدم الإنسانية حتى في عصرنا المستنير في حين أن هذه الحضارة لم تكن تقود العالم في مجالات العلم طيلة خمسة قرون فحسب، وإنما استوعبت كل طاقة الإنسانية في السعي المنظم وراء المعرفة خلال تلك الفترة"[361].

وواقع الأمر أن **العلاقة بين الحضارات تقوم على أساس التأثر والتأثير، فليس ثمة حضارة إلا وقد أفادت من محصلات الحضارات السابقة لها، كما أنها تترك بصماتها على ما يعقبها من حضارات من خلال صيغ ومفاهيم حضارية متنوعة**[362].

وقد كان تأثير الإسلام في أوروبا (في القرون الوسطى) شاملا ميادين كثيرة، ومهيمنا على جوانب متعددة ويمكن القول إن هذا التأثير عمّ مستويات الحياة الاوروبية جميعا، ونال أكثر المجالات والبنى اختلافا وتباعدا، بما في ذلك النواحي المعيشية والتجارية والاقتصادية والتقنية والسياسية والآداب والعلوم والفلسفة والدين. وقد أصبحت مسائل العلاقات الحضارية العربية . الأوروبية حقلا خصبا لمجموعة لاتحصى من البحوث والدراسات والاطروحات الاكاديمية

[360]- أليكسي جوار أفسكي، الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1996م، ص 33-34.

[361]- ستانوود كب، المسلمون في تاريخ الحضارة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية/ 1405هـ/ 1985م، ص 21.

[362]- فيليب حتي، تاريخ العرب، بيروت، 1953م، ج2، ص 139.

والندوات العلمية المختصة.

يقول غوستاف لوبون: " كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم، وأن المسلمين هم الذين فتحوا لأوربا ماكانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، بتأثيرهم الثقافي، فكانوا بالفعل ممدنين لنا وأئمة لنا طيلة ستة قرون". ويقول في موضع آخر:" أوروبة مدينة للعرب بحضارتها، والحق أن تأثير العرب في الغرب ليس أقل منه في الشرق،..ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبة حينما أدخلوا الحضارة إليها. إذا رجعنا إلى القرن التاسع والعاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانية ساطعة جدا، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون.."[363].

وقد انتقلت الحضارة الإسلامية وتمّ نقل علومها ومعارفها إلى أوروبا من عدة طرق مثل: الأندلس، صقلية، بلاد الشام، ومعابر حضارية أخرى كالبندقية وجنوى وبيزا وقبرص ورودوس وسواها في وقت كانت فيه أوروبا تعاني من وطأة التخلف العلمي والحضاري.

طريق الأندلس

كانت أسبانيا في العصر الذي دخلها فيه المسلمون، لاتختلف كثيرا عن بقية بلدان غربي اوروبا من حيث انتشار الجهل والشعوذة والنزاعات الداخلية والفتن بين المذاهب الدينية المسيحية، حتى إن بعض أمراء أسبانيا ورئيس أساقفة اشبيلية ساعدوا المسلمين على فتح أسبانيا.

يقول الكاتب الاسباني الكبير ايبسانيز:" من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر، تنشأ وتنمو أجمل وأغنى حضارة وجدت في أوروبا طيلة العصر الوسيط. فعلى حين كانت شعوب الشمال تبيد بعضها بعضا بحروب دينية وتسلك سلوك القبائل البربرية، كان سكان أسبانيا يرقون الى أكثر من ثلاثين مليون نسمة، وفي هذا الخضم من الناس يمتزج وتضرب جميع الأجناس وجميع المعتقدات، بتنوع لا متناه، ينجم عنه أشد النبضات الاجتماعية. وفي هذا الخليط الغني من

[363]- غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 566.

الشعوب والأعراق كانت تتعايش جميع الأفكار وكافة العادات وجميع الاكتشافات الناجزة حتى ذلك الحين على الأرض، وجميع الفنون، وجميع العلوم وجميع الصناعات وجميع المخترعات وجميع المذاهب القديمة، ومن احتكاك هذه العناصر المختلفة كانت تتدفق اكتشافات جديدة وطاقات خلاقة جديدة.."[364].

وأشار إلى بداية تلك النقلة الحضارية – غوستاف لوبون– مؤكدا أن العلوم دخلت أوروبة من أسبانيا وصقلية وإيطالية من خلال مكتب للترجمة تمّ العمل فيه منذ عام 1130م وكان ينقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية الأسقف ريمون[365].

فما إن استقر المسلمون حتى بدأوا بتنشيط الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وأصبحت مدن الأندلس من أغنى وأهم المدن الاوربية لاسيما قرطبة، فقد استقر المسلمون قرابة ثمانية قرون فيها حتى بلغت الحضارة الإسلامية أوجها هناك في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد بعد أن أصبحت قرطبة . حاضرة الخلافة الاموية . من أعظم مدن العالم المتحضر[366].

وقد أشار إلى تلك الحقيقة "كويلر يونج" في بحثه عن أثر الثقافة الإسلامية في الغرب المسيحي بتذكير مسيحيّ أوروبا المعاصرة، بالدَّين الثقافي العظيم الذي يدينون به للاسلام منذ أن كان أجدادهم في العصور الوسطى، يسافرون الى حواضر الإسلام . في أسبانيا خاصة . ليتلقوا على أيدي معلميها من المسلمين، الفنون والعلوم وفلسفة الحياة، وفي جملة ذلك التراث الكلاسيكي القديم الذي أحسن الإسلام رعايته وصانه من الضياع حتى استطاعت اوروبا ان تستردّه وترعاه.[367]

ومما أسهم في هذا التطور الحضاري الهائل في الأندلس، مبدأ التسامح الذي سار عليه

---

[364]– نقلا عن: روجيه جارودي، الإسلام في الغرب– قرطبة عاصمة العلوم والفكر–، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار دمشق للنشر والتوزيع، دمشق، 1995م، ص 16، 18.

[365]– غوستاف لوبون، ص 567.

[366]– عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1972م، ص 279. وانظر كذلك: جوستاف جرونيبام، حضارة الإسلام، ترجمة: عبد العزيز جاويد، القاهرة، 1956م، ص 81-82.

[367]– توفيق الطويل، في تراثنا العربي الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة (87)، الكويت، مارس 1985م، ص 61.

المسلمون مع غيرهم من مسيحيين ويهود. الأمر الذي أسهم في إقبال هؤلاء على تلقي العلوم وتعلم اللغة العربية، وتتلمذ بعض من اليهود والمسيحيين على العلماء المسلمين، فأصبح هؤلاء رسلا جددا للحضارة الإسلامية، نتيجة اتقانهم اللغتين العربية واللاتينية معا.

واستطاعوا نقل العلوم العربية والإسلامية إلى الاسبان والاوروبيين، وأصبح اقبال الغربيين على تعلم العلوم العربية واضحا مما حدا بأسقف قرطبة في عام 854م أن يحذّر من نسيان المسيحيين حتى لغتهم، في حين يوجد بينهم عدد كبير لا يُحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم.[368]

وكان انتقال الحضارة الإسلامية منها إلى أوربا سريعاً ومؤثراً، وقد وصفت صقلية بأنها جنة أهل العلم آنذاك، وقد بدت آثار الحضارة الإسلامية فيها. ويمكن أخذ (فردريك الثاني) حاكمها الذي أغرم بالعلوم الإسلامية والثقافة الإسلامية مثالاً لهذا.

"Looking back we may say that **Islamic medicine and science** reflected the light of the Hellenic sun, when its day had fled, and that they shone like a moon, illuminating the darkest night of the European middle Ages; that some bright stars lent their own light, and that moon and stars alike faded at the dawn of a new day - the Renaissance. Since they had their share in the direction and introduction of that great movement, it may reasonably be claimed that they are with us yet."[369]

طريق صقلية

فتح المسلمون صقلية في وقت متأخر على يد دولة الأغالبة ثم الدولة الفاطمية التي قامت في أرض المغرب في النصف الأول من القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي). وكانت صقلية وكرا يهاجم منها الروم الأراضي الإسلامية.

وقد تمتعت صقلية خلال فترة الحكم الإسلامي لها (ما يقارب قرنين ونصف القرن من الزمن من

[368]– اليكس جوار أفسكي، مرجع سابق، ص 45. وراجع كذلك: سعيد عاشور، المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م، 529. وأنظر كذلك الشريف، مرجع سابق، ص 310 -311 حيث تحدث فيها عن رسالة الكاتب الإسباني ألفارو التي يتأسى فيها على إهمال اللغة اللأتينية والإريقية والإقبال على اللغة العربية.

[369] - T. Arnold and A. Guillaume, "The Legacy of Islam," Oxford University Press, 1931.

أوائل القرن الثالث الهجري الى أواخر القرن الخامس الهجري) بازدهار حضاري واسع[370].

فانتشرت مظاهر الحضارة الإسلامية في بالرمو ومسينا وسرقوسة وغيرها وظهرت فيها القصور والمساجد والقلاع والقناطر وصناعة الورق والسفن والحرير والفسيفساء والكبريت، كما شارك المسلمون في ميادين التجارة والصناعة ونشروا اللغة العربية فيها.

وقد استمر تأثير المسلمين في صقلية بعد انتهاء حكمهم مدة تقارب قرنين من الزمن، ولا تزال آثارهم ماثلة الى الآن. وامتد التفاعل والتبادل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين في صقلية رغم سيطرة النورمان عليها. كما أن حكام صقلية بعد المسلمين ومنهم روجر الأول و الثاني، أخذوا عن المسلمين النظم التي اعتمدوها كما أخذوا عنهم أساليبهم في إدارة البلاد وفي الدواوين والنظم المالية وغيرها[371].

فقد دعا روجر الثاني الذي حكم بين (1101-1154م) الشريف الإدريسي (ت457هـ /1166م) أشهر الجغرافيين العرب آنذاك إلى بلاطه ليرسم له الأقاليم السبعة على كرة من الفضة، وطلب اليه ان يضع كتابا في وصفها، فكان كتاب الإدريسي " نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق " وقد انبهر الباحثون حديثا وقديما بخريطة الإدريسي الشهيرة.

أما الملك فردريك الثاني (1194-1250م) فقد شجع الترجمة من العربية إلى اللاتينية والإيطالية لنقل علوم المسلمين وكتاباتهم إليهما[372]. وترى زيغريد هونكه بأن: **للعرب الفضل في جعل روجر الثاني أغنى ملك في أوروبة بعد أن كان أقل ملوكها، وذلك بسبب اهتماماتهم الاقتصادية والعمرانية، بسبب نظامهم المالي الدقيق ونظامهم الاداري وقانونهم الجيد**[373].

---

[370]- ماجد، مرجع سابق، ص 278 وما بعدها.

[371]- حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى المتقدة الأندلس، صقلية، الشام، الدار الجامعية، بيروت، 1986م، ص 122، 123.

[372]- ملجد، مرجع سابق، ص 279. توفيق الطويل،مرجع سابق، ص 30.

[373]- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وحسين الدسوقي، دار الآفاق الجديدة، الطبعة السابعة، بيروت، 1982م، ص 416.

مجيء الصليبين إلى الشرق الإسلامي

بقي الصليبيون مدة طويلة في الشرق الإسلامي متنقلين بين أنحائه منذ القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي. وكان هؤلاء على اتصال تام بجميع مظاهر الحضارة الإسلامية وفنونها رغم الحروب المتواصلة آنذاك. فقاموا بنقل بعض أنواع المزروعات التي لم تعرفها أوروبا من قبل، كما نقلوا إلى بلادهم العديد من الصناعات العربية كالصناعات الزجاجية والخزفية والمرايا والحلي والسجاد والمنسوجات والاواني المعدنية والاصباغ والعقاقير وغيرها.

يقول المؤرخ غوستاف لوبون في ذلك:" تأثير الشرق في تمدين الغرب كان عظيما جدا بفعل الحروب الصليبية، وأن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب، وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيم باطراد بين الغرب والشرق وإلى ما نشأ عن تحاك الصليبين والشرقيين من النمو في الفنون والصناعة تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوربة تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم"[374].

التبادل التجاري بين الشرق والغرب

ازدهرت التجارة بين البلاد الإسلامية والاوروبية كما انتقل العديد من الصناعات الشرقية الى مختلف مناطق أوروبا عن طرق مختلفة منها طريق مصر منذ عهد الفاطميين. فقد جعل الفاطميون مصر مركزا تجاريا وثقافيا، فبرزت في مصر مختلف الفنون والعلوم وارتحل الناس إليها في طلب العلم. كما نشطت تجارتها مع مدن أوروبا مثل جنوة والبندقية وفلورنسا وغيرها من مدن ظهرت فيها حركة النهضة الأوروبية فيما بعد[375].

واستمر التبادل التجاري أثناء تواجد الصليبين في بلاد الشام مع البلدان الأوروبية، مما ساعد على ازدياد النشاط المالي والتجاري. وعلى الرغم من الحروب والعداوات القائمة بين المسلمين

---

[374]- غوستاف لوبون، حضارة العرب، مرجع سابق، ص 339.

[375]- ماجد، مرجع سابق، ص 280-281.

والإفرنج، غير أن العلاقات التجارية كانت قائمة واستمرت القوافل التجارية في التنقل بين أراضي الطرفين بسهولة وأمان.

رابعا: إسهامات الحضارة الإسلامية

تركت اللغة العربية أثرا بارزا في اللغات اللاتينية، فألّف دوزي Reinhart Dozy وأنجلمن، معجما في الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية. كما تركت أثرها في فرنسة نفسها، فاللهجات السائدة لولاية أوفرن وليموزان محشوة بالكلمات العربية[376]. كما اقتبست فرنسا وإيطاليا من العرب الذن كانوا سادة البحر منذ القرن الثامن الميلادي أكثر الإصطلاحات البحرية[377].

يقول المستشرق جب: إن أوربا مدينة لبلاد العربية بنزعتها المجازية الحماسية كما هي مدينة بعقيدتها لبلاد اليهودية وأننا مدينون لبطحاء العرب وسوريا بمعظم القوى الحيوية الدافعة او بجميع تلك القوى التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والخيال للعالم الذي كانت تحكمه روما[378].

وفي مجال الطب، قضت الحضارة الإسلامية على الكهانة والشعوذة في حين كانت أوروبا تحرّم صناعة الطب لاعتقادهم أن المرض عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن يستحقه.[379]

واعتبر أطباء أوروبا بأن الرازي هو أعظم أطباء الطب السريري (الكلينيكي) في العصور الوسطى. وما زال الغربيون يعترفون بفضل الرازي ومآثره الطبية، مما دعا جامعة برنستون في الولايات

---

[376] – Dozy, Reinhart Pieter Anne. Supplement aux Dictionnaires Arabes. Arabic.Tawzi al-Dar al-Wataniyah lil-Tawzi wa-al-IIlan, 1978 ed.

[377]– غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 441.

[378] - Gibb, Arabic Literature - An Introductio, Clarendon Press., 1963.

[379] -Draper, J. W. A History of the Intellectual Development of Europe., London, 1864. vol 2, p. 88.

– هالة مصطفى، الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م.

المتحدة الاميركية لاطلاق اسمه على أفخم اجنحتها تقديرا لفضله وعلمه[380]. وغصت المكتبة الإسلامية بالكتب التي تحوي فنون الطب المختلفة منها كتاب الحاوي وكتب في علم البصريات والكيمياء. ومن كتب الطب الهامة التي أثرت تأثيرا بارزا وهاما في أوروبا منذ العصور الوسطى كتاب " القانون في الطب" لابن سينا، وهو يعتبر من الكتب الجامعة لمعارف وعلوم الطب التي أجراها الاطباء الذين سبقوا ابن سينا.وقد قام بترجمته الى اللاتينية جيرارد الكريموني في القرن الثاني عشر، وقد طبع وترجم عدة مرات حتى القرن السادس عشر في البندقية وميلانو ولوفان ببلجيكا ونابولي[381].

ومن أبرز أطباء المسلمين كذلك الطبيب "يحيى بن ماسويه" الذي تنسب إليه مؤلفات طبية عديدة من أهمها: كتاب دغل العين وهو أول كتاب عربي في علم الرمد. كذلك يؤثر عن هذا الطبيب أنه كان يدرس التشريح عن طريق تقطيع أجسام القردة، وكان الخليفة المعتصم يعتمد على مشورته، ولهذا كان يحتفظ ببنية قوية.

ويُعرف " ابن ماسويه " في الغرب باسم "ماسو الكبير" MESUE MAIOR. ومنهم الطبيب اللامع "حنين بن إسحاق الذي عرف عند علماء الغرب باسم يوهانيتس YOHANTUS الذي ألّف كتباً كثيرة أهمها كتاب في الرمد باسم "العشر مقالات في العين "، وكتاب " السموم والترياق "، وكتاب في أوجاع المعدة، وكتاب في الحميات، وكتاب في الفم والأسنان[382].

ويقول غوستاف لوبون في إنجازات المسلمين في الطب: " الطب مدين للعرب بعقاقير كثيرة ..والطب مدين لهم كذلك بطرق طريفة في المداواة عاد إليها، على أنها اكتشافات حديثة بعد أن نسيت زمنا طويلا..وعلم الجراحة مدين للعرب بكثير من مبتكراته الأساسية وظلت كتبهم فيه

---

[380] - Peter J. King *One Hundred Philosophers* (2004: New York, Barron's). Henry Corbin (1993). *History of Islamic Philosophy*. London: Keagan Paul International. Corbin, H. (1993). *History of Islamic Philosophy*. London: Keagan Paul International. p154

[381]- ماهر عبد القادر ، حسان حلاق، تاريخ العلوم عند العرب، ص170. 171

[382] -http://www.islamset.com/arabic/aheritage/mather/index.html

مرجعا للدراسة في كليات الطب إلى وقت قريب جدا.."[383].

لقد جاءت تلك الحضارة والنهضة العلمية المتكاملة في مختلف ميادين العلم والمعرفة، أثرا للمجتمع الأول الذي أسسه رسول الله عليه الصلاة والسلام وصحابته من بعده. فتكونت في المجتمع على إثر ذلك، شخصيات فريدة ربطت بين الدين والمعرفة برباط العقيدة الإسلامية. وأصبحت عناصر لتكوين مجتمعات إسلامية تلتقي أعرافها مع تعاليم الدين وتشريعاته. وعلى هذا النسيج البديع، تألفت شرائح المجتمع المسلم الأول والذي لم يكن له حضارة ولا نهضة علمية واسعة.

يقول في ذلك برنارد لويس:

He had achieved a great deal. To the pagan peoples of western Arabia he had brought a new religion which, with its monotheism and its ethical doctrines, stood on an incomparably higher level than the paganism it replaced. He had provided that religion with a revelation which was to become in the centuries to follow the guide to thought and count of countless millions of Believers. But he had done more than that; he had established a community and a well organized and armed state, the power and prestige of which made it a dominant factor in Arabia.... The modern historian will not readily believe that so great and significant a movement was started by a self-seeking imposter. Nor will he be satisfied with a purely supernatural explanation, whether it postulates aid of divine of diabolical origin; rather, like Gibbon, will he seek 'with becoming submission, to ask not indeed what were the first, but what were the secondary causes of the rapid growth' of the new faith...[384]

بَيد أن ذلك التكوين الاجتماعي القائم على فهم واضح لتعاليم الإسلام ومبادئه، هو الذي فتح الطريق أمام المسلمين في اللاحق لتأسيس نهضة وبناء حضارة شامخة، ظهرت آثارها في العصور الأموية والعباسية. وعليه لم تكن تلك الحضارة وليدة ذلك المجتمع الذي شهد انحسارا وتغيرا في المسار الأخلاقي والاجتماعي، بل كانت وليدة المجتمع المسلم الأول وثمرة لتلك البذور

[383]- غوستاف لوبون، مرجع سابق، ص 498. وأنظر: ابن أبي اصيبعة : كتاب عيون الأنباء، تحقيق عامر النجار، 1996. حكيم محمد سعيد، أعلام ومفكرون : لمحات عن مشاهير العلماء والمفكرين في عصور الإسلام الذهبية، الأكاديمية الإسلامية للعلوم، عمان، الأردن، 2000م، طبعة ثانية. محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت. عبد الله الدفاع، إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986.

[384] - **Bernard Lewis,** *The Arabs in History*, 1950, p.45-46

التي غرسها الأوائل. كما كان التدهور الأخلاقي والفساد الاجتماعي وراء أفول شمس الحضارة الإسلامية وانكماشها فيما بعد.

لقد لعبت الأمراض الاجتماعية والعادات الغريبة عن تعاليم الإسلام دورا هاما في تقويض عرى الحضارة الإسلامية. تلك العادات والأعراف التي لم تزل تنتشر وتنمو في المجتمع إلى حد التغلب على مبادئ الدين وتعاليمه[385].

وقد دمغ القرآن الكريم بالفساد والطغيان حضارات سابقة أقامت من البناء المادي آيات وخلّدت منجزات هائلة، إلا أنها استحقت غضب الله وسخطه. فقد توجهت عنايتهم للبناء والإعمار، وأغفلوا معها القيم الروحية والمثل الإنسانية، فلم تغن عنهم تلك الأبنية المادية شيئا[386].

كما أشار القرآن الكريم في غير من موضع إلى قوانين بناء وسقوط الحضارات والأمم، وهي قوانين وسنن ثابتة لا تتخلف. وأوضح في العديد من الآيات إلى أسباب السقوط والانحدار ومنها الترف والبطر والاستعلاء في الأرض بغير الحق والظلم والانغماس في الملذات والشهوات[387]... قال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون. فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ).[388]

---

[385] – حول هذه النقطة، راجع: محمد الفاضل بن عاشور، *روح الحضارة الإسلامية*، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، 1401هـ/1981م، 66 وما بعدها.

[386] - أنظر في قصص الأقوام السابقة، الآيات الكريمة التالية: القرآن الكريم، سورة الشعراء 26: 123-140. سورة الدخان، 44: الآيات 25- 29. سورة الفجر، 89: 6-14 وغيرها كثير. وأنظر: حيدر عبد الكريم الغدير، *المسلمون والبديل الحضاري*، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ط3، 1413هـ/1992م، 42 وما بعدها.

[387] – أنظر في ذلك الآيات: القرآن الكريم، سورة الأعراف 7: 4 . سورة الكهف 18: 59.سورة الحجر 15: 4. سورة الشعراء 26: 208. سورة الأنبياء26: 11. سورة الحج 22: 45. سورة القصص 28: 58. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن الاحتجاج بهذه الآيات وتلك السنن والقوانين أمر لا مندوحة عنه، فلا يمنع كفر الأقوام السابقة وانحرافهم عن الطريق السوي من الاحتجاج بهذه الآيات وما حوته من سنن وقوانين على المجتمع المسلم، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع من جهة الانحراف والزيغ والترف والبطر ونحو ذلك من قوانين سقوط الحضارات وانحدارها. وعلى هذا احتج بعض العديد من العلماء بتحريم التقليد بالآيات الكريمة الواردة في ذم تقليد المشركين لآبائهم. أنظر على سبيل المثال: ابن قيم الجوزية، اعلام الموقعين، مرجع سابق، ج2، 191.

[388] – سورة غافر 40: 82-85. أنظر في تفصيل ذلك: يوسف القرضاوي، 1995م، الإسلام وحضارة الغد، *مجلة آفاق الإسلام*، العدد الأول (السنة الثالثة)، 43-82.

وواقع الأمر أن المجتمعات الإنسانية عندما تصاب بالضعف والركود والمرض، تسري تلك المظاهر إلى مختلف الوحدات الاجتماعية والمؤسسات لتشمل الأفراد وتصبح تيارا اجتماعيا وسلوكا عاما يلف المجتمع بأسره[389].

[389] – محمد جواد الفقيه، *نظرة في كتاب الله*، دار الأضواء، بيروت، 1413هـ/1993م، 105.

الفصل الخامس

ما الذي يمكن أن تقدمه رسالة النبي الكريم لعالمنا المعاصر

تمهيد

العالم بأسره يعيش اليوم مرحلة يمكن أن نطلق عليها مرحلة الأزمة. ولا تنحصر أزمة العالم في جانب واحد من ميادين الحياة بل امتدت لتشمل جُلّ ميادينها إن لم نقل كلها[390]. **فالعالم** يشهد سلسلة متواصلة من الأزمات الأخلاقية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية..التي لا سبيل للخروج منها إلا بتكاتف جهود بلدان العالم على اختلاف توجهاتهم وتعدد أجناسهم واهتماماتهم.

فالعقلاء من أمم الأرض من علماء النفس والاجتماع، بدأوا بالتحذير من استفحال أوبئة الانحرافات الأخلاقية واللوثات الشاذة التي باتت تهدد كيان المجتمعات الغربية عموما.
ومن ذلك ما كتبه الكاهن المشهور جيري فولول Jerry Fawell[391] في كتابه اسمعي يا أمريكا:" لدي إحصاءات مرعبة عن حوادث الطلاق وتدمير الأسرة والإجهاض وجنوح الناشئة والفوضى الجنسية وتعاطي المخدرات وجرائم القتل. إنني أشاهد حطام الإنسان والأرواح المهدورة بأكداس تفوق الإحصاءات إن أمريكا بحاجة سريعة إلى الاتقاذ الروحي والأخلاقي إذا كانت تريد أن لا تهلك في القرن العشرين"[392].

ويقول مراد هوفمان في سياق الحديث عن معاناة العالم اليوم:

"لقد غدت الجماهير العريضة نتيجة ممارستها الواقعية للذاتية وللنسبية تعيش نوعا من الإلحاد الساذج المسطح الأبعاد، متمثلا في عبادة آلهة جديدة هي السلطة والثراء والجمال والشهرة

---

[390] - Wilhelm Roepke, The Social Crisis of Our Time (Library of Conservative Thought, 1998. **The Moral Foundations of Civil Society.**

[391]- الدكتور الكاهن الأميركي المشهور ولد عام 1933م. له عدد من المؤلفات أشهرها: اسمعي اميركا.الصيام يمكن أن يغير حياتك. حقق أحلامك. قام بتأسيس جامعة التحرير. انظر ترجمته علىالموقع: http://www.liberty.edu/index.cfm?PID=6921

[392] - Jerry Falwell, Listen America,(New York: Bantam Book. Inc, 1981).
وراجع كذلك: ماجد عرسان الكيلاني، رسالةالمسلم في المجتمع الأمريكي، مقالات في الدعوة والإعلام الاسلامي، مرجع سابق، ص 128.

والجنس. لقد رضي هؤلاء الملحدون بالممارسة، الاطمئنان والركون إلىالعلوم الطبيعية عوضا عن الدين الذي أقصته وهجرته"[393].

وثمة مشاكل وصراعات باتت تهدد أمن العالم كله لا يستطيع إنكارها أو التغاضي عنها أحد كالحروب وآثارها، التفسخ الأسري، الفقر، الجهل، التدهور الأخلاقي، فقدان الأمن والاستقرار ....كل هذه الأزمات وغيرها، تستدعي جدية البحث في سبل الخلاص منها والخروج من أزماتها الخانقة، فالعالم يتوق إلى السلام والأمن والاستقرار في ظل أوضاعه المتردية حاليا.

إن الواقع المعاصر يقدم شهادته على خطورة اختلال التوازنية في معادلة السير الحضاري. يقول الرئيس ميخائيل جوريا تشوف زعيم الاتحاد السوفيتي السابق:

" يمكن لصواريخنا أن تصل إلى مذنب هالي وتطير إلى الزهرة بدقة مذهلة ، ولكن إلى جانب هذه الانتصارات العملية والتكنولوجية نجد نقصاً واضحاً في الكفاءة في استخدام المنجزات العملية للحاجات الاقتصادية، كما أن كثيراً من الأجهزة المنزلية السوفيتية من نوع رديء، ولسوء الحظ فليس هذا كل ما في الأمر، فقد بدأ تدهور تدريجي في القيم الأيدلوجية والمعنوية لقيمنا .. وبدأ الفساد يسري في الأخلاقيات العامة، وزاد إدمان الخمور والمخدرات والجرائم، وسنواصل بحزم النضال ضد المسكرات وإدمان الكحوليات"[394].

ولقد وقف أرنولد توينبي طويلاً، فرأى أن **البشرية تأخذ بخناقها أزمة خانقة، وهي لا تقل في شرها عن الحربين العالميتين، والمستقبل مزعج**. وعرض احتمال حدوث نكبة من صنع الإنسان تدمر المجال الحيوي وتقضي على البشرية جمعاء مع استكمال الحياة الأخرى، ثم قال هذا احتمال لكنه ليس الخيار الوحيد.

393- مراد هوفمان، الإسلام كبديل، مكتبة العبيكان، الرياضن الطبعة الثالثة، 1421هـ/ 2001م، ص .35.

300- ميخائيل جورباتشوف، البيريسترويكا: تفكير جديد لبلادنا والعالم، ترجمة: حمدي عبدالجواد، دار الشروق، مصر، 1988م، ص 35.

ولاحظ توينبي أن الإنسان زاد في قوته المادية بحيث أنه أصبح خطراً حتى على بقاء المجال الحيوي لكنه لم يزد إمكاناته الروحية، وقرر أن التغيير الوحيد المعقول في تركيب المجال الحيوي الذي يمكن أن ينقذ هذا المجال، هو زيادة القدرة الروحية للإنسان. وأكد على أن الإنسان يظل بالإضافة إلى أنه طبيعة وجسم يتمتع بروح. وهذه الروح تمتلك الوعي، ومن ثمّ فالإنسان يمكنه أن يختار إما الخير وإما الشر. وأعرب عن اعتقاده أن مرض المجتمع الحديث لا يمكن شفاؤه إلا بثورة روحية في قلوب بني البشر وعقولهم. فالعلل الاجتماعية لا تعالج بالتغيرات المؤسسية.. فالعلاج الناجي – في نظر توينبي – هو روّحي لأن كل مؤسسة اجتماعية تقوم على فلسفة أو دين، وهي بحسب القاعدة الروحية التي أقيمت عليها تكون حسنة أو سيئة.. والإنسانية بحاجة إلى أساس روّحي جديد. وكثيرة هي الأصوات التي انطلقت من مختلف أنحاء عالمنا مؤكدة على الحاجة الملحة في عصرنا إلى الإيمان[395].

وتؤكد الكاتبة كارن آرمسترونج أن ثمة صلة وأوجه تشابه بين ما يمرّ به العالم اليوم وبين حالة العالم قبل بعثة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

وترى **آرمسترونج**، أن الجاهلية ليست حقبة زمنية أو تاريخية بل هي حالة عقلية ينجم عنها الإرهاب والتطرف وهي حاضرةاليوم في العالم الغربي كما هي حاضرة في العالم الإسلامي كذلك. وترى الكاتبة أن العالم بأسره– الإسلامي والغربي– بحاجة إلي فهم تعاليمه وتبني نهجه وأسلوبه الرائع في محاربة الشر والفساد والظلم والجهل.

‘ As a paradigmatic personality, Muhammad has important lessons, not only for Muslims but also for Westerns people. His life was a jihad; this word does not mean holy war, it means struggle. Muhammad literally sweated with effort to bring peace to war-torn Arabia, and we need people who are prepared to do this today. His life was a tirless campaign against greed, injustice and arrogance. He realized that Arabia was a turning point and that the old way of thinking would no longer suffice, so he wrote himself out in the creative effort to evolve an entirely new selution. We entered another era of histoy on Septmber 11, and must strive with equal intensity to develop a different outlook[396]’.

---

[395]- أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة: نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، ط4، بيروت، 2003م.،

[396] - Karen Armdtrong, ibid, p. 19.

والدراسة تقدم مثالين على بعض الأزمات التي باتت تهدد الاستقرار والأمن وهما: مؤسسة الأسرة وما يواجهها اليوم من أزمات تهددها، وحدّة التعصب والتطرف العالمي.

المبحث الأول: مؤسسة الأسرة

تشكل الأسرة حجر الزاوية في المجتمعات الإنسانية على اختلاف مللها ونحلها. فالأسرة هي المحور الذي تدور حوله مختلف العلاقات الإنسانية والاجتماعية. وعلى هذا اهتمت الأديان السماوية– اليهودية والمسيحية والإسلام– عموما بتشريع الأحكام والآداب المتعلقة بالكيان الأسري لضمان صلاحيته و ديموميته.

بَيد أن مؤسسة الأسرة تعاني اليوم من تحديات تستهدف شرعية وجودها، من خلال ما يُطرح على الساحة العالمية من اتجاهات منحرفة، تخالف كل ما جاءت به الأديان السماوية في طبيعة النظر إلى تركيبتها، محاولة زلزلة الثوابت الفطرية التي أرادها الله لصلاح الحياة الإنسانية. تلك الثوابت التي تعد الركيزة الأساس لتماسك مؤسسة الأسرة وديمومتها.

وتعد كارثة إضفاء الشرعية على الشذوذ الجنسي أو ما يطلق عليه الزواج بين مثيلي الجنس من أبرز التحديات التي تواجهها مؤسسة الأسرة في العالم الغربي اليوم.

موقف الديانات السماوية من الشذوذ الجنسي

لا تختلف النظرة إلى هذه الجريمة بين الديانات السماوية. فقد رسمت المنظومة التشريعية في مختلف الديانات، إطارا دقيقا متكاملا لطبيعة العلاقات المشروعة وغير المشروعة. فمنعت كل صور الشذوذ الجنسي وأساليبه وحددت أنواعا من العقوبات الصارمة على اقتراف تلك الجرائم. واعتبرت أن تلك الجرائم موجبة لغضب الرّب. وأشارت النصوص التشريعية فيها إلى عواقب وقوع تلك الجرائم وانتشارها في الأمم السابقة وأنها كانت سببا في هلاكهم.

ففي اليهودية[397] هناك ستة وثلاثون ذنبا اعتبرت من الكبائر من بينها الزنى واللواط وحكمها الموت إما القتل أو الرجم أو الخنق أو قطع الرأس وثمة 207 من الصغائر ومنها الزنى بالمحارم وحكمها الجلد. جاء في سفر اللاويين:

«لا تُضاجعِ الذَّكَرَ مُضاجعةَ النِّساءِ، فذلِكَ مَعيبٌ. لا تُضاجعْ أيَّةَ بَهيمةٍ ولا تتَنجسْ بِها، ولا تَقفِ امرأةٌ أمامَ بَهيمةٍ لتُضاجعَها، فذلِكَ فُجورٌ.لا تتَنجسوا بشيءٍ مِنْ هذا، فبِمثلِها تنجستِ الأمَمُ الذينَ أطردُهُم مِنْ أمامِكُم. فتنجستِ الأرضُ. وسأُعاقبُها على إثْمِها حتى تَفرُغَ مِنْ سُكَّانِها. فاَعمَلوا أنتم بفَرائضي وأحكامي ولا ترتكبوا شيئًا مِنْ جميعِ هذِهِ العُيوبِ، سَواءٌ مِنكمُ الأصيلُ والغريبُ النَّزيلُ فيما بَينَكُم.... فاَحفظوا ما أمرتُكُم بهِ لِئلاَ تعمَلوا شيئًا مِنَ العاداتِ المَعيبةِ التي عَمِلَتْها الشُّعوبُ مِنْ قَبلِكُم، ولا تتنجسوا بِها. أنا الرّبُّ إلهُكُم».[398]

أما في الديانة المسيحية فلا تقل هذه الجريمة بشاعة في نصوص العهد الجديد عنها في القديم. جاء في رسالة رومية:" وكذلك الذكور أيضا تاركين استعمال الأنثى الطبيعي اشتعلوا بشهوتهم بعضهم لبعض فاعلين الفحشاء، ذكورا بذكور ونائلين في أنفسهم جزاء ضلالهم المحق، وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم، أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق مملوئين من كل إثم و زنى و شرّ و طمع وخبث مشحونين حسدا و قتلا وخصاما ومكرا و سوءا ..."[399].

بَيد أن هذه النصوص التشريعية بدأت تتسرب إليها تأويلات منحرفة تأثر أصحابها بفلسفات سادت في عصور معينة، وبدراسات تظهر ما بين فترة وأخرى تروّج لهذا الانحراف وتبرر سلوكه وتحاول إضفاء الشرعية عليه بما ينافي ويناهض كل القيم الفطرية والدينية.

[397] - تركز الدراسة على الديانتين اليهودية والمسيحية باعتبار أن محاولات إضفاء الشرعية على الزواج بين مثيلي الجنس وتقنينها ظهرت وتتزايد الدعوة إليها في البلدان الغربية.

[398] - اللاويين: 18/22- 30

[399] - **رسالة روميه** 1 :26، 27.

ومن أبرز هذه الفلسفات: فلسفة مناهج نقد النصوص الكتابية (Biblical Criticism). وهي فلسفة ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي في مراكز البحوث في الجامعات الألمانية، ثم انتشرت منها إلى دول أوروبا الغربية ومن بعدها إلى الولايات المتحدة[400]. وكان الهدف الأول منها التحقق من صدق مرويات العهدين القديم والجديد، وانتهت هذه الجهود التي كانت تروم التصديق والإثبات ابتداءً، إلى التشكيك والتكذيب لتلك المرويات واعتبارها صنعة بشرية مليئة بالتناقضات وصدى لوقائع تاريخية بادت وانقرضت وكان لها خصوصيتها الزمنية، وليست وحيا إلهيا على الإطلاق.

ويعد باروخ سبينوزا (1632-1677م) مؤسس فلسفة نقد النصوص الكتابية[401]. ويذهب الاتجاه العام السائد بين علماء نقد نصوص العهد القديم إلى أن أسفاره لم يدّونها موسى عليه السلام، وإنما هي مجموعة من التقاليد المتراكمة التي تشكلت مادتها في أوقات متباينة[402].

وقد ظهر أثر هذه الفلسفة جليا حين أعلنت الحركة الإصلاحية في اليهودية، منهجها الصريح في رفض وردّ التشريعات الموسوية والربائية بما في ذلك الشريعة المنزلة وما يماثلها من المقدسات، متأثرة في ذلك بالفلسفات السائدة في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي ومن أبرزها فلسفة نقد النصوص الكتابية. فاعتبرت النصوص التشريعية مجرد تراكمات تاريخية، كما اعتبروا الكتاب المقدس محصلة أحداث تاريخية متراكمة[403]. ولم ينظروا إلى نصوص الكتاب المقدس كوحي نازل من السماء مباشرة على الإطلاق.

وانعكس هذا التأثر في موقف الحركة الإصلاحية من الزواج بين مثيلي الجنس. فحاولت تقديم تأويلات لمختلف النصوص التشريعية بما يتلاءم مع توجهاتها في النظرة إليها من زاوية تاريخية.

---

[400] -E. Krentz, The Historical Critical Method, Fortress Press, Carlisle, 1992, p. 126.
[401] - Britanica Encyclopedia. 1999. Inc CD-Rom. Judaism.
[402] - لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة راجع: عرفان عبد الحميد، اليهودية عرض تاريخي، دار عمار، الأردن، 1997م، ص 81- 82. وانظر كذلك كتابنا: أثر العرف في فهم النصوص ..قضايا المرأة أنموذجا، دار الفكر، دمشق، 2003م، ص 155وما بعدها.
[403] - Encarta Encyclopedia 97 CD, Biblical Scholarship.

وعلى هذا فقد **رحبت الحركة الإصلاحية في اليهودية بالشواذ في صفوفها واعتبرت وجودهم بينها من أسباب تقوية الروابط الأسرية في اليهودية**، كما لم تر في إباحة زواج الشواذ خطرا على الأسرة التقليدية أو على الإنجاب والتكاثر المقدس في اليهودية.

" Welcoming gay and lesbian families into the synagogue will strengthen all our families, by bringing the exiles home and by reuniting children, parents and siblings who have been forced to keep their partners and innermost lives hidden. *Kelal Yisrael* is strengthened when we affirm that there can be more than one way to participate in the Covenant"[404].

وعلى هذا صوّت الحاخامات المنتمون لأكبر تجمع يهودي إصلاحي في الولايات المتحدة لصالح الاعتراف بزواج الشواذ في المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين التابع لحركة الإصلاح اليهودية. ومنذ عام 1995م بدأت الحركة الإصلاحية في اليهودية بالموافقة على تعيين حاخامات مثليين.

وجاءت الحركة المحافظة Conservative كرّد فعل للحركة الإصلاحية والتقليدية، فحاولت أن تتخذ حدا وسطا بين الطرفين منذ عام 1886م[405]. فأعلنت إلتزامها الصارم بالتقاليد المتوارثة عن الحاخامات مع الاحتفاظ بحق تأويل الشريعة الموسوية تبعا للمصالح والمقتضيات المتغيرة.

وقد انعكست تلك التوجهات على اعتقادها إزاء طبيعة نظرتها للأسرة في مفهومها التقليدي والزواج بين المثليين اليوم.

فقد **ذهب المحافظون إلى أن تلك النصوص التشريعية الخاصة بتحريم الشذوذ الجنسي هي تعاليم واجبة الاتباع، إلا أنها لابد وأن تُفهم ضمن إطارها التاريخي والاجتماعي الذي ظهرت فيه. وعليه فما أسفرت عنه نتائج البحوث العلمية الحديثة (في زعمهم) التي ترى أن الشذوذ عملية بيولوجية لا يستطيع الإنسان التحكم فيها، يمكن أن تغير تلك التأويلات مطلقا!**.

"As a Conservative Jew, I believe that *halakha* (=normative Jewish law) is binding. The Conservative Movement, however, understands the traditional halakhic sources (Bible,

---

404 - Ian Silver, Homosexuality And Judaism, http://www.betham.org/kulanu/iansilver.html.

405- The Encyclopedia Of Religion, New York: Mircea, 1986. vol 4,.p. 63. See also: Jacob Neusner, Judaism in Modern Times, USA; Blackwell Publishers, 1995, p. 99.

Talmud, etc.) as products of different historical ages-which are often very different from our own age! Deciding what is halakhically permissible is not only a matter of reading the texts, but also understanding the social/cultural contexts in which they developed".[406]

بينما لا يزال اليهود الأرثودوكس وكثير من المحافظين، يرون في الالتزام بمفهوم الأسرة الفطري عن طريق الاقتران بين الرجل والمرأة، المفهوم الأوحد المشروع لقيام تلك المؤسسة ويرون في الحفاظ عليها شرطا أساسيا لبقائها واستمرارها. كما يرون في الشذوذ خروجا عن الفطرة السليمة وتهديدا لكيان الأسرة برمته وخروجا عن أوامر الرّب في التكاثر والتناسل واحترام العلاقة الزوجية الفطرية بين الرجل والمرأة.

“Homosexuality destroys the individual's ability for ontological fulfillment in the halakhic world…. frustrates the divine intent of procreation; undermines the family; and is biologically and anatomically unnatural…. Homosexuals should be viewed as patients rather than criminals. As a result, psychological assistance must be extended to those who cannot avoid homosexual desire”.

وما قام به رواد هذه الفلسفة من عمليات نقد وفحص لمرويات العهد القديم، قام به آخرون في العهد الجديد (الإنجيل) كذلك. فذهب رودولف بولتمان وصموئيل ساندميل وغيرهم إلى أن الإنجيل روايات مختلفة لا أصل لها وهي لا تعدو عن كونها أساطير ليس لها صدى في واقع التاريخ[407].

وقد أنعكس التأثر بهذه الفلسفة على أمور عديدة من أبرزها، طبيعة النظرة إلى الأسرة ومفهومها اليوم، وتحريم مختلف السلوكيات الشاذة المهددة للكيان الأسري.

فالأحكام والتشريعات القاضية بتحريم هذا النوع من السلوك الشاذ، قابلة للتأويل والنقد والنظرة إليها من خلال سياق اجتماعي تاريخي جديد.

---

[406] - Michelle Kwitkin, quoted by: Ian Silver, Homosexuality And Judaism, http://www.betham.org/kulanu/iansilver.html.

[407]- Samuel Sandmel, *A Jewish Understanding of the New Testament***,** Cincinati; Hebrew Union College 1957. p. 128. Marcus J. Borg, Marcus J. "*Meeting Jesus Again for the First Time: The Historical Jesus and the Heart of Contemporary Faith,"* Harper Collins, (1994). R.E. Friedman, "Who Wrote the Bible?" Harper; San Francisco, (1987).

ورغم الاتفاق السائد بين الكاثوليك والبروتستانت من حيث الإيمان برسالة الإنجيل إلى الشعوب وضرورة العمل على نشر بشارته للعالم، إلا أن التأثر بفلسفة النقد التاريخي للنصوص بدا متزايدا بين صفوف الإصلاحيين الذين رأوا في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، تقاليد متوارثة وليست وحيا له مرجعية معصومة. الأمر الذي أفقد الكتاب المقدس منزلته المرجعية المطلقة كوحي إلهي مباشر.

وعلى هذا لم تختلف نظرة الإصلاحيين في المسيحية عن مثيلتها في اليهودية إزاء الزواج المثلي، فقد حاول هؤلاء تبرير وإعادة تأويل مختلف النصوص التشريعية المناهضة للزواج المثلي في الكتب المقدسة من خلال الدعوة إلى قراءتها ضمن السياق التاريخي والاجتماعي المصاحب لها. بل إن معظم هؤلاء فسرّوا ما ورد في الكتاب المقدس حول عاقبة قوم لوط وتدميرهم، إنما كان جزاء بخلهم وسوء تعاملهم مع الآخرين وليس ومن جراء شذوذهم الجنسي وسلوكهم المشين وانحرافهم عن الفطرة[408].

جاء تحت عنوان: فهم الكتاب المقدس بطريقة جديدة:

"**...**There are at least two important things to keep in mind when reading the Bible. First, you must always consider its context. In order to understand any writing (whether it be a letter, a speech, or even the Bible) it is necessary to understand its background. Think about who is speaking, to whom it is addressed, why it written, and what the culture was like. In the case of Scripture, the cultural and social context of Biblical times was very different from our own"**.**[409]

وبلغ تأثير هذه التوجهات في المسيحية مداها، فقد كان الشذوذ الجنسي قبل عام 1973م، مُدرجًا في قائمة الاضطرابات النفسية في الكتيّب التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders، والذي يُعتبر المصدر الرئيسي لتشخيص الاضطرابات النفسية في أمريكا وفي أغلب دول العالم.

---

[408] - Jason Knisley, The Biblical and Talmudic Positions on Homosexuality, http://www.betham.org/kulanu/iansilver.html.

[409] -Homosexuality and the Bible: Good News or Bad New. METROPOLITAN COMMUNITY CHURCH OF TORONTO INFO SHEET: October 21, 2002

إلا أن ضغوط جمعيات الشواذ جنسيا قد تسببت في تشكيل لجنة لمراجعة موقف الكتيّب من الشذوذ الجنسي، وكانت تلك اللجنة خالية تمامًا من أي عالم معتقد بأن الشذوذ الجنسي اضطراب نفسي. و**قررت اللجنة بسرعة لم يسبق لها مثيل في مثل هذه الحالات وبتعدّي الكثير من القنوات الشرعية المعتادة حذف الشذوذ الجنسي كاضطراب نفسي من الكتيب التشخيصي،** إلا أنها احتفظت في الكتيب بحالة تعرف بـ ego-dystonic homosexuality والتي تُعرف بأنها عدم رضا الشخص عن اتجاهه الجنسي بحيث يسبب له ألما نفسيا شديدا، ولكن سرعان ما اختفى حتى ذلك التعريف من الكتيب**!**.

ويبلغ الأمر مداه حين يحاول الشواذ من خلال منظماتهم وجمعياتهم، المطالبة بتوثيق عقود الزواج بينهم، الأمر الذي بات يمثل بديلا عن الزواج، ونوعا جديدا من الأسر. فلم يكتفوا بحرية ممارسة جريمتهم، بل يريدون جعل علاقاتهم المنحرفة أمرا عاديا شأنه شأن الأسرة الفطرية، التي يحق لهم من خلالها معاملتهم كزوجين طبيعيين من الحصول على التأمينات والخدمات والحصول على أطفال بالتبني....ولئن كانت تلك التوجهات مجرد مطالب في السابق، فلقد تحقق الكثير منها في بعض الدول الغربية التي بات الدستور فيها يسمح بهذا التوثيق ويباركه.

وعلى الرغم من صدور وثيقة الفاتيكان في 31-7-2003م الموضحة بصرامة موقف الكنيسة الكاثوليكية والمحذرة من عواقب الاعتراف بالزواج بين الشواذ، وبيان خطورة ذلك في ظهور ايدلوجيات تشكك في شكل الاسرة الطبيعي المكون من أب وأم وتساوي بين العلاقة بين المثليين والعلاقة بين رجل وامرأة..."، ودفاع البابا يوحنا بولس الثاني مرارا عن الزواج التقليدي أمام التيار المطالب بالسماح بزواج المثليين في الولايات المتحدة واوروبا، إلا أن تزايد تأثير جماعات الشواذ في المجتمعات الغربية، بدا ملحوظا. ولا تزال المطالبات جارية بتشريع قوانين الاتحاد المدني بين الشواذ في عدد من الدول الغربية.

ويعبر الكاتب الأميركي المعروف الدكتور James Dobson في تعليقه على خطورة انتشار الشذوذ الجنسي على مؤسسة الأسرة الوارد في تقرير واقع العائلة الأميركية المنشور عام 2000م بقوله:

“It is attempting to destroy the definition of marriage as being between one man and one woman. If homosexuals are successful in that effort, then marriage will lose its meaning. If it is not exclusively between one man and one woman, then any combination of temporary relationships could qualify, such as two men and three women. Polygamy itself would be legal. In short, if marriage means everything, then it ultimately means nothing. Second, homosexual activists have targeted children and youth with the objective of capturing their hearts and minds. Our public schools in California and Massachusetts, in particular, appear to be moving relentlessly in that direction. In some curricula, children are taught that homosexual behavior is acceptable and normal and that moral perspectives are hate-filled and bigoted. We must be diligent to oppose those initiatives’[410].

ويؤكد المختصون أن شريحة الشباب اليوم في العالم، يبرزون للعيان من خلال نوعية مشاكلهم ونزعاتهم المرضية وإقدامهم المروع على المخدرات وعُقَدهم المركبة، حاجتهم الماسة إلى الشعور بالسكينة والأمان ومقاومتهم لسطوة المادية وعبادتها في شتى الميادين. وهو أمر ناجم في الغالب عن ضعف أو انهيار مؤسسة الأسرة.

ويعبر الكاتب Henrietta Moore عن مظاهر الأزمة الأخلاقية والاجتماعية التي باتت تسود المجتمعات متمثلة في زيادة نسبة الطلاق، والتفكك الأسري، الشذوذ، تعاطي المخدرات، الانتحار بين الشباب...بقوله:

“Historians and social scientists have documented many instances in different societies at various times of what they term "moral panic". These moments of crisis in what are perceived as deeply rooted and firmly held cultural and social values have often occurred in periods of transition and rapid social change. The extent to which such crises accurately reflect changing circumstances is questionable, since they often appear to be part of a response to change rather than an instigator of it. However, it is clear that many countries and communities at the present time sense their social and cultural values to be

410_ The Family in Crisis;United States Census, 2000,http://www.unityinchrist.com/christiangrowth/family.htm

under threat from a diverse range of social, economic and political changes that appear both interconnected and global in their spread"[411]..

"We have sensed for a long time that the traditional family is in serious trouble, and the recent Census revealed just how dire the situation has become. The alarming results show that households headed by unmarried partners (most of them involving people living together out of wedlock) grew by almost 72 percent during the past decade. Households headed by single mothers or fathers increased by 25 percent and 62 percent respectively, and for the first time ever, nuclear families dropped below 25 percent of households. Thirty-three percent of all babies were born to unmarried women, compared to only 3.8 percent in 1940. Other studies show that cohabitation increased by close to 1,000 percent from 1960 to 1998, and that households headed by same-sex couples are soaring. We are also seeing a growing number of unmarried women in their 20s and 30s who are choosing to bear and raise children alone"[412].

وقد عبرّ الأمير تشارلز قبل أعوام مضت عن طبيعة القلق المتزايد في الغرب بشأن تلك الأوضاع حيث قال:

" إن المادية المعاصرة أحدثت خللاً مروعاً في حياة الفرد والمجتمع لأنها مادية فقدت عنصر التوازن الضروري لحياة سوية متناسقة متكاملة. ولقد ب**دأنا نحن أبناء العالم الغربي نشعر بأننا قد فقدنا الإحساس الكلي بالكون والبيئة وبمسؤوليتنا الشاملة إزاء الخلق. ويمكن لنا نحن أبناء الغرب من أجل إعادة اكتشاف الفهم الأصيل لوجودنا ومهمتنا أن نلتمس العون على ذلك من التراث الإسلامي المشبع بالنظرة الكلية الأصيلة إلى الكون والإنسان**، كما يمكن الاستفادة من هذا التراث في تحسين نظرتنا نحو الأفضل في الخلافة العلمية للإنسان..ولا شك أن انفصال العم والتكنولوجيا عن القيم والموازين الأخلاقية قد بلغ حداً مروعاً مفزعاً...(إلى أن يقول): إن رسالة الإسلام مهمة للغرب فهي أكثر تكاملا وتوحيدا للعالم .."[413].

ويقول الرئيس الروسي ميخائيل جورباتشوف:

---

[411] - Is There a Crisis in the Family, UN Research.

[412] - James Dobson, http://www.unityinchrist.com/christiangrowth/family.htm.

[413]- راجع نص المحاضرة في: جريدة الشرق الأوسط، العدد 6598، لندن، تاريخ 12/21/ 1996م. وثمة مقالات عديدة تتحدث عن تأكيد الأمير تشارلز أهمية الإفادة من الإسلام انظر على سبيل المثال:

"ولكن طوال سنوات تاريخنا البطولي والمتألق عجزنا أن نولي اهتماماً لحقوق المرأة الخاصة .. واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأم وربة منزل ووظيفتها التعليمية التي لا غني عنها بالنسبة للأطفال .. إن المرأة إذ تعمل في مجال البحث العملي .. وفي مواقع البناء . وفي الإنتاج والخدمات .. وتشارك في النشاط الإبداعي، لم يعد لديها وقت للقيام بواجباتها اليومية في المنزل – العمل المنزل – وتربية الأطفال .. وإقامة جو أسري طيب، لقد اكتشفنا أن كثيراً من مشاكلنا – في سلوك الأطفال والشباب .. وفي معنوياتنا .. وثقافتنا وفي الإنتاج تعود جزئياً إلى تدهور العلاقات الأسرية .. والموقف المتراخي من المسؤوليات الأسرية. وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا المخلصة والمبررة سياسياً لمساواة المرأة بالرجل في كل شيء. والآن في مجرى البيريستوريكا، بدأنا نتغلب على هذا الوضع. ولهذا السبب فإننا نجري الآن مناقشات حادة في الصحافة .. وفي المنظمات العامة.. وفي العمل والمنزل .. وبخصوص مسألة ما يجب أن نعمله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النائية البحتة. وهناك مشكلة أخرى هي استخدام المرأة في الوظائف الشاقة الضارة بصحتها .. وهذا هو تراث الحرب التي فقدنا فيها أعداداً ضخمة من الرجال .. لقد بدأنا الآن نعالج هذه المشكلة بشكل جاد. **وإحدى المهام الاجتماعية والأكثر إلحاحاً بالنسبة لنا وهي مهمة هامة كذلك في الحملة ضد المسكرات تتمثل في تحسين صحة الأسرة وتعزز دورها في المجتمع**[414].

ما يمكن أن تقدمه سيرة النبي الكريم اليوم في مجال الأسرة

لقد قدّم النبي الكريم عليه الصلاة والسلام من خلال سيرته الحضارية العطرة وحياته الأسرية الكريمة، أروع الأمثلة في كيفية بناء مؤسسة الأسرة وتنشئة الأطفال والمراهقين تنشئة حضارية سليمة، تجعل منهم عناصر فعالة في تحقيق الأمن والاستقرار لأنفسهم وأسرهم وأوطانهم

[414]– ميخائيل جورباتشوف، البيريسترويكا: تفكير جديد لبلادنا والعالم، ترجمة: حمدي عبدالجواد، دار الشروق، مصر، 1988م، ص 35.

بل والعالم بأسره. كما قدّم أساليب تربوية راقية في تنشئة الأفراد في بيئة بعيدة عن مختلف الانحرافات الخلقية والسلوكية.

لقد حوت السيرة النبوية نماذج عدة يمكن الإفادة منها في مجال التنشئة الأسرية والاجتماعية Socialization في العالم كله.

فالأسرة تعد بلا منازع الجماعة الأولية التي تُكسب النشء الجديد خصائصه النفسية والاجتماعية. وهي التي تزود الفرد بالرصيد الأول من القيم التي ترشده في سلوكه وتصرفاته. وتشير الدراسات الحديثة والبحوث التي أجريت بهذا الصدد أن أساليب التنشئة الاجتماعية التي يستخدمها الآباء والأمهات مع الأولاد إنما تعكس الاتجاهات الوالديةParental Attitudes وهي عبارة عن مشاعرهم وتوجهاتهم في أساليب التعامل مع الأبناء. وأغلب طاقات المجتمع الفردية أو الجماعية تنبع من التركيب الأسري للفرد، وكلما كانت التربية الأسرية مبنية على أسس سليمة وبناءة، كلما أنتجت من الكفاءات ما يرفد المجتمع بعوامل القوة والنجاح.

ومن أبرز الوسائل التي يمكن من خلالها تعزيز دو رالأسرة في العالم ما يلي:

– التعامل مع الطفل بإيجابية ومحبة، واحترام فرديته، يساهم في تفتح شخصيته، وتنمية قدراته الإبداعيَّة، وهذا موكولٌ بالأسرة التي تستطيع أن تهيئ له فرصة التعبير عن أفكارٍ جديدةٍ وإيجابية، وتوفر له فرص القراءة والمناقشة وطرح الأسئلة. وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك نموذجا يحتذي به المربون والآباء. فعن سهيل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله أتي بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحدا قال: فتله رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده[415].

[415]- البخاري: الفتح: 10/ 5620 واللفظ له.

فسلطة الوالدين لا تكون من النوع التسلطي القهري بل تكون كنوع من التوجيه والتربية والقيادة. فيتربى الأفراد فيها على احترام الذات والتفكير الإيجابي واحترام الغير النابع من احترام الإنسان لذاته. وهذا النوع من التنشئة هو الذي ينبغي أن تتوجه إليه أنظار المربين وبخاصة الآباء والأمهات. ويمكن أن تسهم وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية في مرحلة مبكرة جدا بتوعية الوالدين بأهمية ذلك ودوره في إرساء القيم والمثل المنشودة.

كما أوضحت تلك الدراسات أن فرض إرادة الوالدين دائما على أبنائهم وتسلطهما عليهم بشكل مستمر، واستخدام أساليب التهديد أو الضرب والحرمان، تؤدي إلى التطرف وضعف الثقة بالذات وتحاشي المواقف والآخرين والعزلة عن المجتمع، وإعاقة الأولاد عن التفاعل الإيجابي مع المجتمع[416].

إضافة إلى أن وجود نوع من العلاقة السلطوية بين الوالدين والأبناء، يحدّ من درجة التواصل الضروري بين الطرفين ويئد روح الحوار والميل إلى العزلة واللجوء إلى الصمت من باب غلق منافذ أية مواجهة بين الطرفين. فيتربى الأولاد على الشعور بالتهميش والظلم مما يؤدي إلى تولد غضب مكبوت لديهم لا يستطيعون التعبير عنه إلا من خلال وسائل العنف والتطرف والتمرد والانحراف في غالب الأحيان.

وقد أظهرت الدراسات أن من أبرز المتغيرات الاجتماعية المرتبطة بالعدوان والانحراف، أسلوب التنشئة الذي يعايشه الطفل في محيط أسرته على وجه الخصوص. كما أظهرت ارتباط السلوك العدواني والمنحرف بتهيئة الطفل للتصرف بعدوانية وانحراف مع الآخرين. كما أن تهميش دوره كفرد في الأسرة وإقصاء رأيه والتقليل من شأنه، سيؤدي به إلى ممارسة تلك الأشكال من السلوكيات والتصرفات مع الآخرين[417].

[416]- حامد الفقي، أنماط الضبط الوالدي في المجتمع الكويتي، لويس كامل مليكة(محرر) قراءات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1994م، ج6، ص 43-45.

[417]- فؤاد البهي السيد، علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1981م.

وقد حوت السيرة النبوية نماذج عدة تؤكد هذا التوجه في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم للصغار والكبار بأسلوب يتسم بالأناة والحلم والبعد عن الانفعالات والغضب التي تترك آثارا سلبية على نفسية المتعلم يمتد أثرها إلى مدى بعيد وينعكس على سلوكياته فيما بعد.

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[418].

كما جاء عن عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ يَقُولُ كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ[419].

– **اهتمام الأسرة بالضبط الأخلاقي، وتحاشي الممارسات الخاطئة في تنشئة الأطفال،** كخلو الحياة الأسرية من أية ضوابط أو التشدد الشديد البعيد عن توضيح مواطن الخلل والزلل في سلوك الطفل. فإذا تجاوز الطفل مرحلة التفاعل الإيجابي مع أقرانه ورفض أسلوب الحوار والمناقشة معهم وانتقل إلى مرحلة العنف والعدوانية مع غيره، فلا بد للوالدين من معالجة الأمر بحزم ومعاقبته معنويا على ذلك ومراقبة ذلك السلوك. وفي المقابل يمكن للوالدين تنمية حساسية الطفل نحو مساعدة الآخرين والتعاطف معهم وتعزيز وسائل التعايش مع الغير.

---

[418]- رواه مسلم، باب المساجد ومواضع الصلاة، رقم 836.

[419]- رواه البخاري، الأطعمة، رقم 4957.

وقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم أسلوباً فذاً في تبني هذا النهج مع المتعلمين. ففي الحديث الذي رواه أبو أمامة أن فتى من قريش أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إئذن لي في الزنا فأقبل القوم عليه وزجروه فقالوا مه مه فقال أدنه فدنا منه قريبا فقال أتحبه لأمك قال لا والله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال أفتحبه لابنتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لبناتهم قال أفتحبه لأختك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال أتحبه لعمتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لعماتهم قال أتحبه لخالتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك قال ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال فوضع يده عليه وقال اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[420].

و اهتم النبي الكريم بالتربية الهادئة التي تبني شخصية المتعلم وتنّمي روح الاستقلالية والثقة في نفسه. كما ضرب أمثلة في معالجة الأخطاء الصادرة عن النشء بأسلوب هادئ يتسم بالإيجابية.

عن أَنَسٌ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَابِضٌ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقَالَ يَا أُنَيْسُ اذْهَبْ حَيْثُ أَمَرْتُكَ قُلْتُ نَعَمْ أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَنَسٌ وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ سَبْعَ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ مَا عَلِمْتُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُ هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَ[421].

والمتأمل في هذا الحديث، يلحظ الأسلوب التربوي الفذ الذي خاطب به النبي صلى الله عليه وسلم أنس، الأمر الذي أثمر تصحيح الخطأ والتجاوب معه. فالتنشئة الحقيقية لتعزيز الحوار

---

[420]- رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

[421]- رواه أبو داود، باب الأدب، رقم 4143.

الهادف البناء لابد أن تبدأ بالاعتناء بالأطفال. فهذا هو المدخل الأساسي الصحيح لكل جهد هادف لتنمية بشرية حقيقية. ولابد من الأخذ بعين الاعتبار عامل الزمن وأثره في إذكاء وإنجاح هذه التنشئة، فعملية إكساب الطفل المفاهيم الصحيحة والقيّم المثلى، عملية تحتاج إلى كثير من الوقت، لكنها هي المحصلة الفعلية الحقيقية للإنسان.

– دور الأسرة في تربية الاستقلالية الفكرية لدى الناشئة. فغياب الاستقلالية يسوق إلى تفعيل روح التبعية، وهذا وإن بدا للناظر أنها تضبط روح التمرد لدى المتلقي، إلا أنها لا تحقق الإشباع النفسي إلى الاستقلال عن غيره، التي هي جزء من النمو النفسي السوي لنفس المراهق والتي إن لم يتم إشباعها فسيجتهد المراهق بذاته في البحث عن وسائل الإشباع منطلقًا من تصوره الشخصي للصواب والخطأ أو مما يرده من مصادر أخرى قد تكون غير آمنة.

ومن المعلوم أن من تمت تربيته على الاتباع دون الإدراك الواعي فإنه أيضًا عُرضة لاستباق الغير إليه وتربيته على اتباعه خصوصًا إذا وفر له ما يحتاجه من احترام أو شهوات على عكس التربية على المسؤولية التي تنتج لنا أفرادًا قادرين على الإدراك واتباع الصواب وتجنب الخطأ مما يراه نابعًا من ذاته من فكر آمن.

يقول في ذلك باولو فرايري صاحب كتاب تعليم المقهورين:" إن منهج طرح المشكلات يعتبر الحوار أساسا من أجل فهم العالم..ويساعد منهج التعليم الحواري على الإبداع والفهم والتبصر بحقائق الوجود وبالتالي فإنه يحقق إنسانية الإنسان"[422].

المبحث الثاني: حدة التعصب والتطرف العالمي

التعصب في اللغة: من العصبية، والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين. وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل: تعصبوا.

---

[422]– باولو فرايري، تعليم المقهورين، ترجمة: يوسف نور عوض، دار العلم، بيروت، 1980م، ص 9.

والعصبي هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم والعصبة هم الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه ويتعصب بهم[423].

أما التعصب في المفهوم الأوروبي، فهو مأخوذ من الإسم اللاتيني الحكم المسبق Praejudicium [424]. ويعني الفكرة المسبقة التي لا تستند إلى واقع موضوعي أو منطق سليم. وتكون لدى المرء بحكم وجودها بين من ينتمي إليهم وتنتقل منهم إليه، فيكره أو يحب من تنسحب عليه الفكرة أو الكمّ دون سابق معرفة أو تجربة. فالتعصب هوى بالنفس واتجاه نفسي[425]. وتغير تلك التوجهات في النفس أمر بالغ الصعوبة لما ينطوي عليه من القوالب النمطية[426].

والتعصب يجعل في مقدرة المتعصبين الذين لهم السيطرة في مجتمعاتهم أن يميزوا أنفسهم فيها وأن يفرزوا غيرهم بحيث يستبقونهم تابعين لهم وخاضعين لسيطرتهم. وعادة ما يتوجه في المجتمع الواحد من الأغلبية إلى الأقلية. ويفسر ذلك التوجه علماء النفس الاجتماعيين أن بعض المجتمعات أو بعض الأفراد في جماعة داخل المجتمع، تقوم على اعتبار تماسكها في جماعة واحدة داخلية وتطلق على الأقلية أو ما دونها اسم الجماعة الخارجية. وتبدأ بتصور غيرها من الجماعات على أنها جماعات خارجية مختلفة عنها في خصائصها وثقافتها وقيمها. وبناء على ذلك تعاملها معاملة تتسم بالتعصب والتمييز. وكثيرا ما يقوم الصراع بينهما حيث تمثل قيّم ومعايير وأنماط السلوك للجماعة الخارجية تهديدا لتماسك الجماعة الداخلية[427].

وهو وباء نفسي اجتماعي قديم حاربه النبي الكريم منذ بدء دعوته. فقد كانت قيم العصبية القبلية العربية ومحاور الولاء التي أفرزتها متأصلة بعمق في الذات العربية. فلما بُعث النبي الكريم، أحدث نقلة نوعية تأبى انتقال تلك العصبية إلى المجتمع العالمي الجديد وتؤكد توسيع شبكة العلاقات الاجتماعية إلى ما وراء دائرة الولاء القبلي.

---

[423]- ابن منظور،مرجع سابق، ج2، ص 296.

[424] - http://www.britannica.com/eb/topic-474816/prejudice

[425]- عبد المنعم الحفني، الموسوعة النفسية، مكتبة مدبولي، 1995، ص 345.

[426]- معتز عبد الله، التعصب دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 1997م، ص 88.

[427]- الحفني، مرجع سابق، ص 349.

وقد شكّل التعصب والولاءات العصبية واحدة من أعتى العقبات في طريق الدعوة وانتشارها في بيئة كانت تعتبر المقيمين خارج الدائرة القبلية أجانب عنها ولا ولاء يربطهم بالقبيلة. فكان التحدي الأكبر أن يواجه ذلك التيار وأن يتم تزكية النفوس في سبيل بناء أمو عالمية يتعايش فيها مختلف الأجناس والأعراق.

وعلى هذا اعتبر القرآن الكريم التعصب، من سيماء المجتمع الجاهلي ومن أخطر معالمه التي عانى منها الناس طويلا قبل الإسلام. كما اعتبر الخلاص من التعصب والعصبية من نعم الإسلام على العباد ومن ثمرات تنفيذ تعاليمه ومبادئه. قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[428].

وقد حارب النبي عليه الصلاة والسلام قيّم التعصب واعتبرها قيّما بالية نتنة وحذرّ الأمة من الرّدة إليها واعتبرها من الأمور الكبيرة كما في الحديث: (عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ)[429].

والتعصب له أسبابه المختلفة إلا أن واحدا من أهم أسباب تزايده ودواعيه، غياب الحوار مع الآخرين.

ويرى علماء النفس الاجتماعيين أن التعبير عن التوجه التعصبي لدى الأفراد يتخذ مراحل متعددة منها التمييزDiscrimination وتعد هذه المرحلة بداية أشكال التمييز الضارة، حيث يأخذ صاحب التعصب على عاتقه السعي إلى منع أعضاء الجماعات الخارجية من الحصول على التيسيرات والامتيازات التي يتمتع بها هو والآخرون من أعضاء جماعته.

من هنا كان اعتبار النبي عليه الصلاة والسلام فكر التعصب وخاصة التعصب في المعتقد Belief Prejudice من أخطر الأوبئة الفكرية والنفسية.

---

[428]- سورة آل عمران: 103.

[429]- أخرجه البخاري في صحيحه، تفسير القرآن، حديث رقم 4525.

ويرى علماء النفس أن مردّ التعصب مكتسب فهو فكر وسلوك يتعمله الفرد ويتلقاه من خلال عمليات التعلم الاجتماعي سواء أكان ذلك في الأسرة من خلال آباء وأمهات متسلطين يمارسون التسلط على أبنائهم أو مع جماعة الأقران أو من خلال وسائل الأعلام المختلفة التي تعرض بعض أشكال العنف اتجاه فئات معينة أو جماعات محددة فتنمي روح الكراهية إزائها. ويعد هذا الاتجاه في تفسير ظاهرة التعصب الأكثر شيوعا وقبولا في ميدان علم النفس الاجتماعي بوجه عام[430].

وقد يكون الفرد في بداية حياته متمركزا حول ذاته ثم نما في مجتمعه ليصبح متحمورا حول الجماعة، ثم لعبت عوامل التنشئة الاجتماعية دورا في إكسابه وتعليمه اتجاهات معادية أو مناهضة لأحدى الجماعات زادت المسافة الاجتماعية ونما الاتجاه السالب لديه[431].

كما يذهب علماء النفس كذلك إلى رد بعض أسباب التعصب إلى مشاعر نقص في المتعصب تجعله يغالي في الانتساب إلى قيم ومعايير جماعته ليقوى بها ويجد متنفسا لصرف مشاعر النقص لديه على أفراد الأقلية[432].

وخلاصة القول أن كافة أشكال التعصب تتوقف أساساً على استعداد الفرد أو الجماعة لقبول هذه الظاهرة أو المفهوم أو السلوك. فالانغلاق الذاتي للفرد والتربية الثقافية والتراكمات النفسية والثقافية والفكرية، تسهم في تشكل تلك السلوكيات الصدامية.

كما أن إنكار ورفض الاعتراف بالمخالف هو في حدّ ذاته سلوك صدامي عام يصدر من خلال القنوات النفسية والثقافية والعقائدية للفرد حتى يصبح عاجزا عن التفاهم مع الآخرين. وفي الطرف الآخر فان الفرد المتسامح والايجابي نراه قادرا على التواصل مع الآخرين والانفتاح عليهم على كافة المستويات.

---

[430]- معتز سيد عبد الله، مرجع سابق، ص 558.

[431]- ليلى عبد الستار، تنمية التفكير السليم لدى الشباب الجامعي لمواجهة التطرف، مجلة دراسات تربوية، المجلد السابع، الجزء 43، القاهرة، 1992م، ص 197.

[432]- الحفني، مرجع سابق، ص 352.

والتعصب أولى خطوات التطرفExtravagance فالإنسان المتعصب هو الذي لا يعترف للآخرين بوجود، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين، وموازنة ما عنده بما عندهم، والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهاناً، وأرجح ميزاناً[433] . وهو ظاهرة قديمة قدم الإنسان فقد عرفت البشرية موجات بالغة من التطرف. وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالجمود العقلي Dogmatism والانغلاق الفكري. فالتطرف في الأساس أسلوب مغلق للتفكير يتسم بعدم القدرة على نقل أية معتقدات أو آراء تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة التي ينتمي إليها[434].

وهو اتجاه نفسي وانفعالي يجعل الفرد يؤمن بعقيدة أو حكم مسبق دون الاعتماد على سند منطقي أو معرفة كافية أو حقيقة علمية. الأمر الذي يقوده إلى إلى عدم إدراك الواقع إلا من خلال نظرته الذاتية بكل ما تحمله من تحيزات[435].

وتشير الدراسات في علم النفس إلى أن التطرف مظهر من مظاهر التعصب للرأي الذاتي والعقيدة والفكر وعدم الرغبة في الإعتراف بالنقد الموّجه من قبل الآخرين. من هنا يظهر التطرف من خلال الرفض لمناقشة الرأي الذي يعتقده، مما يجعله يقف في وجه كل فكر جديد. الأمر الذي يجرّه إلى اعتقاد أنه يمتلك الحق المطلق، ويدفعه إلى التصرف فى اتجاه تصويب الآخرين وإقناعهم بوجهة نظره. فإن لم يحدث اقتناع، لجأ إلى العنف وهو الممارسة العملية للتطرف الفكرى، والمحصلة النهائية له. والاستمرارية في رفض المخالف وآرائه مطلقا مهما بلغت من الصحة والصواب، يزيد من حدة التطرف وقد تدفع به إلى العدوان لإسكات كل صوت يغاير رأيه واعتقاده.

ومما ينجم عن التطرف والتعصب، ظواهر العنف Violence والعدوان Aggession والعداوة Hostilty. فالعنف في جوهره حالة نفسية سلبية ضد الآخر بحيث تنفيه وترفضه في وجوده ونفسه أو في موقعه ومنصبه أو في مصالحه وعلاقاته، وتتحرك نحوه بطريقة عدوانية –

[433]- مصطفى سويف، التطرف كأسلوب للاستجابة، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968م، ص 4.
[434]– سمير نعيم، المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، يناير 1990م، ص 111.
[435]– حامد عبد السلام زهران، علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1974م، ص 165.

تدميرية. والعدوان: أي سلوك يصدره الفرد بهدف إلحاق الضرر أو الأذى بفرد آخر أو مجموعة من الأفراد بدنيا أو لفظيا بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

أما العداوة فهي استجابة اتجاهية تنطوي على المشاعر العدائية والتقويمات السلبية للأشخاص والأحداث وهو ما يعبر عنه بصورة لفظية[436].

والعلاقة جد قريبة بين الثقافة التي تؤسس لمقولات الإكراه والإلغاء والنفي، والسلوك العدواني تجاه الآخر بمختلف درجاته. فالثقافة التي لا ترى إلا ذاتها وتلغي ما عداها، هي المقدمة النظرية لذلك السلوك العدواني الذي لا يرى إلا قناعاته ومصالحه ويعمل على تدمير الآخر بمستويات متعددة. والعلاقة بين الثقافة التي تبث الكراهية بين بني الإنسان لدواعي أيدولوجية أو سياسية، وبين السلوك العدواني بكل مستوياته والذي يستهدف تدمير الآخر والغاء هي علاقة السبب بالنتيجة. فلا يمكن أن تنتج ثقافة الكراهية والبغضاء والإلغاء واقع المحبة والألفة والتسامح، بل تنتج واقعاً من طبيعة ماهيتها وجوهرها، وهو العدوان بكل صوره ومستوياته.

وهو سلاح يستخدمه البعض عندما لا يستطيع ان يستجيب لمتطلبات التواصل والحوار. فعندما يعجز الفرد عن إقامة التفاهم والاتصال الموضوعي مع الآخرين يلجأ للعنف لاثبات وجوده وفرض قيّمه. اذ أن استخدام العنف في غير موقعه يبين ضعف الفرد أو الجماعة في التواصل والاندماج بشكل سليم في المجتمعات البشرية وفقدان القدرة التفاعلية على الحوار والتفاهم والتكامل.

ويرى بعض علماء النفس العنف والعدوان بمختلف أشكاله في ضوء التفاعل بين التفسير الاجتماعي والتحليل النفسي لسلوكيات الفرد. مع تأكيد أهمية مفهوم الذات ومفهوم الآخر والتطور النفسي الاجتماعي لهذه الجوانب في بناء الشخصية، ومديات استعدادها لسلوك العنف والعدوان في حال فشل التفاعل والتواصل بين الذات والآخر[437].

[436]- بتصرف عن: عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م، ج1.

[437]- معتز عبد الله، صالح ابوعباة، أبعاد السلوك العدواني دراسة عاملية مقارنة، مجلة دراسات نفسية، المجلد الخامس، العدد الثالث، 1995م، ص 521 وما بعدها.

وتأسيساً على هذا فإن الفشل في إقامة العلاقة بين الذات والآخر على أسس القبول بالتعددية والاعتراف بحق الاختلاف ونسبية الحقيقة، من أبرز العوامل المكرّسة لموجبات العدوان على الآخرين.ذلك العدوان الذي يعتبر أي اختلاف أيدلوجي أو سياسي أو ثقافي، مدعاة لانتهاك حقوق الآخرين، ومبررا للاعتداء على حرياتهم ومصادرة أفكارهم أو حياتهم في بعض الأحيان.

ما يمكن أن تقدمه السيرة النبوية لحماية العالم من خطر التعصب

استطاع النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بحكمة بالغة أن يجتث جذور العصبية القبلية السائدة في الجزيرة العربية. ومن أبرز الخطوات التي يمكن استنباطها من المنهج النبوي لمعالجة التعصب العالمي ما يلي:

- **رفض فكر التعميم** Hasty generalization **والتنميط السائد اليوم** من قِبل الغرب تجاه المسلمين أو العكس. والفكر التعميمي أو عمليات التنميط من الأمور التي رفضها القرآن الكريم رفضا قاطعا كما أشرنا سابقا[438]. والناظر في الساحة العالمية اليوم، يدرك خطورة ما أطلق عليه بعض المفكرين الغربيين أنفسهم الاسلاموفوبيا Islamophobia رُهاب الإسلام.

وتعرّف الموسوعة الحرة هذا المصطلح بأنه تعبير جديد للجدل الدائر حول إشكالية التحيز ضد المسلمين، والذي ابتدأ منذ أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات إلا أن حدته زادت بشكل واضح بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م. الأمر الذي جعل الأمين العام للأمم المتحدة – السيد كوفي عنان– يعلن خطورة التعصب والتحيز ضد المسلمين وآثاره السلبية التي باتت تقلق العالم عام 2004م.

---

[438]- من المؤسف ما يقوم به بعض الكتاب الغربيين من تشويه لسمعة الإسلام وتاريخ المسلمين وشخص النبي الكريم بطريقة أبعد ما تكون عن الموضوعية والعقلانية. انظر : Serge Trifkovic, What Muslims, multiculturalists, and the media *hope, you never find out* about Islam

كما أشار السيد Anja Rudiger المنسق التنفيذي لمركز الرصد الاوروبي للعنصرية وكراهية الأجانب إلى خطورة الأمر وآثاره على المجتمع الدولي بشكل عام. ويرى العديد من الكتاب الغربيين أن الاسلامفوبيا نوع من أنواع التمييز العنصري العرقي الجديد.

ويؤكد السيد جاك سترو أن هذا النوع من التمييز ينظر إلى الإسلام باعتباره كتلة متجانسه وثابتة ولا تستجيب للتغيير، ولايعترف الإسلام بثقافات الآخرين – في نظرهم- كما يعتبرون الإسلام بربريا وبدائيا وجنسيا. وينظرون إلى الإسلام باعتباره إرهابا وعنفا وتهديدا، كما يعتبرون أي عداء ضد المسلمين، فهو أمر طبيعي وعادي[439].

تقول الكاتبة كارن آرمسترونج في سياق رفضها للإسلامفوبيا ضد المسلمين:

‘WE have a long history of Islamophopia in Western culture that dates back to the time of the Ctusades. In the twelfth century, Christian monks in Europe insisted that Islam was a vilonet religion of the sword, and that Muhammad was a charlatan who imposed his religion on a reluctant world by force of arms’[440].

وتؤكد الكاتبة وغيرها من المفكرين الغربيين أهمية النظرة الموضوعية والتحرر من التعصب والولاء لأفكار مشوهة حين يتم تناول حياة النبي عليه الصلاة والسلام للتمكن من رؤية إنجازاته العظيمة التي حققها للبشرية بروح التسامح والسلام.

يقول إدوارد سعيد: " ساهمت النخب الثقافية ومواقع صنع القرار في الولايات المتحدة، في تعزيز وتكثيف الصورة النمطية للإسلام كتهديد للغرب. من رؤية زبغنيو برجنسكي في "هلال الأزمات" إلى نظرية برنارد لويس في "عودة الإسلام"، تبدو الصورة المرسومة موحدة: "الإسلام" يعني نهاية الحضارة كما نعرفها "نحن"؛ الإسلام ضد الإنسانية، ومعادٍ للسامية، ولاعقلاني"[441].

كما **توضح الكاتبة آرمسترونج قدرة النبي عليه الصلاة والسلام في اجتثاث روح العصبية القبلية التي سادت في حياة القبائل العربية قبل الإسلام، فكان الواحد منهم يقتل وينهب**

[439] - http://en.wikipedia.org/wiki/Anti-Muslim. Castle, Stephen. "Islamophobia takes a grip across Europe", *The Independent*, December 18, 2006

[440] - Karen Armstrong,p. 17.

[441] - Edward Said, "*Islam Through Western Eyes*," The Nation, 3 April 1980. http://www.thenation.com/doc/19800426/19800426said

ويسلب لأجل ولائه لقبيلته فقط. وتؤكد أن الإنجازات التي حققها في مجال الإصلاح الاجتماعي، لم تكن لتتحقق لولا قيامها على الحلول الروحية القادرة على تحريك مشاعر الإنسان وتغييره.

وترى الكاتبة أن هذه الطاقة الروحية استطاعت أن تحول الرغبة لدى القبائل العربية في القتال والصراع إلى النظر والتأمل والتفكر في قدرة الخالق وكرمه وعطائه ومن ثم الشعور بالمسؤولية تجاه نفسه والآخرين، وهو ما يحتاج العالم إلى إدراكه اليوم[442].

- **الحوار** من أبرز الأساليب التي استعملها النبي عليه الصلاة والسلام لعلاج داء التعصب. فهو الحل الأمثل لإخراج الإنسانية من تلك الدوامة. فالحوار سبيل يعزز مبدأ التعايش بين الحضارات والتواصل الإيجابى بينها لإبراز العناصر التى تعزز احترام الحضارات والأمم الأخرى. فالحوار الهادف المنضبط يعد من أنجع الوسائل في تخليص الفرد والمجتمع من وباء التعصب وتحصينه منه. فالاتصال المباشر بين الجماعات المختلفة يسهم في تخفيف حدة القوالب النمطية والاعتقادات الخاطئة والعمل على تغييرها كما أن التقارب والتفاعل يزيدان في القوة والمحبة بين الجماعات المختلفة.

ويمكن تفعيل هذه الوسائل خاصة في الدول الإسلامية التي يعيش فيها أقليات من معتقدات مختلفة. ففي ظل التقارب والاتصال تزداد فرص التفاعل الإيجابي وإمكان قيام علاقات تقوم على الحوار والاعتراف بالآخر.

والسيرة النبوية حافلة بالشواهد التي تدل على وقوع أنواع شتى من الاتصالات التجارية والثقافية بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى في مجتمع المدينة، مما أدى إلى غياب روح التعصب والقضاء عليها إلى حد كبير رغم وجود جماعات متباينة في المجتمع الواحد كما أشارت الدراسة إلى ذلك سابقا.

فلغة الحوار هي السبيل الأمثل للتواصل مع الآخر في الوجود الإنساني، وإن كان يحمل رأياً مناقضاً أو فكراً معارضاً، أو مذهباً يبتعد في تكوينه عن الآخرين.

---

442 - Karen Armstrong, p. 63.

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على مدّ جسور الحوار والتعارف في مجتمع المدينة مع مختلف الفئات المتواجدة آنذاك، ليخلّص المجتمع من القوالب النمطية المهددة بإشعال التعصب والتحزب من حين لآخر. جاء في السيرة النبوية عَنْ أَنَسٍ أَنَّ يَهُودِيًّا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى خُبْزِ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ فَأَجَابَهُ[443].

والتعصب باعتباره سلوكا متعلما، يمكن تغييره أو التخفيف من حدته إلى حد كبير، من خلال تفعيل وسائل التوعية والدعاية غير المباشرة والتثقيف. ويلعب التعليم دورا إيجابيا هاما من خلال التشجيع على تقريب المسافات بين الجماعات المتعايشة خاصة تلك التي تشترك في مجتمع واحد[444].

ولا يشترط في الحوار والاتصال أن يكون بشكل مباشر بين الجماعات المختلفة، بل يكتفى بالمشاركة في أعمال ومشاريع متنوعة، يحدث من خلالها احتكاك واطلاع على إمكانيات الآخرين وأفكارهم. ولا تخفى أهمية الحوار الجاد في نشر روح التسامح والتعايش وما يترتب علي ذلك من تلاقح فكري وحضاري.

تقول المستشرقة زيغريد هونكه: " كانت الاحتكاكات بين الآراء المختلفة قد منحت الحركة الفكرية حيوية دائمة وحمت الإسلام من الجمود وأجبرته على أن يسلح نفسه علميا وأن يتطور بالقوى العقلية وينهض بها من سباتها"[445].

وقد أثبتت الدراسات السيكواجتماعية، ومدرسة جنيف التي تتعلق بالبناء الاجتماعي للذكاء، أن القدرات العقلية للفرد لا يمكنها أن تتطور إلا مع الآخر المختلف أي في ظل الصراعات المعرفية، التي تشكل المجال الأفضل للتطور الذهني والمعرفي. فالتفاعل الاجتماعي،

---

[443]- مسند أحمد. 13357

[444]- راجع في ذلك كله: ليندا، ل، دافيدوف، مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب وآخرون، القاهرة، 1983م، ص616 وما بعدها.

[445]- زيغريد هونكه، ص 373.

يمكّن الفرد من بناء أدوات ذهنية جديدة تساعده على مزيد المشاركة في تفاعلات اجتماعية أكثر تطوراً وأكثر تعقيداً، وهو ما يسمى بالسببية اللولبية[446].

كما تؤكد الأبحاث التطبيقية في علم النفس والتعليم التي قام بها جان بياجيه[447] (1896-1980) أن التقدم المعرفي وإثراء الفكر لا يحصل إلا إذا وجد الأفراد أنفسهم في وضعيات اختلاف ومواجهة مع أفراد متنوعي المستويات والتوجهات. وبناء على ماقدمته هذه الأبحاث من حقائق يمكن أن نستنتج أن **أي صراع معرفي بإمكانه أن يؤدي إلى إثراء الفكر يشترط وجود اختلافات في آراء الأطراف المجتمعة حول عملية تملك المعرفة.**

إذ أن الاختلاف يفرز لدى الفرد وعياً مزدوجاً[448]. فهو من ناحية يُشعر الفرد أن نظامه التأويلي غير متلائم مع ماهو مطلوب منه فيتجاوز بذلك البداهة الخادعة والأفكار المسبّقة والمعارف الحسية المباشرة والسطحية عبر تصحيح الفكر بالوقائع، وترشيد الواقع بالفكر في حوار جدلي دائم. ومن ناحية أخرى يكتشف الفرد أوجه نظر مغايرة، وهو أمرمهم، لأن هذا الاكتشاف سيعينه على تجاوز التمركز حول الذات (أي تمركزهُ حول ذاته) المضرة بالنمو السليم لفكره، لأن الطفل يتجاوزها عند سنّ السابعة. إلا أن إثراء الفكر عن طريق الصراعات المعرفية يتطلب مُناخاً معيناً يقبل الاختلاف ويسوده التفاهم والتسامح.

وقد بينت الدراسات السيكواجتماعية منذ تجربة ك. لوين المجرات سنة 1938. مدى تأثير الأجواء السائدة على نتاج الفكر وإثرائه.

---

[446]- حول ذلك انظر: عبد المنعم الحفني، موسوعة مدارس علم النفس، مكتبة مدبولي، مصر، 1995، ص 471. وهو ما أشارت إليه المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه. انظر من هذه الدراسة ص 54.

[447]- نظرية الارتقاء المعرفي لـ " جان بياجيه" "1896- 1980" هي واحدة من أهم النظريات في علم النفس الحديث، واذا كان مقياس اي نظرية يقاس بقابلية فروضها للتحقق من صحتها وامكانية الحصول على نفس النتائج في ظروف مشابهة مع وضوح التعريفات المتعلقة بالنظرية الى جانب ما يمكن للنظرية أن تثيره من بحوث جديدة، فاننا نستطيع ان نقول أن أغلب هذه الشروط – ان لم يكن كلها – قد توافرت لنظرية "بياجيه" بطريقة لم تتوافر لأية نظرية اخرى مشابهة في مجال علم النفس ، فقد حصر "مدجل" حتى عام 1976 ما يزيد على 35 ألف بحث ودراسة أجريت حول المفاهيم الاساسية في نظرية "جان بياجيه".

[448]- أرنو ف. ويتبيج، نظريات ومشكلات في سيكولوجية التعلم، ترجمة: عادل عز الدين الأشول وآخرون، دار ماكجروهيل للنشر، 1984م، ص 329. وانظر: جان بياجيه ، اللغة والفكر عند الطفل ، ترجمة احمد عزت راجح ، ط1 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1954 م.

كما تؤكد النظرية التفاعلية الاجتماعية لدواز Doise أن التعلم لا يتم عن طريق الصراع المعرفي فحسب بل يتم بصفة أفضل داخل المجموعة وذلك عن طريق الصراعات الاجتماعية المعرفية Les conflits sociocognitifs.

وقد أبرزت مدرسة جينيف من خلال مباحثها أن **دينامية التطور المعرفي تكون أفضل داخل وضعيات التفاعل الاجتماعي تلك التي تحمل كل مشارك في الصراع على ابداء آرائه أو تنسيق جهوده مع الآخرين الشيء الذي يمكنه من التطور المعرفي**، وتشترط لذلك: وجود نسبة من الاختلافات بين آراء الأفراد. كما ترى ضرورة تنظيم المشاركة وتطوير الصراع المعرفي ليؤتي ثماره.

وتشكل العوامل الذاتية أكثر العناصر محورية وأهمية في الذات. فالنفس الإنسانية عندما تسرف في تقدير ذاتها وتستعلي على الآخرين وتحس بالتفوق المطلق ترفض الاعتراف بغيرها، ومن هنا ينشأ الاستبداد.

هذا بالإضافة إلى سيطرة الروح الأنانية والمصلحية في الإنسان التي تحاول ان تحتكر كل شيء لصالح منافعها الخاصة، التي قادت إلى كثير من النزاعات والصراعات العبثية.

ويرى الفيلسوف الفرنسي ألكسيس دي توكفيل[449] Tocqueville أن الفردية بحد ذاتها صيغة مخففة من الأنانية التي تدفع كل فرد من أفراد المجتمع إلى عزل نفسه والابتعاد عن الآخرين. ويرى توكفيل أن تماسك المجتمع يتطلب تجاوز النزعة الفردية والأنانية الضيقة[450].

إن القراءة التاريخية لمعظم الأمم والحضارات تعطينا نتيجة واضحة وهي ان **الأمم التي استطاعت ان تتقدم وتتطور وترتقي سلم الحضارة هي الأمم التي استطاعت ان توجد حالة التجانس**

---

[449]- ولد توكفيل بعد الثورة الفرنسية مباشرة (عام 1805) ومات بعد أواسط القرن التاسع عشر بقليل عن عمر لا يتجاوز الرابعة والخمسين عاماً، مفكر سياسي وعالم اجتماع ومؤرخ عميق في ذات الوقت، وقد ولد اصلاً في عائلة ارستقراطية مؤيدة للعهد القديم ومعادية بالضرورة للثورة الفرنسية التي قضت على امتيازات الطبقة الارستقراطية ومصالحه. خلف وراءه بعض الكتب المهمة من أشهرها الديمقراطية في أمريكا.

[450]- حول ذلك كله انظر:

Oliviour Zunz & Alan S. Kahan,The Tocqueville Reader, Blackwell Publishing. Oxford, 2003.

والتعايش والتفاهم بين مختلف الفئات والقوميات والطوائف والأديان وفي مختلف جوانبها النفسية والاجتماعية والسياسية بحيث كتب لها البقاء التاريخي على مرور الأجيال لقدرتها على تحقيق الوفاق الإنساني والسلام العام.

والأمة الإسلامية التي أنشأها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، شاهد حيّ لايزال يزخر بنماذجه الرائعة. فقد استطاعت أن تجمع النسيج البشري في أطر متوافقة من أجل البناء المشترك والحياة السليمة والعدالة العامة بعيدا عن الحرب والقتل والعنف.

وقد استفاد المجتمع المسلم من التواصل الإيجابي مع محافظته على قيمه الذاتية، بناءا على وجود قدرة واعية في تفهم الآخر والاستفادة بشكل متبصر من خلال التبادل الفكري والعلمي والحضاري. من هنا وجدت شخصيات بارزة أسهمت في صياغة الحضارة الإسلامية ونموها رغم مخالفتها في المعتقد والملة. ولم يكن في أي زمن من الأزمنة عنصر التنوع والاختلاف، مشرّعا للتناحر والصراع والتصادم.

فالثقافة التي لا ترى إلا ذاتها وتلغي ما عداها، هي المقدمة النظرية لسلوك عدواني اتجاه الآخر المختلف مطلقا، أيا كانت درجات ذلك الاختلاف. وبذلك تصبح الذات لا ترى إلا قناعاتها ومن ثم تعمل على التخلص من كل ما هو يخالف تلك القناعات وتلغيه.

والحوار نوع من مشروع إصلاح الذات وتخليصها من سموم الثقافة العدوانية التي ما هي إلا مرحلة متقدمة من تغييب الآخر وإلغائه لمجرد مخالفته للذات في الأيدلوجية أو الموقف ونحو ذلك.

فالحوار خطوة ضرورية لتخليص الأفراد والمجتمع من طوفان الاستبداد الفكري القائم على احتكار الحقيقة وتعرية الآخر منها. الأمر الذي يمكن أن يسوق إلى الانتقال إلى مرحلة التفاهم القائم على احترام وجهات النظر وتبادلها بغية التوصل إلى الخلاص من مرحلة الأزمة. ومن ثمّ تحسين علاقة الإنسان بالإنسان بل الدول بالدول. ذاك أن تلك العلاقات إن قامت على أساس الحوار واعتمدت المنطق الذي يقوم على العقل كتب لها النجاح. من هنا كان الإسلام أول الأديان التي

دعت إلى الحوار بين أصحاب الديانات والحضارات الأخرى. كما أن اللقاء الحضاري الإسلامي مع حضارات الأمم المختلفة قد تم على أساس وطيد، ربما لم يتم التوصل إليه من قبل الكثيرين إلا في مرحلة متأخرة.

فالعالم في نظر الاسلام أقرب ما يكون إلى منتدى عالمي لحضارت متميزة تشترك أممها في عضوية هذا المنتدى ومن ثم فلا بد ان يكون بينها مشترك حضاري عام كما لابد أن تكون لكل منها مميزات حضارية تحفظ لها هويتها[451].

والحوار ضرورة حتمية لا تستغني عنها أي حضارة في سبيل تطوير ذاتها. فمن المعروف أن عملية التلاقح الحضاري، تتم من خلال الاقتباس والنقل والتبادل المعرفي وهذه أمور متداولة بين الشعوب قاطبة. فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت ولم توجد حضارة أبدعت ولم تنقل عن غيرها فالنقل والتلاقح والتفاعل والأخذ والعطاء الثقافي ليس وباء وإنما ضرورة حضارية وظاهرة صحية[452].

ولم يكن المسلمون في يوم من الأيام معزولين عن غيرهم من أصحاب الثقافات العريقة. فقد اختلطت الثقافات وتزاوجت في حركة ثابتة مستمرة مما أدى إلى عمليات تصفية للأفكار والمعارف وتقدمها تبعا لذلك الاختلاط والتزاوج الثقافي.

في مثل تلك الأجواء ظهر الإسلام وترعرع فلم ينتشر في فراغ حضاري فقد كانت الأمم والشعوب التي دخلت فيه، ذات حضارات شتى ومشارب فكرية عدة. فاختلطت الثقافات وتمازجت الأفكار وكان الحوار وثقافته سيدا الموقف، ووسيلتا التبادل الحضاري الفكري. وعلى هذا فقد عرف المسلمون حضارة الهند وحكمة فارس وفلسفة اليونان واختلط المسملون بأقوام شتى تنوعت عقائدهم وتشعبت أراؤهم والتقوا بمئات المفكرين والمثقفين من أمم شتى فشاع الحوار

---

[451]- محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة الأزهر، 1988م، ص 8. وانظر كذلك: أحمد عبد الرحيم السايح، في الغزو الفكري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، قطر، رجب 1414هـ، ص 122.

[452]- بتصرف: محمد عبد الرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربي، منشورات عويدات، بيروت، 1982م، ص 152.

الثقافي الذي كان مدعاة للتفاعل الحضاري والذي هو من أهم سمات الحضارة الإسلامية. مع التأكيد على أن الاعتزاز بالهوية والخصوصية الحضارية لا يعنى الانغلاق وتجاهل الحضارات الأخرى وإدعاء التميز عليها، ورفض نتاجها الإنسانى. فالتاريخ الحضارى فى مجمله ثمرة الجهد الهائل والمتراكم للمسيرة الإنسانية على مدار التاريخ.

ومما يلاحظ اليوم أن هناك تيارات تدعو إلى فرض نمط الحضارة الغربية باستخدام كافة وسائل الهيمنة الثقافية والاقتصادية. وهو ما ظهر فى مناسبات ومحافل دولية مختلفة مثل: مؤتمر السكان بالقاهرة 1994 م، ومؤتمر المرأة فى بكين 1995 م.

ومن شأن هذه الدعوات أن تغذى مظاهر الصراع الحضارى بين البشر، وتدخله فى حلقات جديدة أكثر عنفا وضراوة.. ومن ناحية أخرى فإن هناك تيارات تدعو إلى التعايش بين الحضارات والتواصل الإيجابى بينها لإبراز العناصر التى تعزز تقدم البشرية، ويجب على جميع القوى المستنيرة فى العالم، دعم هذه التيارات التى تدعو إلى احترام مختلف الحضارات. وهنا يبرز الحوار من أهم وسائل العودة إلى التفاعل الحضاري والخروج من أزمة الاغتراب والانغلاق.

وتأسيسا على هذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة عالمية وإنسانية منفتحة، قابلة لاستيعاب كل أنواع الثقافات التى احتكت بها. فلا تعارض بين الحفاظ على الهوية وبين الأخذ والاقتباس من الحضارات الأخرى[453].

ومما لا شك فيه أن الحوار من أهم وسائل التفاعل الحضاري بين الأمم ولا ينصرف الحوار إلى الشفاهي فحسب، فقد حاور ابن رشد توما الاكويني (1225-1274م) وغيره من الفلاسفة الغربيين بعد مئات السنين من خلال كتاباته وأطروحاته.

إن العالم اليوم بما يمتلكه من وسائل قتالية متطورة أصبح يهدد البشرية بالإبادة، وأن الاختلاف العرقي والقومي والديني لا بد حاصل في شتى بقاع الأرض، فالتعايش إذاً أصبح

[453]- بتصرف عن: علي فهد الزميع، منهج التواصل بين حضارات العالم، بحث مقدم للمؤتمر الثامن. مرجع سابق، ص 3.

ضرورة واقعية لحفظ كرامة الإنسان وقيمته ولا بد من إحياء هذا التوجه لأن فيه مصلحة عامة تحفظ الجنس والنسل والممتلكات. ولقد وعت العديد من الأمم والشعوب والدول هذه المصلحة فاتجهت إلى الكيانات الكبيرة في سبيل التوحد والتكامل لتحقيق المزيد من الفائدة والخيرات، وهذا مدخل عظيم للتعايش إذا ما تم احترام إرادة الجميع دون فرض سياسات وهيمنة تحاول أن تطبع العالم بطابعها دون احترام للخصوصيات.

كما أن قدرة أي أمة في تحقيق قوتها ورقيها هو في قدرتها على استيعاب الآخرين وضمهم في مسيرتها وتحقيق الوفاق الجماعي الشامل. كما أن عجز أي امة يتبين من نبذها للأخرين وتشتيتها لأفرادها واختيار تقطيع أوصالها لكيانها عندما ترفض مبدأ التوافق. حيث أن التعامل الإيجابي والمتفهم مع الآخر الفكري أو المذهبي أو الديني.. هو العنصر الأساسي في حركة التاريخ المتقدمة نحو المستقبل. إذ أن حركة الإنسان لا تتكامل عناصرها بشكل عملي إلا بتكامل الجسم الإنساني العام. فالإنسان لوحده لا يشكل إلا وجودا يمثل وجها واحدا والوجه الآخر هو الإنسان الآخر الذي يمثل البعد الآخر المكمّل للوجود الإنساني. فالتفاهم حول المشاركة في الحياة داخل العالم الكبير وحمل همومه والسعي في تخليصه منها، والإسهام في تقدمه ونمائه والرضا بما يحققه أبناؤه له من نجاحات في أي مجال، والعمل يدا واحدة على تخليصه من نقائصه وزيادة كمالاته.

والعيش المشترك في هذا العالم، يعني قبول الأطراف المختلفة بفكرة اتساع الدنيا للجميع، وضرورة التعاون على استثمار خيراتها وإعمارها هو الغاية الجامعة للناس أجمعين دون تمييز بينهم في ذلك بسبب الدين أو المذهب أو الطائفة داخل الدين.

- ضرورة **إجراء عملية الربط الحضاري للإنسان برؤية كونية معينة، هي العمل التاريخي الأول في حركة التغيير الاجتماعي، الهادفة إلى بناء ثقافة** .. وقد عمل النبي عليه الصلاة والسلام على ربط الناس بهذه الرؤية، وبالأهداف الحضارية الكبرى للإسلام كبديل عن أهداف

الجاهلية القديمة وعصبيتها وولاءتها المتهافتة. لقد كان جهد الرسول صلى الله عليه وسلم منظماً، ومخططاً بواقعية وعلمية وتوازن.

هذا الذي ظهر من خلال حركة النبي عليه الصلاة والسلام من أجل بناء قاعدة بشرية، ترتبط بأهداف الإسلام الحضارية، وتقتنع برسالته ومشروعه، للتحرك في تناسق، وتناغم، وانسجام من أجل تحقيق رسالة السلام والتعايش العالمي.

ويؤكد هذه الحقيقة المؤرخ المعروف برناردشو بأن **الإسلام هو الدين الوحيد الذي يمتلك القدرة على استيعاب التغيير في مرحلة الوجود وأنه يمكن تقديم نفسه كنداء الى كل عصر. فالنبي محمد أبعد ما يكون عن معاداة المسيح ويجب أن يسمى منقذ البشرية. ولو تولى رجل مثله قيادة العالم، فسينجح في حلّ مشاكله وجلب السلام والسعادة للعالم.**

" I have always held the religion of Muhammad in high estimation because of its wonderful vitality. It is the only religion which appears to me to possess that assimilating capacity to the changing phase of existence which can make itself appeal to every age. I have studied him - the wonderful man and in my opinion far from being an anti-Christ, he must be called the Saviour of Humanity. I believe that if a man like him were to assume the dictatorship of the modern world, he would succeed in solving its problems in a way that would bring it the much needed peace and happiness: I have prophesied about the faith of Muhammad that it would be acceptable to the Europe of tomorrow as it is beginning to be acceptable to the Europe of today"[454] .

- **قرر الإسلام وحدة الدين في أصوله العامة، وأكد على أن شريعة الله تبارك وتعالى للناس تقوم على قواعد ثابتة من الإيمان والعمل الصالح والإخاء**، وأن الأنبياء جميعًا مبلغون عن الله تبارك وتعالى، وأن الكتب السماوية جميعًا من وحيه، وأن المؤمنين جميعًا في أية أمة كانوا هم عباده الصادقين الفائزين في الدنيا والآخرة، وأن الفرقة في الدين والخصومة باسمه إثم يتنافى مع أصوله وقواعده، ويتناقض مع غايته ومقاصده. وأن هذا الدين الموحد هو الدين القيم وفطرة الله التي فطر الناس عليها، وفي ذلك يقول الله تعالى في القرآن الكريم: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى

[454] - George Bernard Shaw, The Genuine Islam, Singapore, Vol. 1, No. 8, 1936.

بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[455]

وفي قول للنبي الكريم: " مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ"[456].

وهكذا نرى **الإسلام يقدم للإنسانية مبدأ "وحدة الدين"**، ويدعو إليه في وقت كانت الدنيا تشتعل بنيران الأحقاد الدينية، وتضطرم بسعير الخصومات المذهبية، وفي هذا المعترك الروحي المتأزم بفعل الخصومات والجهالات يطلع القرآن على الناس بهذه الدعوة الجديدة؛ دعوة التآخي في الدين والاجتماع على أصوله الحقة، والإيمان به كوحدة ربانية؛ إن اختلفت فيها الفروع بحسب الأزمان، فقد اتفقت فيها الأصول الخالدة الباقية؛ لأنها من الفطرة التي لا تقوم إنسانية الناس إلا عليها.

إن **الحديث عن مبدأ وحدة الدين ودوره في بناء الرؤية الإسلامية للعالم وانعكاسها على منظومة القيم العليا الحاكمة للعلاقات بين الأمم والشعوب من منظور هذه الرؤية؛ من أكثر النقاط التي تحدث فيها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام مع الآخرين. والعالم بحاجة إليها اليوم.**

فآيات القرآن تنص صراحة على وحدة الدين، وتأمر النبي وأصحابه بأن يكونوا أول المؤمنين بهذه الوحدة، فالمسلم يجب عليه أن يؤمن بكل نبي سبق، ويصدق بكل كتاب نزل، ويحترم كل شريعة مضت، ويثني بالخير على كل أمة من المؤمنين خلت، قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.**[457]**

---

[455]- الشورى:13

[456]- صحيح البخاري، 3271.

[457]- البقرة: 136

ثم يوضح القرآن بأن هذه هي سبيل الوحدة، وأن أهل الأديان الأخرى إذا آمنوا كهذا الإيمان فقد اهتدوا إليها، وإن لم يؤمنوا به فسيظلون في شقاق وخلاف، وأن أمرهم بعد ذلك إلى الله فيقول: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمِ﴾[458].

والنبي الكريم أكد هذا المبدأ حين أرسل كتابه إلى النجاشي وجاء فيه:

" لما وجّه رسول الله رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام وجه إلى النجاشي عمرو بن أمية فقال له يا أصحمة: إن عليّ القول وعليك الاستماع إنك كأنك في الرقة علينا منا وكأنا في الثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور وفي ذلك وقع الحز وإصابة المفصل وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم وقد فرق النبي رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمنك على ما خافهم عليه لخير سالف وأجر ينتظر فقال النجاشي أشهد بالله أنه للنبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب"[459].

فثمة أصول وقيّم وقواسم مشتركة تربط بين أهل الأديان كلها بل بين الإنسانية كلها من وشائج الإخاء والمحبة، فجاءت حوارتهم تعكس تلك القناعات السامقة.

وهناك أساسان قويان لدعم الوحدة الدينية وإزالة كل شبهة يمكن أن تؤدي إلى جعل تعدد الرسالات السماوية مصدراً للصراع أو الحرب باسم الدين. وقد نص القرآن على هذين الأساسين: أن ملة إبراهيم هي أساس للدين ومرجع الأنبياء الثلاثة الذين عُرفت رسالتهم وهم: موسى وعيسى ومحمد عليهم – جميعًا – السلام، وأهمية تجريد الدين من أغراض البشر وأهوائهم والارتفاع بنسبته إلى الله وحده. وهذا المبدأ الذي أقره الإسلام من أقوى عناصر قدرته على استيعاب الأمم والشعوب كما يقول مونتغمري[460].

---

[458]- البقرة: 137

[459]- أبو الربيع سليمان الكلاعي، مرجع سابق، ج2، ص 390.

[460] - **W. Montgomery Watt,** ISLAM AND CHRISTIANITY TODAY, London, 1983, p. ix.

ويقول المستشرق جب أن العالم الغربي والإسلامي لو قدرا لهما أن يتحدا، لعمّ السلام والامن والرخاء أرجاء الدنيا. وأن الإسلام دين قادر على جمع الكلمة وتوحيد الصف ولمّ الشمل.

But Islam has a still further service to render to the cause of humanity. It stands after all nearer to the real East than Europe does, and it possesses a magnificent tradition of inter-racial understanding and cooperation. No other society has such a record of success uniting in an equality of status, of opportunity, and of endeavours so many and so various races of mankind . . . Islam has still the power to reconcile apparently irreconcilable elements of race and tradition. If ever the opposition of the great societies of East and West is to be replaced by cooperation, the mediation of Islam is an indispensable condition. In its hands lies very largely the solution of the problem with which Europe is faced in its relation with East. If they unite, the hope of a peaceful issue is immeasurably enhanced. But if Europe, by rejecting the cooperation of Islam, throws it into the arms of its rivals, the issue can only be disastrous for both."[461]

إن ما يحويه القرآن والسنة النبوية من قيمّ ومثل وخطوات تنظيرية وعملية في إصلاح مختلف مجالات الحياة، كفيلة بإدارة دفة العالم السائر إلى هاوية الانحطاط والتراجع الحضاري والانهيار الأخلاقي. وهذه القيّم ليست قيّما ضاربة في المثالية أو بعيدة عن الواقع، فقد تحققت بالفعل وعاينها العالم بأسره حين استطاع المسلمون تنفيذها في واقع حياتهم وتحويلها إلى سلوكيات وأخلاقيات. من هنا فإن المسؤولية الواقعة على عاتق العالم الإسلامي جليلة، وكلما ازدادت حاجة العالم إلى هذه القيم، كلما تضاعفت المسؤولية في تقديمها للعالم والإنسانية.

يقول الأمير تشارلز في ذلك:

" إن المادية المعاصرة أحدثت خللاً مروعاً في حياة الفرد والمجتمع لأنها مادية فقدت عنصر التوازن الضروري لحياة سوية متناسقة متكاملة. ولقد بدأنا نحن أبناء العالم الغربي نشعر بأننا قد فقدنا الإحساس الكلي بالكون والبيئة وبمسؤوليتنا الشاملة إزاء الخلق. ويمكن لنا نحن أبناء الغرب من أجل إعادة اكتشاف الفهم الأصيل لوجودنا ومهمتنا أن نلتمس العون على ذلك من التراث الإسلامي المشبع بالنظرة الكلية الأصيلة إلى الكون والإنسان، كما يمكن الاستفادة من هذا التراث في تحسين نظرتنا نحو الأفضل في الخلافة العلمية للإنسان..ولا شك أن انفصال العم

[461] -H.A.R. Gibb, WHITHER ISLAM, London, 1932, p. 379.

والتكنولوجيا عن القيم والموازين الأخلاقية قد بلغ حداً مروعاً مفزعاً...(إلى أن يقول): إن رسالة الإسلام مهمة للغرب فهي أكثر تكاملا وتوحيدا للعالم .."[462].

ولعلّ **العالم اليوم أحوج ما يكون إلى تصحيح المفاهيم المشوهة والأفكار المنحرفة التي تكرست بين العالم الغربي من جهة والمسلمين من جهة أخرى. فكلا الطرفين بات اليوم يحمل صورا قد تغاير في كثير من الأحيان واقع الأمر**. ولا يمكن لتلك الصور أن تتغير دون إقامة حوار مثمر بناء، لا يروم التغيير لمجرد الرغبة فيه، بل حرصا من جميع الأطراف على التوصل إلى الصورة الحقة لكل منهما لدى الآخر.

فالصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، باتت صورة شبه نمطية في تصور الآخر. ولعلّ ذلك يعود إلى عوامل تاريخية وسياسية متضافرة. فقد أثبتت الدراسات الحديثة والبيانات المستخلصة من استطلاعات الرأي العام ومن الدراسات التحليلية لمضامينها أن الآراء الغربية على وجه العموم سلبية تماما عن العرب والمسلمين عموما. ومن اللافت هنا استخدام القرآن الكريم في السياق مصطلح "التعارف" الذي يعني تبادل فعل المعرفة ومفاعيلها على قدم المساواة وبصيغة محايدة، من غير ما ترجيح لجماعة على جماعة، ولا مفاضلة. وهو تكليف متوازن وعادل ومعياري في النظر إلى حقوق وواجبات الشعوب والأمم، غير المشادة على العدوانية والاستكبار.

وإن جذور التغرض عميقة ومتأصلة، أسهمت في تأصلها عوامل متعددة منها: النشر السيء في الصحف والقوالب الذهنية السلبية، جملة الأحداث الراهنة التي أساءت إلى المسلمين بشكل لا نكاد نجد له مثيلا في هذاالقرن..وغير ذلك من عوامل لا تزال تسهم بوضوح في إحباط أية محاولات لنشوء علاقات حوارية. يقول خوان غويتسلو في ذلك:" إننا خاضعون لعملية غسل دماغ كامل ضد العرب والمسلمين"[463].

---

[462]- راجع نص المحاضرة في: جريدة الشرق الأوسط، العدد 6598، لندن، تاريخ 12/21/ 1996م.

[463]- ميخائيل سليمان، صورة العرب في عقول الأمريكيين، ترجمة عطا عبد الوهبا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987م، ص 225 وما بعدها.

وتقول المستشرقة آن ماري شيميل:" إن الخطر الاسلامي الذي يتناقله الغرب كمسلمات يقينية غير قابلة للمناقشة بناءٌ عدائيٌ ضد الإسلام، ترسب في النفوس بفعل وسائل الإعلام وكتابات بعض المستشرقين المتعصبين"[464].

فالحوار والتعايش بين الحضارات والثقافات يساهم في درجة كبيرة في التقارب بين الشعوب والأمم، وازالة الحواجز المتراكمة من سوء الفهم ومن الأفكار المسبقة المختزنة في ذاكرة الشعوب عبر قنوات فكرية تراكمية تقوم في أغلب الأحيان على أسس غير صحيحة.

من هنا يصبح الحوار اليوم جهدا فاعلا وضرورة حتمية لابد من تنميتها والإقدام عليها وتوسيع وسائلها لتجلية المواقف وكشف الأخطاء والتصورات الناجمة عن الانغلاق الفكري وتوضيح صورة الإسلام الجلية. وليس من وسيلة في العصر الحاضر أجدى وأنجع من الحوار المتكامل القادر على التغلب على التحدي الأيديولوجي الذي بات يحاصر الاسلام والمسلمين، من خلال توليد افكار جديدة وتوضيح معانيها.

وهنا تبرز أهمية دور المسلمين بشكل خاص في تبيين الحقائق وتوضيح المفاهيم الخاطئة وكشف الحجب الكثيفة والتراكمات البغيضة التي كرست صورا أبعد ما تكون عن سماحة الاسلام وسمو تعاليمه، مع تجنب الأطروحات التى تدفع الشعوب نحو صدامات جديدة تستخدم فيها شتى أساليب القوة وعدم احترام الإرث الحضارى للبشر. يقول الأمير تشارلز في سياق خطابة في جامعة الأزهر وأثناء تعليقه على الرسومات الدنماركية:

“The row over cartoons of the Prophet Muhammad showed "the danger... of our failure to listen and to respect" others' views…. I look forward to a world in which we share a vision that acknowledges our differences with respect and understanding, that recognises what others hold sacred, and to a world in which we see that we cannot and must not abuse our great traditions and their teachings as a weapon in the service of selfish worldly power."[465]

---

[464]- راجع الحوار الذي أجرته معها: جريدة العالم الإسلامي الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي، تاريخ 18-24 نوفمبر، 1996م، ص 5.

[465] - http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/4824734.stm

وعلى هذا فإن الحاجة ملحة إلى التركيز على **إبراز الخاصية الإنسانية فى الإسلام وتعاليمه، والمنطلقات الإنسانية المستمدة من شريعته التي ينبغي أن تشكل نسيجا للعلاقات والروابط الداخلية والخارجية للمسلمين.** ومن هنا تبدو الأهمية البالغة لإعادة الكشف عن الحقائق الأصلية الخاصة بمنظومة القيم الإنسانية المتكاملة التى تميز الإسلام، والتركيز على إبراز تلّك القيم الإنسانية الأساسية والجوهرية فى الخطاب. إلى جانب أهمية ترسيخ الوعى بأبعاد الطابع الإنسانى للثقافة الإسلامية وما يترتب عليه من أثار إيجابية ثقافيا، وتربويا، وسلوكيا.

والواقع بكل إفرازاته يفرض على المسلمين اليوم أكثر من أي وقت مضى تصحيح الصورة المشوهة التي ألصقت بهم وبدينهم. تلك الصورة التي باتت تشكل أشبه ما يكون بخطة استراتيجية تحدد تعامل الآخرين مع الاسلام والمسلمين. ولابد من التنبه إلى أهمية مواجهة ومحاورة الاطروحات القاضية بذلك[466].

[466]- من ذلك ما كتبه صموئيل هنتينغتون أستاذ العلوم السياسية نشرتها مجلة "فورن أفيرز" الأمريكية سنة 1993م بعنوان !صدام الحضارات وهى مقالة تحذر شعوبا من شعوب بسبب من ثقافاتها ويرى كاتبها أن ثقافات بعينها– وفى طليعتها ثقافة الإسلام وحضارته– هى مصدر الخطر وعامل التهديد لثقافة الغرب وحضارته، بل هى العدو الواجب محاربته والقضاء عليه. وقد نالت هذه المقالة منذ نشرها شهرة مدوية.
.Huntington Samuel P., Foreign Affairs, summer, 1993.

الفصل السادس

خطوات مستقبلية إجرائية للتعريف بالنبي الكريم

على الصعيد المحلي والدولي

تقدم الدراسة في هذا الفصل مقترحات عملية وخطوات جادة للتعريف بشخص النبي الكريم وما قدّمه للبشرية من خلال عرض سيرته بمختلف أبعادها الحضارية والعمرانية. ويمكن تقسيم هذه الخطوات إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: التوعية بالقدوة والسلوك العملي

المبحث الثاني: وسائل معاصرة

أولا: سفارات الدول الإسلامية في العالم

ثانيا: تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية في عرض سيرة النبي الكريم

ثالثا: المناهج الدراسية

رابعا: إنشاء مشروع الموسوعة النبوية باللغات الأجنبية

خامسا: المؤسسات الإعلامية

المبحث الأول: نشر الوعي من خلال السلوك العملي

يعيش العالم اليوم حالة من الضبابية فيما يتعلق بأوضاع المسلمين في العالم على كافة الأصعدة. فالنواحي الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية. ...في العالم الإسلامي على وجه العموم، تخلق نوعا من اللبس بين الجانب التظيري الرائع في تعاليم الدين من جهة، وبين واقع المجتمعات المسلمة المعاصرة وما باتت تحمله من طابع يختلف أحيانا كثيرة من جهة أخرى.

الأمر الذي يستدعي ضرورة تصحيح هذا الواقع في مجتمعاتنا والعمل الجاد على إيقاف القطيعة بين النظرية والواقع، وهو ما يمكن أن نطلق عليه تقديم القدوة الحسنة. فالمجتمع يتأثر بما يرى من سلوكيات وأفعال أكثر من تأثره بالأقوال مهما بلغ تأثيرها. وقد أثبتت الشواهد التاريخية أن الفعل والسلوك من أنجع الوسائل في إبلاغ الفكر الأصيل وأقرب الوسائل والسبل وصولا إلى الطرف الآخر وأكثرها وأعمقها تأثيرا.

والسيرة النبوية حافلة بالروايات والحوادث التي تعكس بجلاء هذه الوسيلة واستعمال النبي عليه الصلاة والسلام المستمر لها مع مخالفيه على تعدد مشاربهم واختلاف انتماءاتهم وتغاير سلوكياتهم تجاهه واتجاه دعوته.

لقد قدّم النبي عليه الصلاة والسلام في مواقف عديدة نقلتها كتب السير، ترجمة صادقة حيّة لمختلف الأخلاقيات السامقة قبل أن يبدأ بالدعوة إليها أصلا. فأقنع العالم من خلال سلوكه بعدالة الإسلام وسماحته قبل أن يصوغها في كلمات وأحاديث.

كما في حديث الأعرابي الذي جاء الى رسول الله فقال ان قومي أسلموا فزادهم الاسلام فقرا فالتفت رسول الله الى رجل كان دفع اليه نفقة فقال قد أنفقت ما كان معي فقال يهودي خلف رسول الله هذا رجل يعطيك ورقا يسلفك في تمر حائط كذا وكذا فقال رسول الله لا تسمي لك حائطا ولكن تسلفنا في تمر مسمى في كيل معلوم الى أجل معلوم فبايعه اليهودي ثم حل ورقا معه فقال رسول لله ادفعها الى الأعرابي الحق فأغث بها قومك فخرج رسول الله في

جنازة فلما وضع الميت في قبره وحثوا عليه قام اليهودي فقال يا محمد ألا تقضين تمري فوالله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب الا تمطلون الناس بحقوقهم فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه والله لولا مجلسه لوجأت أنفك، فقال رسول الله يا عمر أنت الى غير هذا أحوج **أن تأمره فيحسن طلبي وتأمرني فأحسن قضاءه** . انطلق معه الى حائط كذا وكذا وهو الذي كان أراد من رسول الله فأبى أن يسميه له فأدخله فقل لفلان يكشف له عن الطعام فيريه اياه فان رضيه فمره فليوفه ماله وكل له كذا وكذا صاعا بشتمك اياه فانطلق به عمر فأراه فرضي فكال له كما أمر به رسول الله فقال اليهودي لعمر: انه **لم يكن بقي شيء مما وجدنا في كتابنا مما وصف لنا موسى عليه السلام الا قد رأيناه في محمد الا الحلم فقد رأيناه الآن منه فأنا أشهدك أني أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله** وأشهدك أن نصف ما أملك صدقه على من آمن بمحمد فقال عمر انه قد حقت علي نصيحتك لا يسعهم كلهم ولكن اجعله لمن مع رسول الله ففعل ثم ان اليهودي مات فخرج رسول الله فحمل سريره على عاتقه الأيمن وحمل علي أيضا سريره على عاتقه الأيسر"[467].

ومن المواقف التي علّم النبي عليه الصلاة والسلام من خلالها أصحابه كيفية الحوار مع المخالف من خلال القدوة الحسنة والسلوك الهادئ الطيب، موقفه مع اليهودي الذي اتهم بسرقة الدرع. جاء في تفسير الطبري أن الآيات: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا. وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[468]. نزلت في شأن طعمة بن أبيرق وفيما همّ به نبي الله من عذره وبين الله شأن طعمة بن أبيرق ووعظ نبيه وحذره أن يكون للخائنين خصيما. وكان طعمة بن أبيرق رجلا من الأنصار ثم أحد بني ظفر سرق درعا لعمه كانت وديعة عنده ثم قذفها على يهودي كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين فجاء اليهودي إلى نبي الله

[467]- رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين وقا ل عنه صحيح الإسناد، انظر: المستدرك على الصحيحين، ج2، ص 37. صحيح ابن حبان، ج1، ص 521. علي بن ابي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1407هـ، ج8، ص 240. ورواه البيهقي في السنن الكبرى، مرجع سابق،ج6، ص 52. وانظر كذلك هذه الرواية في: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، مرجع سابق،ج1، ص 166

[468]- سورة النساء: 105-107.

يهتف فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبي الله ليعذروا صاحبهم وكان نبي الله عليه الصلاة والسلام قد هم بعذره حتى أنزل الله في شأنه ما أنزل فقال: ﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إلى قوله ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة يعني بذلك قومه وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا. وكان طعمة قذف بها بريئا﴾[469].

وعن أبي حدرد الأسلمي أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه رسول الله فقال ادفع إليه حقه فقال لا أجد فأعادها ثلاثا وكان إذا قال ثلاثا لم يراجع فخرج إلى السوق فنزع عمامته فاتزر بها ودفع إليه البرد الذي كان متزرا به فباعه بأربعة دراهم فدفعها إليه[470].

وهكذا كان السلوك العملي والقدوة الحسنة من أعظم وسائل التخاطب والتحاور مع الآخر وبهذا، انتشر الإسلام في البلاد المفتوحة بالتزام الحق والعدل والإنصاف والمعاملة الحسنة مع المخالفين[471].

فقد أحدث النبي الكريم برسالته ثورة كبرى على الأوضاع الفاسدة التي كانت تسود العالم يوم ظهوره، وعُرف عن حملة رسالته الأوائل، تمثلهم لمبادئ الرسالة تمثلا يعبر عن التحول المتحقق في النيات ونمط السوك والمناشط الاجتماعية في الحياة لبيان جدية رسالتهم في الحياة وأنها جاءت لإخراج الناس من الظلم إلى العدل والرحمة.

وهكذا تحقق الناس من صدق الرسالة ونبل مقاصدها من نمط السلوك العملي الظاهر للعيان عند المتوسمين بمبادئها، وسماحتهم وعدلهم وأمانتهم ووفائهم وشفافية تعاملهم مع الناس جميعا على اختلفا مذاهبهم وعقائدهم.

---

[469]- الطبري، تفسير الطبري، ج5، ص 267.

[470]– علي بن ابي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، مرجع سابق،ج4، ص 129. وذكره الشوكاني في نيل الأوطار، دار الجيل، بيروت،1973م، ج9، ص 182.

[471]– لتوضيح المزيد حول هذه النقطة، راجع: محي الدين عبد الحليم، القدوة الحسنة وفاعليتها في الإقناع بالثوابت الإسلامية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الثامن عشر، ربيع الثاني 1418هـ/ أغسطس 1997م، ص 117.

يقول المؤرخ المعروف غوستاف لوبون:

" إن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين ما لم يروا من ساداتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السماحة التي لم يعرفوها من قبل"[472].

وإلى أن يتجاوز العالم الإسلامي حالة التنافر البغيض والتضاد المنكر بين المثل العليا السامية التي يؤمن بها باعتبارها مسلمات عقدية لا يسع المسلم غير الإيمان بها، وبين الواقع المضاد حدّ المنافاة لتلك المثل السامية، فإن عملية إزالة الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، لا سبيل للخلاص منها إلا بالتغيير السلوكي الإيجابي الفعّال من قبل المسلمين أولا، ومحاورة الشعوب بلسان الحال لا المقال.

بيد أن هذا الدور لا يمكن للمجتمعات المسلمة أن تلعبه إلا من خلال العودة إلى هويتها الحضارية الاسلامية والاعتزاز بها وبدورها في تقديم الإسلام. على أن يكون نمط الحياة المعيشية التي يحيونها، أنموذجا يتحاورون من خلاله مع الآخر سواء أكان ذلك في البلدان المسلمة أو في المجتمعات الأوروبية ذاتها، من خلال ممارسة ألوان العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية مع الآخر هناك.

لقد تمكن المسلمون الأوائل الدخول إلى قلوب أهالي البلدان التي فتحوها قبل دخولهم إلى أراضيها، من خلال أخلاقياتهم وسلوكياتهم التي عكست طبيعة المبادئ التي نقلوها عن نبيهم الكريم وحسن سيرته في التعامل والتحاور.

---

[472]- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربية، القاهرة، ط3، 1956م، ص 128.

يقول السير توماس أرنولد: استقبل المقيمون النصارى في وادي الأردن جيوش المسلمين وقائدهم أبو عبيدة، بالترحاب وفضّلوا العيش معهم على العيش تحت لوزاء البيزنطيين وإن كانوا على نفس ديانتهم. وأرسلوا خطاب لأبي عبيدة، جاء فيه:

"We prefer you to the Byzantines, though they are of our faith, because you keep better faith with us and are more merciful to us and refain from doing injustice and your rule over us is better than theirs'[473].

ولعلّ أوضح دليل على فعالية هذه الوسيلة الشواهد التاريخية التي تؤكد دور التجار المسلمين في نشر الإسلام في دول جنوب شرق آسيا وأفريقيا أثناء رحلاتهم التجارية. فقد شقّ الاسلام طريقه عبر التجار المسلمين الذين حاوروا أهل البلاد بسلوكياتهم قبل أقوالهم.

يقول الرحالة جوزيف تومسون في تقرير له نشرته مجلة التايمز:

" إذا بلغنا غربي أفريقيا والسودان الأوسط نجد الإسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط وتتحرك فيه عوامل الحماسة والإقدام كما كان في أيامه الأولى فترى الناس تدخل فيه أفواجا أفواجا وتقبل عليه بإقبال عجيب شبه أيامه السالفة ترى فيه أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون وآخذة في إنارة بصائر القبائل المنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر.

وقد كانت أعظم فتوحات الإسلام في أواسط السودان وغربه كانت على يد جماعة سليمي الطوية منخفضي الجناح وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجرا ذا همة وإقدام..وكان يجهد نفسه لنشر لواء ديانته..ونتج عن ذلك أن أشرقت شمس الإسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها"[474].

تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في ذلك:

---

[473] - Arnold,ibid,p.55.

[474]- نقلا عن أنور الجندي، الإسلام يزحف بقوته الذاتية في أفريقيا، مجلة حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة العاشرة، جمادى الآخرة 1389هـ/ أيلول 1969م.

" لقد سحر العربي الشعوب في البلدان المفتوحة بأصالته وملاحة وجهه ولطف حديثه. فشرفه وكرامته المتوارثة أجبراهم على اتخاذه مثلا أعلى يحتذونه بل ويتشوقون إلى مثل مكانته الاجتماعية بمعنى أن يصبحوا عربا مثله. واستطاع العربي أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته لا بالتبشير وإيفاد البعثات وإنما بخلقه الكريم وسلوكه الحميد فكسب بذلك لدينه عددا وفيرا لم تكن أية دعاوة مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله"[475].

والناس في مختلف الثقافات وخاصة الأطفال لا يعملون ما يقوله الراشدون وإنما يعملون ما يشاهدونه من سلوكهم وما يتمثل من نماذج واقعية. فالاقتداء يعد من أهم الأساليب التي تتم من خلالها تنشئة الأفراد. وهو الأمر الذي أرست دعائمه مواقف النبي عليه الصلاة والسلام في المجتمع[476]. ويؤكد علماء الاتصال في العصر الحديث أن الاتصال العملي غير اللفظي عامل هام في إيصال الرسالة. فالمستقبل يميل إلى تصديق الرسالة العملية غير اللفظية[477].

ولئن كانت الفترات الماضية لم تؤكد بالقدر الكافي ضرورة هذه الخطوة وأهميتها، فإن المرحلة الراهنة أكبر شاهد على حتمية هذا الحل وضرورة الانصياع له. وهذه الخطوة ليست نظرية البتة وإنما هي ضرورة حيوية لا يمكن أن يتصور بدونها تقدما حقيقيا في مجال الحوار العملي مع الآخر.

ومن تلك الأزمات ما أشار إليها الرئيس رتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية، حين قال:

"إن أغنى دولة في العالم لا يمكن أن يقبل أن يكون استهلاكها للمخدرات مساوياً تقريباً لاستهلاك دول العالم مجتمعة بالرغم من أن عدد سكانها لا يتجاوز جزء من عشرين من سكان العالم إن أغنى دول العالم لا يمكن أن يكون لها أعلى معدل لارتكاب الجريمة في

---

[475]- زيغريد هونكه، مرجع سابق، ص 366-367.

[476]- شعبان جاب الله، التنشئة الاجتماعية، زين العابدين وآخرون(محرر). علم النفس الاجتماعي أسسه وتطبيقاته، مطابع زمزم، 1993م، ص 67-88.

[477] - Lin. Nan. The Study of Human Communication, (New York: 1973), pp. 37-39.

العالم وأن يموت في أمريكا قتلاً أثناء حرب الخليج عشرون ضعف الأميركيين الذي قضوا في هذه الحرب.....إن أغنى دولة في العالم لا يمكن أن يقبل أن يكون فيها طبقة من الأشرار التي تجعل مدننا الكبر غير آمنة إلى درجة أن الحياة فيها صارت لا تطاق"[478]. ثم يتابع الرئيس بقوله: " إن أخطر مشاكلنا الاجتماعية الجريمة والمخدرات والاعتماد على الغير في التعليم. تدور حول قيم المواقف والسلوك. إن هذه الأمور لا تتوقف على الدولارات والبرامج الموضوعة لمعالجتها والتي تحسب بالدولارات غالباً مما تؤدي إلى نتيجة. الحاجة تدعو ليس إلى الدولارات بقدر ما تدعو إلى توجيه مجموعة من القيم والقواعد التي يقبلها المجتمع ويفرضها على نفسه"[479].

وقد قدمت الدراسة في الفصل السابق نموذجين لهذه القضايا، وهناك العديد من القضايا المشتركة الأخرى التي يمكن للمسلمين المشاركة فيها ودراستها والتعاون في معالجته.

[478]- ريتشارد نيكسون، الفرصة السانحة، ترجمة: أحمد صدقي مراد، دار الهلال، 1992م، ص 34-35.
[479]- ريتشارد نيكسون المرجع السابق، ص 35.

المبحث الثاني: وسائل معاصرة

ثمة وسائل معاصرة يمكن الإفادة منها في عرض تعاليم النبي الكريم على العالم وتقديم سيرته من خلالها ودورها في حلّ أزمات العالم المعاصر اليوم من خلال تبني منهجه في التغيير. ومن أبرز تلك الوسائل:

أولا: سفارات الدول الإسلامية في العالم

يعد الدور الذي يمكن أن تقوم به السفارات من أهم وسائل التعارف والتحاور في بلدان العالم المختلفة الأديان والملل، من خلال تبني رسالة التعريف بالنبي الكريم وطبيعة الإنجازات التي حققها للعالم، وما يمكن أن تقدمه سيرته اليوم للعالم في أزماته المتعددة.

وهي مهمة تحتاج إلى مزيد من الصبر على دراسة وتفهم تعاليم الإسلام وثقافته من جهة، وتعاليم وثقافة الشعوب الأخرى المضيفة.

وهي وسيلة تمتد جذورها في عمق السيرة النبوية حين أرسل النبي صلى الله عليه وسلم سفرائه إلى مختلف الملوك والأمراء. ولعل أبرز سفرائه وأشهرهم عمرو بن العاص الذي ارسله النبي صلى الله عليه وسلم سنة ثمان للهجرة إلى جيفر وعبد ابني الجلندي في عُمَان وهما من الأزد. والملك منهما جيفر فدعاهما إلى الأسلام فأسلم الملك وأسلم أخوه عبد وأسلم معهما كثير من العرب أهل عُمان.

ولقد راعى النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون سفرائه أصحاب امتيازات عالية من العلم واللياقة والمظهر والمخبر الحسن في سبيل نقل أروع صورة عن الإسلام ومبادئه لدى الدول المرسلين إليها.

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام راعى في كل دولة أرسل إليها سفيره، الفروق الموجودة بين ثقافات الدول واهتماماتها. فراعى في سفرائه رواء المظهر خاصة عندما أرسلهم إلى كسرى الفرس وقيصر الروم ومقوقس مصر مراعاة لميل ملوك تلك الدول بالاهتمام بالمظهر ومدى تأثرهم

بذلك. فكان يتخير صلى الله عليه وسلم من يرسله ليكون أقرب إلى النفوس وأقدر على التأثير فيهم وأحرى أن يستقبل بالحفاوة والقبول منهم[480].

وهذه قضية يمكننا الإفادة منها في تطوير الحوار مع الأمم والشعوب. فلا تكاد تخلو دولة في العالم من **سفارات دول اسلامية يمكنها أن تكون قنوات ثقافية وجسور حضارية بين الشعوب المختلفة على أن تتبنى ذلك كواحد من مشاريعها الاستراتيجية.**

ثانيا: تفعيل دور المؤسسات التعليمية والتربوية في عرض سيرة النبي الكريم

تعد المؤسسة التعليمية سواء كانت مدرسة أو جامعة، مصنعاً لشخصيات الأفراد سواء كانوا معلمين أم طلبة. ففي المدارس والمعاهد توضع البذور الأساسية لطريقة التفكير من حيث السطحية والعمق وكذا من حيث المنطقية والعملية، أو الذاتية والموضوعية. ومن خلال المدرسة يتم اكتساب المعارف والمعلومات وتكوين الاتجاهات نحو كثير من قضايا الحياة[481].

كما أن الجامعة هي المكان الذي يتاح فيه للعلماء والباحثين والمتعلمين تداول العلم والمعرفة وإجراء البحوث والدراسات.

وتنشأ المؤسسات التعليمية بهدف تزويد الناشئة بالمهارات العلمية والأساليب المنهجية عن طريق تدريب عقولهم على الملاحظة والتجريب اللازمين للوصول إلى الاستخدام الأمثل للقدرات العقلية التي زود الله سبحانه وتعالى الإنسان بها.

من هنا جاء تصدر الجامعات منذ القدم دور الريادة في تطور الإصلاح الاجتماعي. والمتتبع لتاريخ الجامعات في أوروبا على سبيل المثال، يلحظ أن التحولات وحركات الإصلاح الديني والفكري والاجتماعي انطلقت في الأساس من الجامعات بواسطة الأساتذة في شتى فروع المعرفة والعلم[482].

---

[480]- انظر في ذلك: محمود شيت خطاب، عمرو بن العاص القائد المسلم، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ربيع الأول 1417هـ، ج2، ص 101 وما بعدها.

[481]- عبد الرحمن الطريري، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1992م، ص 62.

[482]- جمال محمد حسن الزنكي، كيفية تحقيق الهوية الإسلامية الملتزمة للطالب الجامعي، ندوة استراتيجية الثقافة والتنمية ودو ركليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في دول مجلس التعاون الخليجي، كلية الآداب، جامعة الكويت، 27-29 مارس، 2000م.

والمجتمع المدرسي يعتبر جزءا من المجتمع الكبير باعتبار أن المدرسة مؤسسة اجتماعية تربوية موجهة بسياسة الدولة ولها دورها الهام في إعداد الأجيال من خلال المحتوى وما يتضمنه من أيدلوجية تقدم للتلاميذ، التي تحدد بدورها نوعية الأفكار والمفاهيم التي يكتسبها التلاميذ. ومن ثم فهي ذات تأثير هام على اتجاهاتهم ومعلوماتهم وطريقة تفكيرهم وتكوين مستقبلهم[483].

وقد يكون هناك ضعف أصاب الدور التربوي الذي تلعبه المدرسة بشكل عام في تنمية ثقافة الفرد، وهو أمر لا ينبغي عزوه إلعامل واحد بل هو مرتبط بأسباب عدة، إلا أنه من المؤكد أن التخطيط السليم العلمي الجاد لتغيير هذا الوضع وتحسينه سيؤدي إلى نتائج إيجابية بإذن الله[484].
فمرحلة التعليم الأساسي – كما يؤكد علماء النفس- من أنسب مراحل التطبيع الاجتماعي. حيث يبدأ النمو العقلي بالازدياد كما يزداد الطالب اهتماما بالبحث عن الحقائق والقدرة على نمو المفاهيم، ويتعلم المعايير والقيّم ويزداد لديه حب الاستطلاع والنقد الموجه لذاته وغيره وقد يتحدى هذه أفكار الآخرين ممن هم أكبر منه في المرحلة العمرية. وهو أمر يمكن الإفادة منه وتوظيفه في عملية تعزيز وغرس القيم النبوية الرائعة.

ومما تجدر إليه الإشارة في هذا السياق، ضرورة تغيير ثقافة التلقين في أسلوب التعامل والتعليم المدرسي إلى أسلوب يحقق فيه الطالب ذاته. فلا يكون التركيز على استظهار المعلومات من كتب السيرة النبوية والأحاديث- كما هو واقع في كثير من المدارس- دون الاهتمام بتمثل هذه القيم عمليا وسلوكيا وربطها بالواقع المعاش والحياة اليومية.

ومن ذلك ثقافة تقبل الآخر والاعتراف بالاختلاف بين البشر، لا يمكن أن تتم من خلال تقلين الطلبة هذه المعلومات واستظهارها. بل لابد من تبني هذه الأخلاقيات وتدريب الطلبة على ممارستها، وتوظيف السيرة النبوية وأخلاقيات النبي الكريم في تعزيز هذه المظاهر الإيجابية.

---

[483] - Spring. Joel. Education, The Worker Citizen, the Social Economic and Political Foundation of Education, New York, London, Long man, 1980, pp. 195-198.

[484]- بتصرف عن: محمود محمد سفر، دراسة في البناء الحضاري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ص 66.

فقد يحفظ الطالب عشرات النصوص والأحاديث والوقائع الدالة على ذلك، دون الاهتمام بعملية تطبيقها فعليا في التخاطب معه. فيصبح الأمرمدعاة لتأسيس الانفصام الذي يعيشه الفرد بين قراءة السيرة والإعجاب الشديد بشخص النبي عليه الصلاة والسلام دون تمثل أخلاقياته وتحويلها إلى واقع سلوكي وممارسة فعلية، لتنشأ أجيال لا تفقه من سيرة النبي الكريم إلا الحفظ والتلقين!.

والمؤسسات التعليمية ومناهجها وأدواتها ومناخها ينبغي أن تتضافر لمعالجة ظاهرة التلقين، وتبني حرية التفكير وإبداء الرأي ورعاية القدرات العقلية عند النشء وتوفير فرص النمو الفكري لهم.

والمتأمل في سيرة النبي الكريم، يلحظ تبنيه لهذا النهج التربوي الفذ في خطاب المتعلمين والناشئة. ففي الحديث إنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ".[485]

ففي هذه الواقعة **لم يعالج النبي عليه الصلاة والسلام الإشكالية من خلال تقديم موعظة مباشرة أو سلوك سبيل الزجر والنهي، أو تلقينه حكم الزنا، بل لجأ إلى إيصال الفتى للحلّ بنفسه بأسلوب اتسم بالتدرج والحوار الهادف إلى التغيير الإيجابي بالإقناع.**

485- رواه أحمد في مسنده، رقم 21185.

وهذا أسلوب تربوي ينبغي الوقوف عنده، وتبنيه عمليا، عوضا عن التركيز على تلقين نص الحادثة للطلبة دون تحويلها إلى سلوكيات في واقع التعامل معهم.

فالمعلم والمربي ينبغي أن يكون بمثابة النموذج الأعلى في المؤسسة التعليمية. فلا يقتصر دوره على إلقاء المعلومات وتلقين الأفكار والمفاهيم والمعتقدات.[486]

ثالثا: المناهج الدراسية

تقوم المقررات الدراسية بدور بالغ الأهمية في تنمية وتنشئة الأفراد إذا ما تضمنت أهدافا بعينها وقيّما بذاتها تعكس وتؤكد أهمية ترسيخ القيم القرآنية والنبوية الحاكمة. الأمر الذي يتطلب مناهج تؤسس لهذا الفكر وتعززه باعتباره نسقا قيميا، من خلال تضمن المقررات الدراسية قيّما بعينها كقيّمة الوسطية والاعتدال والاتزان، وتقبل الرأي الآخر والتسامح والإتقان والاهتمام بالبيئة ..الخ ذلك من قيّم حضارية هامة تبناها النبي الكريم وأكد عليها في سيرته.

فالمناهج الدراسية بما تحويه من معارف ومعلومات وأمثلة وتمارين ونصوص أدبية، تمثل حجرا أساسيا في الكيفية التي ينمو بها عقل المتعلم.

ويمكن الإفادة من ذلك تطبيقيا من خلال طرح موضوعات مختلفة وأزمات يعاني منها العالم المعاصر –وبما يتلاءم مع الفئة العمرية للطالب– ومنح الطلبة الفرصة للتفكير واستنباط كيفية تجاوزها من خلال التعاليم النبوية الواردة في السيرة على سبيل المثال.

كما يمكن للمقررات الدراسية —خاصة المتعلقة بالأحاديث النبوية والسيرة–أن يتسع مداها الإيجابي من خلال أسلوب المعلم أثناء طرحه وتناوله للمسائل المختلفة بأسلوب يدع للمتعلم حرية الفهم والإدراك والوعي، ومن ثمّ ترشيد عملية التوصل الفكري السليم إلى الصواب ومناقشة ذلك كله بحرية واحترام لرأي المتعلم واستقلاليته.

[486]– لمزيد من التفاصيل حول ذلك: أنظر: ماجد عرسان الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية في تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، الطبعة الثانية، 1997/1417م، ص 182.

ولعل من نافلة القول الإشارة إلى ضرورة تطوير طرق التدريس والوسائل والتقنيات التعليمية، وعدم التركيز على التدريس التقليدي الذي أظهر عدم فاعليته في ظل التقدم العلمي الذي نعيشه. وضرورة تغيير الأساليب القائمة على الحفظ والاستظهار في معظم المقررات إلى أساليب تقوم على حلّ القضايا بشكل يتم فيه تدريب التلاميذ على إعمال الذهن والاختيار بين البدائل وإعطاء الفرصة للنشء لتحديد وجهات نظرهم وإبدائها وفق منهج علمي مدروس.

كما **تلعب الأنشطة المدرسية دورا هاما في تعزيز ثقافة الطالب بأهمية السيرة النبوية وما حوته من حلول لأزمات الحياة المختلفة وقدرتها على ذلك في مختلف العصور**.

من هنا تأتي أهمية تعزيز الأنشطة المدرسية لتحقق دورا إيجابيا في ترجمة القيم والمفاهيم التي يحث عليها المعلم والمنهج الدراسي، وتنمية قدرة الطالب على التفكير العلمي والعمل الجماعي والتفاعل الفعلي بين التلاميذ ليتم اكتساب معنى الجماعية والتواد والتعايش وحرية الرأي واحترام رأي الآخرين والنقد الإيجابي ...وهذه كلها من أهم القيم الايجابية التي وطدتها التعاليم النبوية عمليا في العديد من الأحاديث.

فكان النبي الكريم عليه الصلاة والسلام يعمل مع أصحابه في مختلف المواقف، لتفعيل أهمية العمل الجماعي.

ولابد من التركيز على أهمية طريقة عرض المنهج، فالتعليم لا يتم عن طريق التعسف وفرض الآراء على المتعلمين. بل إن أمثل طريقة لإيصال المعلومة هي عن طريق المحاورة وإشعار المتعلم بالحرية في التعبير عما في نفسه.

يقول ابن خلدون في ذلك:" إرهاق الجسد في التعليم مضر بالمتعلم ولا سيما في أصاغر الولد ولأنه من سوء الملكة ومن كان مرباه العنف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها ودعاه إلى الكسل وحمله علىالكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه"[487].

---

[487]- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار القم، بيروت، الطبعة الخامسة، 1984م، ص 243. وانظر كذلك: سلمان خلف الله، الحوار وبناء شخصية الطفل، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998م، ص 110.

إن عملية احتكاك المتعلم بمعلميه وزملائه ووجوده في مناخ يعطيه حرية التعبير والحركة والتجريب ..كلها أمور ذات أهمية بالغة في البناء العقلي والنمو السليم للأفراد ليتم البناء سليما وفق منهج علمي أكدته السيرة النبوية، الأمر الذي يضمن البعد عن الانحرافات الفكرية وتداعياتها[488].

من هنا فإن **للمؤسسة التعليمية دورها المحوري في تأكيد قيم السنة النبوية والأخلاقيات والشمائل النبوية التي جاءت مكرسة لنظام تربوي تعلمي شامل ومتكامل، يصلح للتطبيق في أي زمان وبيئة إذا ما أُحسن فهمه وتطبيقه.**

رابعا: إنشاء مشروع الموسوعة النبوية باللغات الأجنبية

وهو مشروع يستقطب المفكرين والعلماء الغربيين –بشكل خاص– والباحثين أصحاب الإطلاع والخبرة الدقيقة في مختلف التخصصات، إلى جانب المهتمين بدراسة السيرة النبوية، للتوصل إلى استنباط الحلول والمعالجات التي تضمنتها السيرة النبوية بشكل خاص في تجاوز الإشكاليات الكبرى التي يعاني منها العالم اليوم. ومن ثمّ صياغة خطوات عملية وإجراءات لتقديم منهجية النبي الكريم في معالجة الانحرافات المختلفة، كتلك التي وقفت عليها الدراسة في الفصل السابق وغيرها كثير.

وقد أكد بعض الكتّاب الغربيين، أهمية الدراسة والبحث والنظر في سيرة النبي الكريم للوقوف على كيفية معالجته لأزمات عصره وقدرته على تجاوزها في وقت قياسي وإحداث نقلة نوعيه في أمته، والإفادة من منهجه النبوي في الإصلاح والتغيير والاستراتيجية والتخطيط في عالمنا المعاصر,

تقول الكاتبة كارن آرمسترونج في كتابها الذي أسمته (محمد نبي لعصرنا):

" As a paradigmatic personality, Muhammad has important lessons, not only for Muslims, but also for Western people….Muhammad literally sweated with the effort to

---

[488]- أنظر في ذلك: عبد الرحمن الطريري، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الامة، وزارة الأوقاف والشؤون الأسلامية، قطر، 1992م، ص 63.

bring peace to war-torn Arabia, and we need people who are prepared to do this today'.[489]

وثمة أسماء لامعة وأقلام منصفة بين العديد من كتّاب الغرب، يمكن الإفادة منهم في هذا المجال. الأمر الذي يؤكد ضرورة استثمار الرؤى الفكرية التي طرحها الساسة والمفكرون والصحفييون الغربيون المنصفون في التاريخ المعاصر، التي تدحض الادعاءات الباطلة ضد الإسلام والمسلمين، الإفادة من كل صوت ورأي منصف لتحويل المدّ الإعلامي المشوه وإبراز النموذج المتفرد الذي قدّمه النبي الكريم للعالم.

وقد **كرر الأمير تشارلز في أكثر من موقف تأكيده أن اتباع تعاليم الإسلام كفيلة بإشاعة مفاهيم السلام والإحوة الإنسانية. كما أكد الأمير البريطاني أن مشكلة صدام الحضارت ستحل بإتباع تعاليم القرآن.**

"The world problems could be resolve by following Islamic teachings, as Islam is a religion of peace and brotherhood"[490] .

ويصف Alphonse de La Martaine الإنجازات التي قدمها النبي عليه الصلاة والسلام بقوله:

" اذا كانت معايير عبقرية الإنسان هي عظمة المقصد والهدف، بساطة الوسائل، والنتائج المدهشة، **فمن يجرؤ أن يقارن أي رجل عظيم في التاريخ بمحمد؟ أشهر الرجال صنعوا الأسلحة والقوانين والامبراطوريات فقط، لا أكثر والتي غالبا ما انهارت أمام أعينهم. هذا الرجل لم يحرك الجيوش والتشريعات الإمبراطوريات والشعوب والأسر الحاكمة فحسب، بل ملايين الرجال في ثلث سكان العالم آنذاك، وأكثر من ذلك حرّك المذابح والآلهة والأديان والأفكار والمعتقدات والأرواح. المشرع فاتح الأفكار، مرّشد التفكير العقلي..بكل معايير العظمة ..هل هناك رجل أعظم منه"[491]!!.**

[489] - Armstrong.ibid, Muhammad, p.19.
[490] - http://www.kuna.net.kw/Home/Story.aspx?Language=en&DSNO=917294
[491] - Alphonse de La Martaine, Historie de la Turquie, Paris, 1854. Vol. II, pp. 276- 277

إن مشروع إنشاء موسوعة السيرة النبوية التي يمكن أن يستكتب لبحوثها، من أمثال هؤلاء الكتّاب الغربيين المنصفين، يعد ضرورة حتمية وحاجة عالمية.

خامسا: المؤسسات الإعلامية

تقوم وسائل الاعلام بدور فعّال في التنشئة والتربية الاجتماعية. حيث تسهم في إكساب الأفراد، معلومات ومعارف وحقائق وأخبار ووقائع وإعلانات ...حول موضوعات معينة كما تساعد على تكوين اتجاهات وقيم الأفراد بما يؤدي إلى تكوين رأي عام حول هذه الموضوعات.
وهي من أهم وأخطر القنوات التي تسهم مساهمة فعالة في تشكيل العقل وطبيعة توجهه نحو قضية معينة فيمكن من خلال الصحافة والإذاعة والتلفزيون والقنوات الفضائية والانترنت....التأثير على عقلية الفرد وطريقة تفكيره.
وقد أدركت بعض المجتمعات أهمية الأعلام فقامت بتوظيفه بشكل سليم لخدمة أهدافها ومصالحها على المدى القريب والبعيد، وتقديم قضاياها من خلال العرض المطروح بمختلف الأساليب.
ومن المعروف أهمية الرأي العام Public Opinion وموقعه في دول العالم. فقد حظي هذا الجانب باهتمام المتخصصين في العديد من المجالات كعلم النفس والاجتماع والسياسة والإعلام.
ويرجع تزايد الاهتمام بالرأي العام في دول العالم أجمع لما يمثله من أهمية في العديد من المجالات. فالرأي العام يشكل العنصر الأساسي لنجاح أي فكرة تدعو إليها الهيئات أو المؤسسات[492]. ولا يخفى دوره المحوري في التعرف على درجة شيوع بعض الأراء والتصورات الصحيحة أو الخاطئة التي توجه سلوك الأفراد والجماعات واستجاباتهم للمواقف والقضايا المختلفة.

وقد أجمعت البحوث والدراسات التي حاولت الكشف عن أثر وسائل الأعلام المسموعة والمرئية والمقروءة في عملية التنشئة الاجتماعية، على الدور الهام الذي تقوم به هذه الوسائل بوجه عام في تكوين وتغيير الآراء والاتجاهات والسلوك لأفراد المجتمع[493].

---

[492]- محمد عبد القادر حاتم، الرأي العام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972م، ص 24. وأنظر كذلك: إسماعيل علي سعد، الراي العام بين القوة والأيدلوجية، دار النهضة العربية، بيروت، 1988م، ص 150. ألفريد سوفي، الرأي العام، منشورات عويدات، بيروت، 1966م.

[493]– شاهيناز طلعت، وسائل الأعلام والتنمية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980م، ص 85.

ولم يعد لأي مجتمع يريد الرقي والنمو تجاهل الدور الذي تلبعه وسائل الاعلام خاصة في عصر المعلوماتية فهي أداة فعالة في السلوك الاجتماعي والثقافي.

ووسائل الاعلام – إذا ما أُحسن استخدامها– يمكن أن تسهم في نشر الوعي بشخصية النبي الكريم وتقديم إنجازاته الحضارية أمام العا لم اليوم.

ولا يقل الدور الذي لعبه الإعلام في مختلف القضايا عن دوره في عرض صورة بعيدة كل البعد عن شخصية النبي الكريم وأخلاقياته وسلوكياته وتقديمها للمجتمعات الغربية بصورة نمطية قلّ وجود مثيل لها.

وتؤكد روبين رايت - المراسلة الدبلوماسية لصحيفة الواشنطن بوست– الموسوم بالغضب المقدس، هذه الحقيقة المؤلمة. كما تبين الكاتبة في العديد من دراساتها أن الإسلام من أكثر الأديان تسامحا على الرغم من كل ما تنقله وسائل الإعلام من صورة مشوهة عن تعاليمه وعن شخص نبيه الكريم[494].

من هنا فإنه يمكن للإعلام في البلاد الاسلامية المختلفة إحداث الأثر المنشود من خلال توجيه الحوار – عبر الوسائل المسموعة والمرئية– لبناء ثقافة شعبية تقوم على احترام مقدسات الآخرين وتقدير جهودهم ومخاطبة الشعوب بلغاتها ولهجاتها المختلفة لإيصال التعريف بشخصية النبي الكريم مع التأكيد على أهمية التحرر من سلطان التعصب والعداء المسبق وإصدار الأحكام دون التحري والتدقيق وهي وسائل علمية موضوعية، لا يمكن للعقل الحرّ إنكارها أو الجدال فيها.

[494] - Robin Wright, Sacred Rage : The Wrath of Militant Islam, 2001. "Islam and Liberal Democracy: Two Visions Of Reformation," Journal of Democracy 7.2 (1996) 64-75

الخاتمة والنتائج

استهدفت هذه الدراسة بناء منهج معرفي لتقديم شخصية النبي عليه الصلاة والسلام للعالم اليوم، وذلك من خلال الإنجازات التي قدّمتها رسالته وسيرته للبشرية، وما يمكن أن تقدمه في خضم التحديات الراهنة التي باتت تواجه الإنسانية اليوم.

ولئن غاب عن العديد من الدراسات المعاصرة –التي تناولت الحديث عن النبي الكريم وسيرته– تبني المنهج العلمي الموضوعي في عرض الإنجازات العالمية التي قدمتها الرسالة النبوية للإنسانية، فقد حرصت هذه الدراسة على البحث في موضوع سيرة النبي الكريم من هذه الزاوية الحرجة. وقد أوضحت الدراسة حجم النقلة الحضارية والمعرفية التي قام بها النبي الكريم في الانتقال بالعالم من حالة الجمود والجهل والجمود إلى حالة من التوقد المعرفي والتألق الحضاري في فترة زمنية لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

كما قامت الدراسة بتقديم إنجازاته في أصعب الحلقات الإنسانية وأكثرها تعقيدا وهي: المرأة، الرقيق، التعامل مع المخالفين، بناء الحضارة. كما قدمت الدراسة منهجا تطبيقيا لكيفية استنباط القيم العالمية الحضارية من نهج السنة والسيرة النبوية في تقديم الحلول للأزمات العالمية المختلفة التي بات العالم يعاني من ويلاتها وآثارها. وقامت الدراسة بتقديم أنموذجين لهذا المنهج التطبيقي وهما: إشكاليات مؤسسة الأسرة، والتعصب والتطرف العالمي. ويمكن تلخيص أهم نتائج هذه الدراسة في النقاط التالية:

- ضرورة إعادة النظر في كيفية عرض السيرة النبوية فهي ليست مجموعة متفرقة من المواقف التعليمية والإرشادات الدينية المتفرقة، بل هي برنامج عمل استراتيجي يتميز بالشمولية والترابط والتكامل لإحداث التغيير والإصلاح في مختلف جوانب الحياة الإنسانية.

- حوت السيرة النبوية منهجية متكاملة لمعالجة قضايا الحياة الإنسانية المختلفة في كل زمان ومكان، وقد تحقق ذلك بالفعل تاريخيا وتمثل في معالجة أخطر حلقات القضايا الإنسانية: إصلاح أوضاع المرأة، العبيد، التعامل مع المخالفين، النقلة الحضارية.

– أهمية توجه أنظار المسلمين إلى السلوك العملي وترجمة معاني الاهتمام والمحبة بشخصية النبي الكريم إلى واقع معاش من خلال سلوكيات عادلة وممارسات حضارية رائدة واهتمام بأزمات العالم ومعالجتها. فهذا هو مفهوم الالتزام الحقيقي والاتباع العملي للسنة النبوية.

– ضرورة تنمية المجتمعات العربية الإسلامية، والأخذ بأسباب القوة بالتقدم المعرفي والعلمي والتقني، وتطوير المنظومة التربوية والتعليمية في إطارها الإيماني.

– أهمية الدراسة والبحث والتخطيط المحكم لتنشيط حركة الدبلوماسية الاجتماعية والشعبية والمنظمات المجتمعية على المستويات الإقليمية والدولية، وتوثيق الروابط والخبرات بين الشخصيات والمنظمات الثقافية والجامعية في الغرب والشرق، للتعاون في وضع حلول للأزمات العالمية المشتركة.

- ضرورة القيام بدور فعال في المساهمة في تقديم أفكار جيدة تساعد على تقليص مشاكل البشرية، خصوصا فيما يتعلق بقضية الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على نحو عادل وفعال.

- ضرورة وضع منهجية ملائمة للخطاب الإسلامي الموجَّه للشعوب الغربية، والتركيز بهذه الجهود في العالم الغربي الذي احتدَّت فيه نغمة التخوف من الإسلام وأهله.

- ضرورة استثمار الرؤى الفكرية التي طرحها الساسة والمفكرون الغربيون المنصفون في التاريخ المعاصر التي تدحض الادعاءات الباطلة ضد الإسلام والمسلمين. في الوقت الذي ينبغي فيه الإفادة من كل صوت ورأي منصف لتحويل المدّ الإعلامي المشوه وإبراز النموذج المتفرد الذي قدمه الإسلام للعالم.

– ضرورة تنمية ثقافة الحوار داخليا وخارجيا، مع الاهتمام بتبني الموضوعات والإشكاليات التي تهم المجتمع الدولي، والحرص على إسهام العلماء والمفكرين المسلمين من مختلف التخصصات، في تقديم معالجاتهم وطرح حلولهم لتجاوز هذه الأزمات.

- الحرص على خلق رأي دولي عام بأهمية ما يمكن أن تقدمه سيرة النبي الكريم للعالم اليوم من خلال تفعيل القيم الحضارية الكبرى الحاكمة التي حرص على تطبيقها وتنفيذها في سيرته، وترجمة ذلك من خلال خطوات عملية ومنهجية مدروسة.

- تحفيز علماء الأمة على العودة إلى السيرة ودراستها من كافة أبعادها والاهتمام بإبراز القيم الحضارية والعمران وأسس المنهجية النبوية في تكريسها في أجواء الجهل الخانقة التي عاصرت الرسالة. والبحث في كيفية الإفادة من ذلك في خضم التحديات الراهنة.
- ضرورة تفعيل الوسائل المعاصرة لعرض سيرة النبي الكريم للعالم وتتمثل في: تفعيل دور سفارات الدول الإسلامية في العالم، تفعيل دور المؤسسات التربوية، والمناهج الدراسية في عرض السيرة، إنشاء مشروع موسوعة السيرة النبوية باللغات الأجنبية القائمة على التحليل والاستنباط وقراءة الواقع المعاش، تفعسل دور المؤسسات الإعلامية.

– السعي لإنشاء مشروع الموسوعة النبوية واستكتاب كافة المختصين والمهتمين من العلماء خاصة علماء الغرب، للإسهام في إخراجها بمنهجية تختلف عن المنهجية المعتادة المتمثلة في الرواية والسرد دون التحليل والاستنباط ومحاولة اكتشاف الأسس المنهجية التي استطاع بها النبي عليه الصلاة والسلام تغيير الواقع وإحداث النقلة الحضارية الهائلة في عصره وما تلاه.

– ضرورة إعادة النظر في كيفية عرض السيرة النبوية في المناهج الدراسية، وعدم الاعتماد على الاستظهار والتلقين دون تفعيل مناهج التحليل والاستنباط وتعويد الطلبة والنشء على تفعيل دور السيرة في معالجة مشاكل المجتمع وأزماته.

المراجع باللغة العربية

- القرآن الكريم
- كتب الأحاديث
- الكتاب المقدس، الترجمة العربية الجديدة من اللغات الأصلية، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، 1993م.

- أرنولد، توماس. الدعوة إلى الإسلام، القاهرة، 1970م.
- أسد، محمد. الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فروخ، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، 1965م.
- أرنو ف. ويتبيج، نظريات ومشكلات في سيكولوجية التعلم، ترجمة: عادل عز الدين الأشول وآخرون، دار ماكجروهيل للنشر، 1984م
- الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد. أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه، تحقيق: صالح الونيات، دار المسلم، الرياض، 1998م
- ابن أبي اصيبعة : كتاب عيون الأنباء، تحقيق عامر النجار، 1996م.
- أفسكي، أليكسي. الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1996م
- الفا، زوني أيلي. موسوعة أعلام الفلسفة، مراجعة: جورج نخل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.
- الألمعي، زاهر عوض. مناهج الجدل في القرآن الكريم، بدون تاريخ
- امين، أحمد. فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، مصر، الطبعة الرابعة، 1989م.
- بدري، مالك. التفكر من المشاهدة إلى الشهود، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، 1413هـ/1993م.
- بروكلمان، كارل. تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس. بدون تاريخ
- ---------. تاريخ الادب العربي، دار المعارف، بيروت، الطبعة الثانية.
- بطاينة، محمد ضيف الله. الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، 1409هـ/1988م.

- البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1945م
- البهي، فؤاد.علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1981م.
- بياجيه، جان . اللغة والفكر عند الطفل ، ترجمة احمد عزت راجح ، ط1 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1954 م.
- تايلور، فيليب. قصف العقول الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، ترجمة: سامي خشبة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، أبريل 2000م
- توفيق، طويل، في تراثنا العربي الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة (87)، الكويت، مارس 1985م.
- التويجري، عبد العزيز بن عثمان. الحوار والتفاعل الحضاري من منظور اسلامي، المؤتمر الثامن، يوليو 1996م.
- ابن تيمية، الاستقامة. تحقيق: محمد رشاد سالم، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، 1403هـ.
- الثعالبي، عبد العزيز. مقالات في التاريخ القديم، تعليق وجمع: جلول الجريبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
- جارودي، روجيه. الإسلام في الغرب- قرطبة عاصمة العلوم والفكر-، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار دمشق للنشر والتوزيع، دمشق، 1995م
- جورباتشوف، ميخائيل. البيريسترويكا: تفكير جديد لبلادنا والعالم، ترجمة: حمدي عبدالجواد، دار الشروق، مصر، 1988م
- الجوزية، محمد بن أبي بكر ابن قيم. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، بدون تاريخ.
- ________________.احكام أهل الذمة. تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر العاروري، دار رمادي للنشر، الدمام، 1418هـ/1997م

- جوستاف جرونيبام، حضارة الإسلام، ترجمة: عبد العزيز جاويد، القاهرة، 1956م.
- جولديسهر، أجنتس. مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، مصر، ومكتبة المثنى، بغداد، 1955ـ1974م.
- حاتم، محمد عبد القادر. الرأي العام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1972م.
- حتي، فيليب. تاريخ العرب، بيروت، 1953م.
- ابن الحسن، محمد. السير الكبير، مطبعة مصر، 1957م.
- حسنة، عمر عبيد. حتى يتحقق الشهود الحضاري، المكتب الإسلامي، دمشق، 1991م.
- الحفني، عبدالمنعم. الموسوعة النفسية، مكتبة مدبولي، 1995م.
- حلاق، حسان. العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى المتقدة الأندلس، صقلية، الشام، الدار الجامعية، بيروت، 1986م.
- حميد الله، محمد. الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة، بيروت، 1990م.
- الخربوطلي، علي حسن. الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة، الكتاب التاسع والأربعون، 1969م.
- خريسات، حمد. المرأة والمشاركة السياسية في ظل الدولة الإسلامية.. دراسة تطبيقية منذ العصر الجاهلي حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، 1997م.
- الخطابي، محمد العربي. الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- خليفة، عبد اللطيف محمد. دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م.
- دافيدوف، ليندا، ل. مدخل علم النفس، ترجمة سيد الطواب وآخرون، القاهرة، 1983م.
- الدفاع، عبد الله. إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.
- الدمشقي، حمد بن أبي بكر بن ناصر الدين. الرد الوافر. تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الاسلامي، بيروت، 1393هـ.

- الذهبي، محمد بن أحمد. سير اعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، 1413هـ.
- ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر. الأعلاق النفيسة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.
- زهران، حامد عبد السلام. علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1974م.
- أبو زهرة، محمد . تاريخ الجدل، دار الفكرالعربي، بدون تاريخ.
- الزيادي، محمد فتح الله. انتشار الإسلام، دار قتيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1415هـ/1995م.
- الزين، حسن. الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلامية حتى الفتح العثماني، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988م.
- السايح، أحمد عبد الرحيم. في الغزو الفكري، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، قطر، رجب 1414هـ.
- ستانوود كب، المسلمون في تاريخ الحضارة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية/ 1405هـ/ 1985م.
- سعد، إسماعيل، علي. الرأي العام بين القوة والأيدلوجية، دار النهضة العربية، بيروت، 1988م.
- ابن سعد، محمد. الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- سعيد، حكيم محمد. أعلام ومفكرون : لمحات عن مشاهير العلماء والمفكرين في عصور الإسلام الذهبية، الأكاديمية الإسلامية للعلوم، عمان، الأردن، 2000م.
- سليمان، ميخائيل. صورة العرب في عقول الأمريكيين، ترجمة عطا عبد الوهبا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987م.
- سورديل، دومنيك وجانين. الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، دار الحقيقة، بيروت، 1980م.

- سوفي، ألفريد. الرأي العام، منشورات عويدات، بيروت، 1966م.
- سويف، مصطفى. التطرف كأسلوب للاستجابة، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968م.
- الشافعي، أحمد محمود. الميراث في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الثقافة الجامعية، مصر، 1983م.
- الشرقاوي، محمد عبد الله. بحوث في مقارنة الأديان، دار الفكر العربي، مصر، 2000م.
- الشعراوي، محمد متولي. الفتاوى، المكتبة العصرية، مصر، 2001م.
- الشوكاني، محمد بن علي. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.
- ضياء الحق، محمد. أحكام المعاهدات الدولية في الشريعةالاسلامية والقانون الدولي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الامارات العربية المتحدة، السنة الثانية عشرة، العدد السادس والأربعون، يوليو/ تموز 2004م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1405هـ.
- طلعت، شاهيناز. وسائل الأعلام والتنمية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980م.
- عاشور، سعيد. المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م.
- ابن عاشور، محمد الفاضل. روح الحضارة الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، 1401هـ/1981م.
- عبد الله، معتز. التعصب دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 1997م.
- ـــــــــــــ. أبعاد السلوك العدواني دراسة عاملية مقارنة، مجلة دراسات نفسية، المجلد الخامس، العدد الثالث، 1995م.
- عبد الحميد، سعد زغلول. في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1975م.
- عبد الحميد، عرفان. اليهودية عرض تاريخي، دار عمار، الأردن، 1997م.

- ـــــــــــــــــــ. النصرانية..نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، دار عمار، الأردن، 2000م.
- عبد الستار، ليلى. تنمية التفكير السليم لدى الشباب الجامعي لمواجهة التطرف، مجلة دراسات تربوية، المجلد السابع، الجزء 43، القاهرة، 1992م.
- عبد المختار، محمد خضر. الاغتراب والتطرف نحو العنف، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1999م.
- عبد الواحد، علي. موقف اليهودية والمسيحية والإسلام من العزوبة، (مجلة الأزهر، محرم 1379هـ/1959م
- عرجون، محمد الصادق. الموسوعة في سماحة الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الثانية، 1404هـ/ 1404م.
- عسيري، سعيد مريزن. الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب، مكة المكرمة، 1987م.
- علي، جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1976م.
- العلواني، رقية. أثر العرف في فهم النصوص ..قضايا المرأة أنموذجا، دار الفكر، دمشق، 2003م.
- عمارة، محمد. في فقه الحضارة الاسلامية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2003م.
- عمارة، محمد. الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة الأزهر، 1988م.
- العمري، أكرم ضياء. المجتمع المدني في عهد النبوة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1403هـ/1983م.
- الغدير، حيدر عبد الكريم. المسلمون والبديل الحضاري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ط3، 1413هـ/1992م
- الغزالي، محمد. قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، بيروت والقاهرة، 1990/1410م.
- فراج، عز الدين. فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، القاهرة، 1989م.

- فرايري، باولو. تعليم المقهورين، ترجمة: يوسف نور عوض، دار العلم، بيروت، 1980م.
- فرح، سهيل. الفلسفة العربية المعاصرة، مركز دراسات الوحدة العربية، 1988م.
- الفقي، حامد. أنماط الضبط الوالدي في المجتمع الكويتي، لويس كامل مليكة(محرر) قراءات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1994م.
- الفقيه، محمد جواد. نظرة في كتاب الله، دار الأضواء، بيروت، 1413هـ/1993م.
- قدورة، زاهية. الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972م.
- القضاة، أمين محمد. معاملة غير المسلمين في الإسلام، بحوث المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، الأردن.
- القرضاوي، يوسف. الإسلام وحضارة الغد، مجلة آفاق الإسلام، العدد الأول (السنة الثالثة)، 1995م.
- قرم، جروج. تعدد الأديان ونظام الحكم، بيروت، 1979م.
- قطان، محمد علي. دراسة المجتمع في البادية والريف والحضر، دار الجيل، القاهرة، 1979م.
- القسطنطيني، حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ.
- القنوجي، صديق بن حسن. أبجد العلوم، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.
- القيسي، مروان إبراهيم. المرأة المسلمة بين اجتهادات الفقهاء وممارسات المسلمين، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، المغرب، 1991/1411م.
- الكاساني، علاء الدين. بدائع الصنائع، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1982م.
- ابن كثير، بو الفداء إسماعيل. تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، 1401هـ.
- __________. البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، بدون

- الكلاعي الأندلسي، أبو الربيع سليمان بن موسى. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق: محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، 1997م.
- الكيلاني، ماجد عرسان. رسالة المسلم في المجتمع الأمريكي، مقالات في الدعوة والإعلام الاسلامي.
- لاندو، روم. الإسلام والعرب، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1977م، الطبعة الثانية.
- لحمداني، حميد. الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم (العصر الجاهلي)، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1997م.
- ماجد، عبد المنعم. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1972م.
- مانوني، بيار. علم النفس الجماعي، شركة انترسبيس للنشر، قبرص، بلا تاريخ
- ماهر عبد القادر وحسان حلاق، تاريخ العلوم عند العرب، مكتب كريدية أخوان، بيروت، 1991م.
- متز، آدم. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة د٠ محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة العام 1981م٠
- المخزنجي، السيد أحمد. العدل والتسامح الاسلامي، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، السنة السادسة، العدد 67، شوال 1407هـ/ يونيو1987م.
- مرحبا، محمد عبد الرحمن. الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، منشورات عويدات، 1988م، طبعة ثانية.
- ــــــــــــــــــ. أصالة الفكر العربي، منشورات عويدات، بيروت، 1982م.
- مصطفى، هالة. الإسلام والغرب من التعايش إلى التصادم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م.
- مليكة، لويس كامل وآخرون. البدو والبداوة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1986م.

- النديم، محمد بن إسحاق أبو الفرج. الفهرست، دار المعرفة، بيروت، 1978م.
- نعيم، سمير. المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، يناير 1990م.
- النفيسي، عبد الله فهد. على صهوة الكلمة، كويت، 1411 /1990م.
- النقيوسي، يوحنا. تاريخ مصر: رؤية قبطية للفتح الإسلامي، ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبدالجليل، دار عين، القاهرة،2001م.
- النيسابوري، أبوعبد الله محمد بن عبد الله الحاكم . المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفعبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م
- النيفر، أحميدة. المعيار والهوية والحوار قراءة في التجرية التاريخية للغرب الاسلامي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد الرابع عشر، دبي، الامارات العربية المتحدة، سبتمبر 1996م.
- نيكسون، ريتشارد. لفرصة السانحة، ترجمة/ أحمد صدقي مراد، دار الهلال، 1992م.
- هوفمان، مراد. الإسلام كبديل، مكتبة العبيكان، الرياضن الطبعة الثالثة، 1421هـ/ 2001م.
- ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1411هـ.
- هونكه، زيغريد. شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، الطبعة العاشرة، 2002م.
- ولفنسون، إسرائيل. تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، مطبعة الاعتماد، مصر، 1927م.
- اليعمري، إبراهيم بن علي. الديباج المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

المراجع باللغة الانكليزية

- Andrae, Tor. Mohammed: *the Man and His Faith*. (New York 1957)
- A.J. Toynbee. *CIVILIZATION ON TRIAL*(New York, 1948)
- Amira El Azhary Sonbol. *Women, the Family, and Divorce Laws in Islam in History* (New York, 1996)
- Arthur Cotterell, *From Aristotle to Zoroaster* (1998)

- B.Lewis. *Other People's History in Islam and the Wes*t (New York 1993)
- Bernard Lewis. *The Arabs in History* (USA 1950)
- **Bernard Lewis. Race and Slavery in the Middle East. Oxford Univ Press 1994.**
- Bernard Lewis, *The Jews of Islam* (New Jersey)
- Bertold Spuler. *The Muslim World. Vol.I The Age of the Caliphs* (Leiden 1960)
- Burn, ARR. *Persia and the Greeks* (London 1984).
- C. E. Bosworth, *Barbarian Incursions: The Coming Of The Turks Into The Islamic World* (Oxford 1973)

- Clara M. Henning.*Cannon Law and the Battle of the Sexe*s (New York 1974)

- Coul ton, G. G. *Medieval Panorama* (Cambridge 1938)
- Dandemaev, M.A. and Lukonin *The Culture and Social Institutions of Ancient Iran* (Cambridge 1989)
- David Michael Olster.*The Politics of Usurpation in the Seventh Century: rhetoric and revolt in Byzantium* (1993)
- De Lacy O' Leary, D.D. *Arabia Before Muhammad* (New York 1927)
- Deniz Kandiyoti, *Women, Islam and the State*, Middle East Report, No. 173, Gender and Politics. (Nov. - Dec., 1991)
- Dodgeon M. H., and Lieu S. N. C. *The Roman Eastern Frontiers and the Persian Wars* (London 1991
- Draper, J. W. *A History of the Intellectual Development of Europe.* (London, 1864)
- D.S. Margoliouth. *Mouhammed and the rise of Islam* (London 1978)
- Dobbs, D. *Family Matters: Aristotle's Appreciation of Women and the Plural Structure of Society*. *American Political Science Review* (USA 1996)
- E. Krentz. *The Historical Critical Method* (Carlisle, 1992)
- Emilie Amt.*Women's Lives in Medieval Europe : A Sourcebook* (New York 1993)
- Esposito, John *Islam: The Straight Path* (Oxford 1998).
- Francesco Gabrieli. *Muhammad and the Conquests of Islam*(Italy, 1968)
- Francesco Gabrieli, *The Arabs A Compact History* (USA 1957)
- Gibbon, Edward. *Oxford Dictionary of National Biography* (Oxford: 2004)
- George Bernard Shaw**.** *The Genuine Islam* (Singapore 1936)
- Hamilton Gibb. *Studies on the civilization of Islam* (USA. 1982).
- H.A.R. Gibb. *WHITHER ISLAM a Survey of Modern Movements in the Moslem Wordl* (New York 2000)

- H.A.R. Gibb. *WHITHER ISLAM* (London 1932).
- Henri Jajfel. *Individuals and Groups in Social Psychology*. British Journal of Social and Clinical Psychology (London 1979)
- Henrietta Leyser. *Medieval Women: A Social History of Women in England 450 – 1500* (New York 1995)
- Jacoub, Neusner**.** *Judaism in Modern Times* (USA, 1995)
- James A. Michener**.** *Islam: The Misunderstood Religion***.** in READER'S DIGEST (American edition), May 1955
- Jerry Falwell. *Listen America* (New York 1981).
- Joel T. Rosenthal. *Medieval Women and the Sources of Medieval History* (Georgia 1990)
- John Bagot Glubb, *The life and Times of Muhammad* (London 1970)
- John Esposito.*Islam: The Straight Path* (Oxford 2005).
- John M. Darely and Russell H. Fazio, *Expectancy Confirmation Processes Arising in the Social Interaction Sequqnce*. American Psychologist, vol. 35, no. 10(October 1980)
- Joseph Frankel. *International Relations in a Changing World* (Oxford 1988)
- Karen Armstrong. *The Gospel According to Woman* (London 1986)
- Karen Armstrong. Muhammad a prophet for our time (USA 2006)
- Kelly, Marjorie. Islam. The Religious and Political Life of a World Community (New York 1984). Lefkowitz, M., and M. Fant. *Women's Life in Greece and Rome* (USA 1992)
- Louis M. Epstein.*The Jewish Marriage Contract* (New York 1973)
- Michael Bonner. *Poverty and Economics in the Qur'an*, Journal of Interdisciplinary History, xxxv:3 (Winter 2005)
- Madeleine Pelner Cosman.*Women at Work in Medieval Europe* (New York 2000)
- Mark Alan Epstein. *The Ottoman Jewish Communities and their role in the 15th and 16th centuries* (1980).
- Marcus J. Borg, Marcus J. *Meeting Jesus Again for the First Time: The Historical Jesus and the Heart of Contemporary Faith* (1994)
- Mark Wittow. *The Making of Byzantiu 600-1025* (USA 1996)
- Marshall G. S. Hodgson. *Rethinking World Historyy* (Cambridge 1993)
- Martin Luther. *Lectures on Genesis*, Vol 1 *of luther's Works* (USA 1958)
- Mary T. Malone. *Women and Christianity* (Ottawa 2000)
- Maureen Fant.*Women's Life in Greece and Rome* (Johns Hopkins, 1992)
- Maxime Rodinson, *Muhammad* (New york, 1980)
- Menachem M. Brayer. *The Jewish Woman in Rabbinic Literature: A Psychosocial Perspective* (N.J 1986)
- Nancy van Vuuren. *The Subversion of Women as Practiced by Churches, Witch-Hunters and Other Sexists* (Philadelphia)
- Nicholson. *Literary History of the Arabs* (Cambridge 1930)
- Olmstead, A.T. *History of the Persian Empire* (Chicago 1948)
- Oliviour Zunz & Alan S. Kahan.*The Tocqueville Reader* (Oxford, 2003)
- Paul F. Secord and Carl W. Backman. *Social Psychology* (New York 1974)
- Percy Sykes. *A History of the Persians* (1951)

- Peters, F E. *Muhammad and the origins of Islam* (New York 1994) Pomeroy, S. B. *Goddesses, Whores, Wives, and Slaves: Women in Classical Antiquity* (New York, 1976)
- R.A. Nicholson, *Literary History of the Arabs*. (Cambridge 1956)
- R.E. Friedman. *Who Wrote the Bible*? (San Francisco 1987).
- RH Barrow. *Slavery in the Roman Empr**e*** (1998).Robert Briffault. *The making of humanity* **(**London, 1938)
- Robert G. Hoyland. *Arabia and the Arabs from the bronze age to the coming of Isla*m (London, 2003)
- Rodriguez, Junius.*The Historical Encyclopedia of World Slavery* (1997)
- Samuel Sandmel. *Jewish Understanding of the New Testament* **(** 1957)
- Sandra, Mackey. *The Iranians: Persia, Islam and the Soul of a Nation* (USA 1996)
- Schimmel, Annmarie. *And Muhammad is His Messenger* (USA 1985)
- Simon Heffer. *Moral Desperado - A Life of Thomas Carlyle* (1995)
- Susan W. Schneider, *Jewish and Female* (New York 1984)
- T. Arnold and A. Guillaume.*The Legacy of Islam* (Oxford 1931)
- T. Arnold. *The spread of Islam in the world* (London 2003)
- Tajfel. *Social Stereotypes and Social Group*s(USA 1980)
- Thena Kendath. *Memories of an Orthodox youth* (New York 1983)
- Thomas Carlyle. *On Heroes and Hero Worship, and the Heroic in History* (USA 1993)
- W. C. Smith. *Islam in Modern History* (London 1963)
- Wiebke Walther. *In Islam Women From Medieval To Modern Times* (New York 1993)
- Wilhelm Roepke, *The Social Crisis of Our Time* (USA 1998)
- W. Montgomery Watt**.** *ISLAM AND CHRISTIANITY TODAY* (London 1983)
- William Montgomery. *Muhammad: Prophet and Statesman* (London 1966)
- W Montgomery Watt. *Muhammad At Medina* (1956 Oxford)

الموسوعات والمواقع الالكترونية

- Encyclopaedia of Islam Online. Ed.
- The Encyclopedia Of Religion.(New York 1986)
- Encyclopedia of World Biography, 2nd ed. Gale Research, 1998
- The Catholic Encyclopedia
- The Columbia Electronic Encyclopedia..
- Encarta Encyclopedia 97 CD
- Britanica Encyclopedia. 1999. Inc CD-Rom.
- http://www.betham.org/kulanu/iansilver.html.
- http://www.betham.org/kulanu/iansilver.html http://en.wikipedia.org/wiki/Thomas_Carlyle [1] - http://en.wikipedia.org/wiki/Gender_roles_in_Islam
- http://www.bbc.co.uk/history/ancient/romans/empire_03.shtml.http://en.wikipedia.org/wiki/Anti-Muslim. Castle, Stephen.
-